العدد (٥٨٣) ربيع الأول ١٤٣٥ هـ / يناير ٢٠١٤ م

أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

50 عاماً من العطاء

الدين والعلم

قصة التاريخ الهجري

أجوبة لطيفة عن أربع سؤالات شريفة

التكافؤ الاقتصادي بين الربا والتورق

الاعتذاريات النبوية بين عصرين من الشعر

قراءات في الأعمال الرشدية الصادرة بالألفية الثالثة

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»

مجلة

الوعي الإسلامي

تهديكم جديد إصداراتها

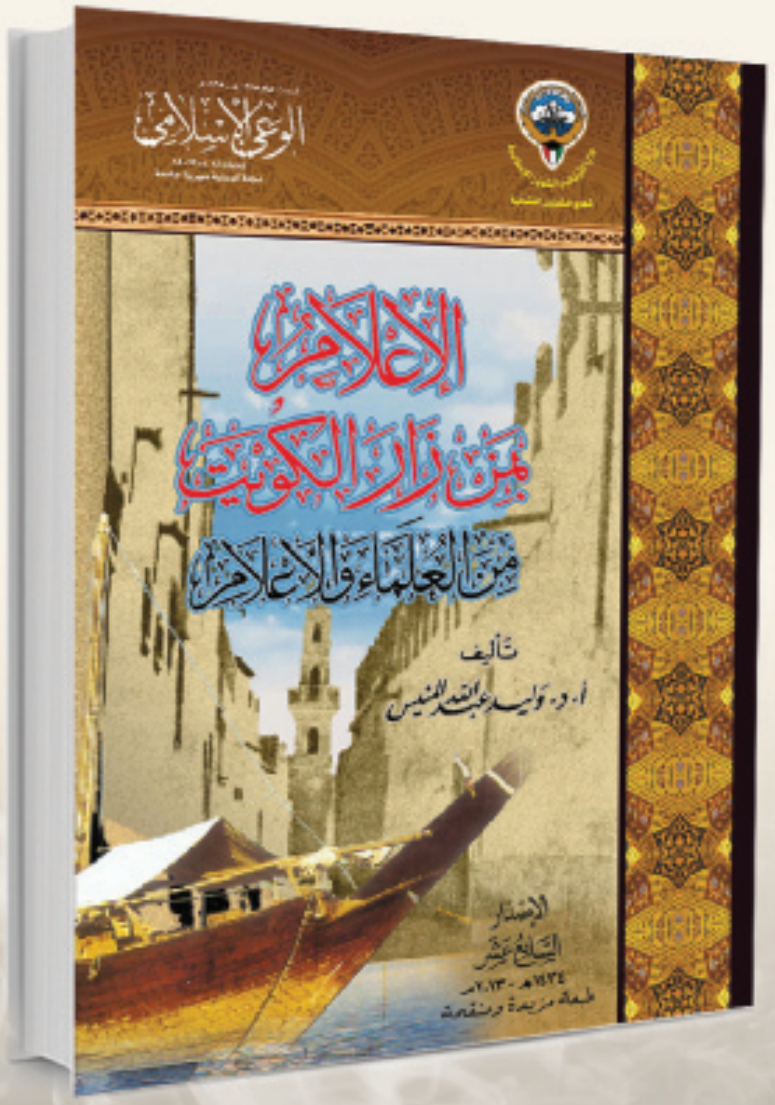

طبعة مزيدة ومنقحة من كتاب «الإعلام بمن زار الكويت من العلماء والأعلام» للدكتور وليد عبدالله المنيس، قدم إضافة جديدة ونوعية للقراء وطلبة العلم والباحثين

صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ الكويت هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

البريد الالكتروني: manager@alwaei.com - info@alwaei.com

الافتتاحية

أنتم أعلم بأمور دنياكم

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

لا تضاد بين العلم والدين، ولا خصومة بين القديم والجديد، والقول بالتنافر قول مخالف للواقع، فإن الديانات المختلفة متفقة على هذا الأمر، والتي ينتسب إليها ويؤمن بها عدد كبير من رجال العلم والمعرفة في جميع الأزمنة والأمكنة، ولا يشك أحد في قدراتهم وإبداعاتهم العلمية.

ويحاول دعاة الإلحاد والمشككون في الديانات أن يوهموا الناس بأن الدين ينبذ العلم، بكلام يزخرفونه، وأوهام يدسونها، ومتى آنسوا من الناس غفلة، ومن حماة الدين هجعة، كانت لهم صولة وجولة، ولكن الله وهب للناس العقول، ليفرقوا بين الحقيقة والمجهول، وبين العلم الصادق والوهم الكاذب، فالإسلام يحتوي أسمى التعاليم وأكمل الوصايا والإرشادات الكفيلة بتقدم الأمم وارتقائها، وإن تأخر المسلمين ناتج من عدة أسباب، سياسية واقتصادية وأخلاقية واجتماعية، وهي في مجموعها ترجع إلى إهمال القانون الأساسي الذي يجمع بين مصالح الدين والدنيا، كما يجب التنبيه على الفرق بين الإسلام في مصادره وبين المسلمين في أنفسهم وبحالتهم التي هم عليها، فقد ضل كثير من الغرب حين ظنوا أن التخلف والتأخر ناتج عن عمل المسلمين بدينهم، وأن الإسلام هو العلة، فلم يفرقوا بين الإسلام في ذاته بقطع النظر عن أتباعه، وبين واقع المسلمين الماثل، لذا فالواجب على المسلمين أن يستفيدوا من الحضارة الجديدة بما لها وما عليها، ويدرسوا تجاربهم، فلا معنى أبدًا لأن نتجاهل الجهود الإنسانية التي بذلت في إبداع هذه الحضارة..

وعلينا أن نطلع على ما لدى الآخرين من علم وإبداع وكل مفيد، كما ينبغي ألا نرفض حكمة جاءت من عدو، ولا نبخس حصاد الذكاء البشري مهما كان موطنه، لنستقبل الجديد من عوامل الإبداع، شرط ألا ينسينا أصولنا وثوابتنا، والدين لم يترك شيئا من الأمور المدنية ولا الدينية العامة ولا القواعد الكلية.. أما الجزئيات فتركها ليستنبطها العلماء باجتهادهم على حسب الزمان والمكان واحتياجاتهم، وفي تاريخنا الثقافي والإبداعي نفائس ودرر اختفت في ركام عهود الانحلال والضلال، مما يجعل التركة علينا ثقيلة في البحث والتنقيب عنها، والإبداع من خلالها، والله المستعان.

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٨٣ | ربيع الأول ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
يناير ٢٠١٤ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
يحيى بوم

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير – مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ
الكويت – هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ – ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ – ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية–٤٣ شارع
دجلة – متفرع من شارع جامعة الدول العربية
– المهندسين – الدور الأول – مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي المجلة.

في هذا العدد

الدين الإسلامي يشجع على اكتساب العلم ويحتضن العلماء وهو براء مما خلفه مسلمون تكاسلوا بعدما بلغوا مراتب عليا.

٨

القيم في الإسلام.. سورة الحجرات نموذجا

٤٨

عقد الضمان في الفقه الإسلامي

٦٤

معاني القعود في القرآن الكريم ودلالاتها التربوية

٧٢

مذكرات الفتاة المسلمة

التوزيع وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) – فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر – القاهرة – شارع الصحافة – جريدة أخبار اليوم . – ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن – صنعاء – الدار العربية للنشر والتوزيع ت – ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان – شركة نعنوع الصحفية – ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا – دمشق – برامكة – ص.ب ١٢٠٣٥ – ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ – المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن – عمان – شركة وكالة التوزيع الأردنية – ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ – ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب – الدار البيضاء – ص.ب ١٣٦٨٣ – ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس – ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ – الشركة الشريفية
- مملكة البحرين – المنامة – ص.ب ٣٢٦٢ – ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ – مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة – ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ – شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية – الرياض – ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ – ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ – الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان – مسقط – ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ – ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ – مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر – الدوحة – ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا– شركة – المصطفى ميديا جروب سندرين برحد – ت– ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر – شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس – الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة – لندن – شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار
●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها .

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

٣	افتتاحية /	فيصل يوسف العلي
٦	قضايا/ قراءات في الأعمال الرشدية الصادرة بالألفية الثالثة	بشرى شاكر
٨	قيم/ القيم في الإسلام.. سورة الحجرات نموذجا	د. مراد زهوي
١١	ثقافة/ البشريات القرآنية بين الأمل والعمل	د. محمد علي يوسف
١٤	حوار/ د. مختار المهدي: تغليب المصلحة العامة يعيد للأمة ترابطها	إسلام لطفي
١٧	أخلاق/ التاجر القدوة	رشيد الحسن
٢٠	ملف العدد/ لماذا تأخر المسلمون	شكيب أرسلان
٢٢	ملف العدد/ العلم أساس النهضة	هواري عبدالقادر
٢٤	ملف العدد/ كيف نهيئ أطفالنا للتفكير العلمي؟	الطيب أديب
٢٦	ملف العدد/ التعليم الذي ننشده	د. محمد سعيد باه
٢٩	ملف العدد/ فضل كفالة العالِم المعلم والطالب المتفرغ	د. محمد الأمسمي
٣٢	ملف العدد/ علم الكيمياء وتطبيقاته في الحضارة العربية والإسلامية	د. رفعت هلال
٣٧	ملف العدد/ إسهامات الحضارة العربية والإسلامية في علم الفلك	د. أحمد فؤاد باشا
٤٠	دراسات/ النبي ﷺ وذوو الاحتياجات الخاصة	محمد فتحي النادي
٤٤	دراسات/ التكافؤ الاقتصادي بين الربا والتورق (١-٢)	د. سامي السويلم
٤٨	دراسات/ عقد الضمان في الفقه الإسلامي	د. صالح النهام
٥١	خواطر/ لتحيا الحياة	صبحة بغورة
٥٢	فكر/ الفطرة: خرائط المفهوم وبناء المستقبل	د. هبة رءوف عزت
٥٤	لغة وأدب/ القول المأثور في الصواب المهجور (١٧)	عبدالله أيت الأعشير
٥٦	لغة وأدب/ الاعتذاريات النبوية بين عصرين من الشعر	محمد أبوالسعود
٥٩	لغة وأدب/ البحث عن وطن	طارق نصار
٦٠	لغة وأدب/ من جمال النظم القرآني في سورة الإخلاص	د. أحمد إسماعيل
٦٢	تراث/ أجوبة لطيفة عن أربع سؤالات شريفة	صالح عبدالخالق
٦٤	تربية/ معاني القعود في القرآن الكريم ودلالاتها التربوية	د. مصطفى رجب
٦٧	أسرة/ الأنشطة المدرسية بين اعتبارات التربية وضغوط الواقع	حمدي سعيد
٧٠	أسرة/ نعمة الذرية بين المنحة والمحنة	رضى الحمراني
٧٢	أسرة/ مذكرات الفتاة المسلمة	سعاد بعوش
٧٤	أسرة/ الأسرة بين الشرق والغرب	محمد شعطيط
٧٦	أسرة/ أخاف النوم وحدي	ريهام عاطف
٨٠	قضايا/ قصة التاريخ الهجري	د. مسعود صبري
٨٢	تحقيق/ كيف اعتنى الإسلام بالمسنين	منى الموجي
٨٥	إدارة/ إدارة الرقابة الشرعية الداخلية في الشركات	د. سلطان السهو
٨٦	طب/ الماء.. فوائده الصحية والجمالية	منور عثمان
٨٨	تاريخ/ كتابة التاريخ الإسلامي ودعوات التنقية	د. أحمد الشال
٩٠	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش
٩٢	كتب عربية علمت الإنسانية	خالد خلاوي
٩٤	بريد القراء	علاء عبدالفتاح
٩٦	ينابيع المعرفة	تركي النصر
٩٨	مسك الختام/ القلم أمانة	خالد برادة

كلمة العدد

إنما بعثت معلمًا

أثبت التاريخ أن رسول الله ﷺ كان معلما وأي معلم؟ فنظرة يسيرة إلى ما كانت عليه البشرية قبل رسول الله ﷺ، وإلى ما آلت إليه البشرية بعد رسالته، تعطينا أوضح شاهد ودليل على ثبوت ذلك.

وإذا لاحظنا النماذج المعلمة الهادية من النوع الإنساني، التي شاهدتها البشرية بعد الرسول المعلم ﷺ رأيناها تدل أقوى الدلالة على عظم هذا المعلم المربي الكبير، الذي تتقاصر أمامه أسماء كل الكبار الذين عرفوا وذكروا في عالم التعليم والتربية وتاريخهما.

فأي معلم من المربين تخرج على يديه عدد أوفر وأهدى من هذا الرسول الكريم، الذي تخرج به هؤلاء الأصحاب والأتباع؟ فكيف كانوا قبله؟ وكيف صاروا بعده؟ إن كل واحد من هؤلاء الأصحاب دليل ناطق على عظم هذا المعلم المربي الفريد الأوحد. وهذا يذكرنا بكلمة طيبة جدا لبعض الجهابذة الأصوليين، يقول فيها: لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه، لَكَفَوْه لإثبات نبوته.

ولا غرابة أن يتخرج على يديه ﷺ هذا العدد الجم الغفير من الناس، في فترة وجيزة من الزمن، فإنه قد سلك بهم ﷺ مسلك التعليم الجماعي المستنفر، ودفعهم إلى محو العامية دفعا، وحضهم على ذلك وندبهم إليه، وحذرهم من الفتور فيه تحذيرا شديدا.

المرجع: الرسول ﷺ المعلم

الاشتراكات
• داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير - للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
• دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
• الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
• للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

قراءات في الأعمال الرشدية الصادرة بالألفية الثالثة

تقرير: بشرى شاكر- المغرب

نظمت الجمعية المغربية للبحث في الفلسفة الإسلامية برنامجا دراسيا حول المنجز المغربي في البحث بالفلسفة العربية الإسلامية، وذلك خلال شهر نوفمبر الماضي بحضور ثلة من الأكاديميين والباحثين والمتخصصين.

وتناولت الدورة الأولى من البرنامج عنوان «الأعمال الرشدية الصادرة في الألفية الثالثة» نظرا للتراكم النسبي كما وكيفا الذي حققته الدراسات والتحقيقات الرشدية في المغرب، وهي الدراسات التي بدأت بقوة في سبعينيات القرن الماضي، وتناولت قضايا مثل الميتافيزيقية كالواحد والوجود والذات والغير وقضايا الفلسفة الطبيعية.

وناقشت الفعالية سبعة كتب لباحثين مغاربة، من بينها ثلاثة مؤلفات لمحمد المصباحي وهي: «مع ابن رشد»، «من الوجود إلى الذات»، «الوحدة والوجود عند ابن رشد»، ومؤلف «ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية» لمحمد بن شريفة، وكتاب «الفقة والفلسفة في الخطاب الرشدي» لإبراهيم بورشاشن، وكتاب «تمثيلات واستعارات ابن رشد» لفؤاد بن أحمد، وكتاب «العالم بين التناهي واللاتناهي لدى ابن رشد» لمحمد مساعد.

ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية

كانت البداية مع قراءة نقدية لكتاب شيخ المحققين المغاربة محمد بن شريفة «ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية»، وهو الكتاب الثاني المكتوب بالعربية بعد كتاب «المتن الرشدي» للمرحوم جمال الدين العلوي، والذي صدر عن مطبعة النجاح بالدار البيضاء سنة ١٩٩٩م.

يقول فؤاد بن أحمد: «إن الطبيعة التوثيقية للكتاب هي الهوية المعلنة في عنوانه، فلا توجد دراسة تتناول ابن رشد إلا وكان ضمن لائحة مراجعها، بل هناك مقالات فرنسية حديثة الصدور ترجمت لمحتويات الكتاب».

ابن شريفة وضع في كتابه وثائق جديدة تبين أن ابن رشد ليس فقط محط حقد البعض، بل أيضا محط دفاع وإعجاب وثناء الكثيرين من معاصريه، ومن ذلك شهادة ابن طملوس، ما يجعلنا نعيد النظر في التصورات الشائعة حول موقف أهل عصره منه، وبذلك يختلف عن السير المعروفة السابقة عن ابن رشد.

الكتاب الذي يقدمه محمد بن شريفة على أنه عمل متواضع جاء في ذكرى احتفال العالم بسنة ابن رشد، يضم مواد ونصوصا مفصلة وموثقة لأبي الوليد ما تزال في حاجة إلى البحث والدراسة والكشف والإبانة، وقد بذل ابن شريفة جهدا كبيرا في تتبع النصوص التي توثق لسيرة ابن رشد، وجمعها من مصادر متعددة ومراجع مختلفة، وبعضها يؤخذ لأول مرة فيما أعيد نشر البعض الآخر مع تحقيقات وتعريفات.

للكتاب عشر خصائص يعلن عنها المؤلف بنفسه، ومن بينها أنه يقف عند حدود السيرة ولا يتجاوزها إلى الغوص في عقل ابن رشد أو في أثره، أيضا حرصه على جمع أقصى قدر من المادة المتعلقة بحياة ابن رشد وسيرته، وتوثيقه لهذه المادة، وذلك بنسبة كل مادة إلى مصدرها وصاحبها، والسيرة لا تترك اسما أو علما من الأسماء الذين يجري ذكرهم دون الإحالة على مواطن تراجمهم أو التعريف بهم، وتشتمل السيرة على مواد جديدة وعناصر مجهولة في سيرة ابن

رشد، وتلقي شيئا من الضوء على نشأة ابن رشد وبدايته، كما تقدم هذه السيرة لأول مرة شهادات في الدفاع عن ابن رشد.

وتضمن ملحق الكتاب شجرة جينيالوجية لابن رشد تعرف لأول مرة لآل بن رشد، وقد حوى ثمانية عشر علما، ابتداء من الجد الأعلى رشد وانتهاء بعبد الرحمن آخر المعروفين من الأسرة الرشدية.

الفقه والفلسفة في الخطاب الرشدي

كتاب «الفقه والفلسفة في الخطاب الرشدي» لإبراهيم بورشاشن، وقام بتعريفه الباحث نبيل فازيو، وإن أهم ما تميز به عن غيره هو بحثه في الخطاب الفقهي لابن رشد المتكلم والفيلسوف، ورغم أن عنوان الكتاب يوحي بأن مدار حديثه على العلاقة التي ما انفكت تجمع القول الفقهي بالقول الفلسفي في الإطار الرشدي، ورغم ما توحي مقدمته من رغبة في الخوض في سجال بات كلاسيكيا بين الرشديين حول طبيعة العلاقة التي تربط الفقه والفلسفة في الخطاب الرشدي، فإن الناظر في الكتاب يدرك أن الهم الرئيسي تجلى في وضع اليد على الوحدة الحاكمة في خطاب ابن رشد.

إن ما حمل المؤلف على خوض مجازفة القراءة التركيبية للمتن الرشدي رغبة تتجاوز الحدود الضيقة للعمل الأكاديمي المحض إلى رغبة في امتلاك ابن رشد العربي المسلم، أو إعادته إنسانيا إلى جسم الثقافة العربية المسلمة التي نشأ فيها فقيها وترعرع فيها فيلسوفا.

يضيف فازيو: بقدر ما يقدم هذا الكتاب فهما رصينا للخطاب الرشدي فإنه يرسم معالم قراءة جديدة ومغايرة لتراث أبي الوليد، ويصطف المؤلف بطرحه هذا إلى صف المدافعين عن وحدة المتن الرشدي، وعلى رأسهم المرحوم جمال الدين العلوي، بل إننا نجد في هذا المؤلف نوعا من الاستمرارية لكتاب المتن الرشدي.

الكتاب يضعنا أمام أفق منفتح لفهم منابع الفكر الرشدي وتفاعل مكوناته لتتكامل فيه صورة ابن رشد القاضي مع صورته كفقيه وكفيلسوف.

وقد خصص المؤلف حيزا كبيرا من كتابه للنظر بما يمكن وصفه بالمنطلقات الفقهية لفكر ابن رشد لإثبات الدور الكبير الذي لعبه التكوين الفقهي والأصولي في تشكل الفكر الرشدي.

لقد قدم المؤلف صورة واضحة المعالم للتكوين الفقهي الذي تلقاه فيلسوف قرطبة، لذلك كان عليه أن يتحدث عن جسور فقهية عبر منها هذا الفيلسوف إلى الفلسفة بدءا بالتربية الفقهية والعلمية، وتتلمذه بفكر جده الذي كان من المتحدثين إلى الخروج من شرنقة التكرار والحفظ التي تخندق فيها الوعي الفقهي، وكذا بتفاعله مع الفكر الفقهي للغزالي، ثم مع فكر إمام الحرمين الجويني، وصولا إلى ربط تجليات الهاجس الاجتهادي لدى بعض ممثلي المدرسة الفقهية التي ترعرع فيها أبو الوليد، وهي مدرسة علمية تجمع بين الفقه والحديث وتحتفي بالاجتهاد.

إبراهيم بور شاشن

من الوجود إلى الذات

قال الباحث إبراهيم بورشاشن عن كتاب «الوجود إلى الذات» للمؤلف محمد المصباحي: يشكل الكتاب حلقة من سلسلة بحوث ودراسات حول ابن رشد، وجعلت منه أحد الرشديين الكبار في العالم العربي، لاسيما أن المدرسة المغربية الرشدية تقدم الجديد، سواء من حيث المواضيع أو من حيث التناول.

ويقدم الكتاب من خلال عنوانه مسارات معالجاته، فهو يذهب من الوجود إلى الذات، أو بالأحرى يوقفنا على رحلة ابن رشد من الوجود المشار إليه إلى الماهية، إنها رحلة البحث عن الذات من خلال البحث عن الوجود، حيث إن الباحث يريد أن ينبه الدارس إلى طبيعة ما يسمى الفلسفة الوسيطية، والتي تختلف عن الفلسفة الحديثة، فإذا كانت هذه الأخيرة قد تأسست على الذات أولا مع ديكارت، فإن فلسفة ابن رشد وهي جزء من الفلسفة القديمة ما كان لها أن تفكر بهذا الأفق، فقد كان أفقها أرسطيا بالدرجة الأولى، وهذه الرحلة الرشدية للبحث عن الذات تتحرك في هذا الأفق الأرسطي، ولا تنحرف عنه إلا لماما.

المتابع للمؤلف المصباحي من خلال الكتاب، يجد أن الرجل وقاف عند ابن رشد، فلا يكاد يخرج عنه في تأويل لن يرجع إليه، غير أنه ليس عملا إنشائيا كما نجد في العديد من الكتابات عن ابن رشد، بل هو عمل يثير الإشكالات ويبحثها ويثير الصعوبات ويتخطاها، عمل ينصت إلى ابن رشد وهو يخوض غمار الميتافيزيقا ويقتحم لججها، وهو عمل يحاول من خلال هذه الإشكالات والصعوبات أن يبني قولا متماسكا ما وسعه ذلك من خلال أربعة أبواب، ولكل باب فصول، ولكل فصل جمل، والأطروحة التي يعالجها الكتاب هي «كيف كانت رحلة ابن رشد الفلسفية؟»، «من الوجود إلى الجوهر، ومن الجوهر إلى الذات، ومن الصورة إلى الذاتية بصفتها ماهية الماهية، ومن الصورة إلى أعراضها الطبية وغير الطبية».

القيم في الإسلام..
سورة الحجرات نموذجا

د.مراد زهوي
باحث في الدراسات الإسلامية

تقرر عند علماء الأمة أن مكونات الدين ثلاثة: العقيدة، والأحكام (الشريعة)، والأخلاق والآداب (القيم)، وتعد الأخيرة عنوانا للتدين الصحيح، فتمثلها والتحلي بها دلالة على تفهم معاني الدين وإدراك ما يقتضيه، ومخالفة ذلك منافاة لكماله.

يشهد لهذه المعاني الأحاديث الصحاح الكثيرة، منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن!» قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه (شروره)» (رواه البخاري)، وفي لفظ مسلم: «لا يدخل الجنة من

لا يأمن جاره بوائقه». وحديث أبي هريرة رضي الله عنه الآخر قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» (رواه مسلم)... وغيرها من الأحاديث التي تفيد المعنى المتقدم.

وقد اعتنى الإسلام أيما عناية بهذا الركن الركين والأساس المتين من الدين، حتى خص سورة من سور القرآن الكريم لبيان حقائق التربية الخالدة، وأسس المدنية الفاضلة، إنها سورة الحجرات، هذه السورة التي سماها بعض المفسرين بسورة الأخلاق، وهي محور حديثي في هذه المقالة.

جعل الله تعالى من المقاصد الكبرى والغايات الأسمى لبعثة محمد ﷺ إتمام صالح الأخلاق ومكارمها.. وقبل أن يبعثه اصطفاه ورباه ورعاه وزكّاه، حتى وصفه في كتابه بأنه على خلق عظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم: ٤) أي: وإنك يا محمد لعلى أدب رفيع جم، وخلق فاضل كريم، فقد جمع الله فيه الفضائل والكمالات. قال ابن عباس- رضي الله عنهما-: «أي وإنك لعلى دين عظيم، وهو الإسلام»، وهذا أيضا يؤكد القاعدة التي انطلقت منها في بناء هذه المقالة.

وسئلت أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- عن خلقه ﷺ فقالت للسائل: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: «فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن» (رواه مسلم). وكان كذلك ﷺ، فمن أخلاقه- عليه الصلاة والسلام- العلم والحلم والحياء وكثرة العبادة والسخاء والصبر والشكر والتواضع والزهد والرحمة والشفقة وحسن المعاشرة والأدب.. كان ﷺ أحسن الناس خلقا وخلقا، ومعنى هذا كله أن امتثال القرآن- أمرا ونهيا- صار سجية له ﷺ وخلقا تطبعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم.

ومن المعلوم ضرورة أن الله تعالى تعبدنا بالاتباع والاقتداء برسوله ﷺ، وهذا من مقتضيات الشهادة له بالرسالة (وأشهد أن محمدا رسول الله). يقول جل وعلا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران: ٣١)، ويقول سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)، ومما يتأكد فيه الاقتداء أخلاقه وآدابه ﷺ (القيم).

في سورة الأخلاق

إن سورة الحجرات على وجازتها وقصرها تضمنت- كما تقدم- حقائق التربية الإسلامية الراشدة، وأسس الحضارة والمدنية الفاضلة. وسأقف مع كل حقيقة وأساس من هذه الحقائق والأسس الجمة على حدة.

الأدب مع الله تعالى ومع رسول الله ﷺ

يجب التعظيم كل التعظيم لله تعالى، وعدم التعدي على حدوده وحرماته، ويجب لرسوله ﷺ التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام؛ فلا تعتقد ولا تفعل ولا تتحدث خلاف كتاب الله تعالى وخلاف سنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ (الحجرات: ١).

التثبت من الأخبار

يجب التثبت من الأخبار المتناقلة، لاسيما إن كان الحامل لها والمروج لها فاسقا غير موثوق بصدقه وعدالته، فلابد من التأكد من صحة الخبر حتى لا نؤذي الناس، ونحن جاهلون حقيقة الأمر، فنصبح نادمين أشد ما يكون الندم على صنيعنا. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾(الحجرات:٦).

الاستهزاء من الآخر

يجب تجنب السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ ﴿١١﴾﴾ (الحجرات: ١١). وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق وغمط الناس» (رواه مسلم).

قال القاضي عياض- رحمه الله-: «.. وأما بطر الحق، فهو دفعه وإنكاره ترفعا وتجبرا» (١). وقال ابن كثير- رحمه الله -: «والمراد من ذلك (غمط الناس): احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له..»(٢).

الهمز واللمز

يجب تجنب الهمز واللمز، أما الهمز فيكون بالقول، وأما اللمز فيكون بالفعل. فلا يجوز الازدراء بالناس، والانتقاص منهم، واحتقارهم والطعن عليهم لا بالقول ولا بالفعل. قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ (الحجرات: ١١).

التنابز بالألقاب

يجب الابتعاد عن التنابز بالألقاب(٣)، وهو التداعي بالألقاب التي لا يحب المخاطب سماعها ومناداته بها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ (الحجرات: ١١)، وقد نزلت هذه الآية الكريمة في بني سلمة، فعن أبي جبيرة بن الضحاك قال: «فينا نزلت في بني سلمة.. قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعي أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا فنزلت ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾» (صححه الألباني).

إذن فالتنابز فعل قبيح شنيع ذميم، فهو فسق، وفاعله فاسق، ولذلك قال تعالى عقب النهي عن هذا الخلق ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾، قال الإمام البيضاوي- رحمه الله-: «وفي الآية دلالة على أن التنابز فسق، والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح»(٤).

سوء الظن

يجب تجنب الكثير من الظن، والظن هو أن يكون عند الإنسان احتمالان ترجح أحدهما على الآخر. وهنا عبر الله تعالى بقوله: ﴿كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ﴾ ولم يقل سبحانه: اجتنبوا الظن كله، لأن الظن ينقسم إلى قسمين: الأول منهما ظن الخير بالإنسان، وهذا مطلوب ما دام الإنسان أهلا لذلك، وهو المسلم الذي ظاهره العدالة، فإن هذا يظن به خيرا، ويثنى عليه.

الثاني منهما: ظن السوء، وهذا يحرم بالنسبة لمسلم ظاهره العدالة، فإنه لا يحل أن يظن به ظن السوء كما نص على ذلك العلماء. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه وأن نظن به إلا خيرا»(سنن ابن ماجه)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث.. » (رواه البخاري). وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرا، وأنت تجد لها في الخير محملا».

التجسس

يجب تجنب التجسس، فلا تبحث أيها المسلم عن عورات المسلمين، ولا تتتبع عيوبهم، فمن تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في قعر داره. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. وقال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «.. ولا تحسسوا ولا تجسسوا.. ».

قال بعض العلماء: «التحسس بالحاء الاستماع لحديث القوم، وبالجيم البحث عن العورات، وقيل بالجيم التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، والجاسوس صاحب سر الشر، والناموس صاحب سر الخير، وقيل بالجيم أن تطلبه لغيرك، وبالحاء أن تطلبه لنفسك.. وقيل هما بمعنى، وهو طلب معرفة الأخبار الغائبة والأحوال..» (٥).

الغيبة

يجب تجنب الغيبة، وهي: كما قال ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»(رواه مسلم). قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾. والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «ائذنوا له، بئس أخو العشيرة» (رواه البخاري)، وكقوله لفاطمة بنت قيس- وقد خطبها معاوية وأبو الجهم-: «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه» (رواه مسلم).. وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، أي: كما تكرهون هذا طبعا، فاكرهوا ذاك شرعا، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها.

فهذا غيض من فيض من القيم الرفيعة والأخلاق السنية التي حكمت سلوك المسلمين على تعاقب الأزمنة والسنين، منذ بعثة النبي ﷺ وإلى يومنا هذا، تدل على رفعة هذا الدين وسموه وشموليته وعالميته، وأنه بحق الدين الذي يستحق أن يختم الرسالات، وأن يخلد إلى قيام الناس لرب السموات.. فكل ما تعانيه المجتمعات الإسلامية اليوم في جانب القيم هو نتيجة حتمية للقطع مع هذه القيم الربانية والحقائق التربوية الخالدة.. فهلا عدنا- والعود أحمد- إلى تمثلها حتى نحيا حياة طاهرة طيبة صافية نقية؟

الهوامش:

١- شرح النووي على صحيح مسلم، لمحيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي: ٣٤٥/١.
٢- تفسير القرآن العظيم، لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي: ٤٦٠/٦.
٣- الألقاب جمع لقب، وهو الاسم الذي يشعر بذم أو مدح، يذكر تارة للتعريف وتارة للتنقص. وإذا كان للتنقص، وكان ذلك المسمى به يكرهه، فلا يجوز أن يذكر به، فينادى بكنيته ولا ينادى بلقبه.
٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشافعي: ٣٧٣/٣.
٥- شرح النووي على صحيح مسلم: ٣٤٣/٨.

د. محمد علي يوسف
طبيب وباحث مصري

﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ (طه: ٧٢).

﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ (الشعراء: ٦٢).

جملتان قرآنيتان مثلت كل منهما رد فعل مختلف تماما لتيقن الأذى ومعاينة البلاء..

الأولى مثلت رد فعل السحرة على وعيد فرعون، بينما كانت الثانية إجابة موسى على من قالوا: إنا لمدركون، حين رأوا جيش فرعون في الأفق يكاد يلحق بهم والبحر من أمامهم.

ثمة فارق ظاهر بين كل رد فعل منهما..

فمع اعتبار فارق مقام النبوة إلا أن موسى عليه السلام كان لديه وعد قطعي محدد، فيه جزمٌ بأن الله تعالى معه هو تحديدا ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (طه: ٤٦)، وأنه لا محالة غالب عدوه ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ (القصص: ٣٥).

لذلك كان رد فعله يقينا قاطعا في وعد محدد له هو بعينه وفي حياته..

هنا قال للمشككين والمهتزين والمرجفين بجزم قاطع: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾(الشعراء: ٦٢)..

قضية منتهية لا يوجد لديه ذرة شك فيها..

أما السحرة فلم يكن لديهم مثل ذلك الوعد القطعي المحدد لأعيانهم، والذي يقطع لهم من الله بالنجاة الدنيوية من قبضة الطاغية.. لكن مع ذلك كان رد فعلهم الصدع بالحق والثبات عليه ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ (طه: ٧٢) جنبا إلى جنب مع التسليم الكامل لقضاء الله في عزة واستعلاء على الباطل بلا أدنى ذلة أو استكانة أو وهن.. ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢﴾ (طه: ٧٢)، بل تراهم ثبتوا وأقدموا وأمَّلوا خيرا عند من هم إليه راجعون معلنين: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ٥٠﴾ (الشعراء: ٥٠)، ثم أعلنوا الرغبة فيما عند الله والاستبشار بوعده الأخروي الذي هو خير وأبقى ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣﴾ (طه: ٧٣).

لكن الملاحظ أنهم لم يجزموا بنجاتهم في الدنيا، بل التزموا

حدودهم البشرية، ولم يتألوا على رب البرية، بأن ينسبوا إلى أنفسهم ما لم ينسب لها، أو يخصوها بخصوصية زائدة، أو يقيدوا وعدا أطلقه الله سبحانه.. وتلك هي الاستراتيجية الثالثة للتعامل مع الوعود الربانية..

فبعد أن تحدثنا في مقال سابق عن التعامل مع الوعود الربانية أولا بتصديق، وثانيا بغير تضييق، وبينّا أن أساس ذلك التعامل يكون بالإجابة على سؤالين رئيسيين هما:

- أحق هو؟
- ومتى هو؟

وأوضحنا أن الإجابة النموذجية على هذين السؤالين المحوريين تكون من خلال استقراء النصوص القرآنية والنبوية، بالتصديق الكامل واليقين الجازم أولا ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (يونس: ٥٣).

والاستبشار مع عدم التضييق والتألي على الله بتحديد ما لم يحدده، وبتقييد ما أطلقه ثانيا ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ (الإسراء: ٥١).

يأتي بعد ذلك السؤال المحوري الثالث الذي ينبغي على متأمل الوعود والبشريات الربانية أن يسأل نفسه عن إجابته:

- لمن هي؟

لمن تكون تلك الوعود؟ ومن هو المستحق لهذه البشريات؟

إن وعود القرآن وبشرياته- بشكل غالب- هي وعود مطلقة لا تقيد بزمان- كما أسلفنا- والأصل أيضا أنها لا تقيد بأعيان وأشخاص إلا في حالات نادرة، كما حدث مع سراقة ابن مالك ووعده بسواري كسرى، وهي حالة استثنائية، لا تنفي أن الأصل المطرد هو طلاقة الوعود وعدم خصوصيتها بأشخاص معينين، إلا أنه عند الحديث عن صفات المستحقين فإن تلك الوعود ليست مطلقة، فالقضية ليست مجاملات أو محاباة لشخوص بعينهم.. ليست بحفظ الناس لبُشريات، وتذكيرهم أنفسهم بوعود وأمنيات، دون أن يسأل كثير منهم أنفسهم.. لمن هي؟!

لمن هذه الوعود؟ ومن يستحق تلك البشريات؟

بل هي خصائص وخصال ينبغي أن تكون موجودة في الجيل والطائفة التي يتحقق لها الوعد وتتحقق لها البشرى..

تلك هي خلاصة القصة، وإنها كذلك لحقيقة الحياة، وما تعارف عليه الناس في دنياهم.. في الدنيا تجد المُجدَّ المجتهد يلمح بطرفه مآل اجتهاده وعاقبة صبره نجاحا وفلاحا، فيرنو إلى تلك الغاية، ويبذل الجهد للوصول إليها.. بينما يقف معدوم الطموح ساكنا متكاسلا، ثم يبتغي بعد ذاك التكاسل وهذا التقصير لحاقا بالآخر المجتهد!

حاشا وكلا..

لا يظلم ربك أحدا..

ولا يحابي أو يجامل أحدا..

هذا النموذج البشري يعرفه كل منا، ويدرك لامنطقيته التي هي مثال صارخ يوضح خطورة انفصال الظن عن الواقع والتعلق بأهداب الأمل دون العمل.. كحال طالب قضى عامه الدراسي في اللهو واللعب، وفعل كل ما يشتهيه، فلم يترك لذة إلا وقد سارع إليها، ولم يبذل أدنى مجهود، ولم يحرم نفسه من أية متعة.. لم ينفق وقته وجهده إلا على اللهو والتلذذ بكل سبيل.. وحين اقترب الامتحان لم يغير شيئا من عاداته أو يقلل من ساعات نومه الطويلة، ولم يفق من غفلته الثقيلة.. ظل كما هو لاعبا لاهيا لاغيا، فلما جاءت ساعة الحسم تلقى ورقة الأسئلة والإجابة، ومر الوقت ثقيلا دون أن يخط شيئا يذكر، وظلت ورقة إجابته أشد بياضا من الثلج حين لم يجد ما يسطره فيها، وحين أعلنت النتيجة رأى بذله واستحقاقه ماثلا أمام عينيه..

هل يملك حينئذ ترف الدهشة وحق الاستنكار؟!

هل كان يظن أن يجني الثمر دون أن يبذر الحب؟

هل كان يحسب أن طريقه الذي سلك وسبيله الذي اختار لهما نهاية مختلفة عما يراه؟

أي منطق هذا؟

إن مثل هذا الطالب كان يدرك جيدا مآل ما صنع، ورغم ذلك سلك بإرادته طريقا يلوح في أفقه ما هو فيه الآن.. ففيم إذن الدهشة والعجب؟!

هكذا جرت السنن.. من جد وجد، ومن زرع حصد، وهو ما زرع ولا بذر ولا جد، فما وجد وما حصد..

إن هذا هو المنطق المتعارف عليه في أمور الدنيا، فلماذا يصر البعض على التفريق بينه وبين استحقاق وعود الله؟

وإن المتأمل في تلك الوعود القرآنية سيجدها غالبا مخصوصة بصفات ومرتبطة بخصال معينة.. سيجد مثلا بعد الحديث عن أولياء الله الصالحين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (يونس: ٦٣) تخصيصا لهم بالبشارة في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ

ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ (يونس: ٦٤)
وسيجد الأمر بالتبشير مرتبطا بالإيمان والمؤمنين في عدة مواضع من كتاب الله، كما في قوله تعالى ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الصف: ١٣).

وقوله ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ (البقرة: ٢٢٣).

وقوله ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (التوبة: ١١٢).

وسيجده مخصوصا بالمؤمنين أيضا في وصية الله لموسى عليه السلام بتبشير قومه ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (يونس: ٨٧).

وجاءت البشرى كذلك لمن حقق الإسلام لله تعالى كما في قوله ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (النحل: ٨٩).

وفي سورة البقرة نلاحظ أن الأمر بالبشرى خاص بالصابرين: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (البقرة: ١٥٥).

وفي سورة الحج نجد ترابطا بين البشارة وبين مقام الإحسان، وذلك في قوله: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الحج: ٣٧).

وأيضا في سورة الأحقاف نجد التلازم بين البشرى وبين الإحسان ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ (الأحقاف: ١٢).

والمخبتون كذلك لهم نصيبهم من البشرى كما في قوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الحج: ٣٤).

وهكذا في جُل البشريات والوعود القرآنية، إن لم تكن مخصوصة بشخص أو طائفة بعينها، فإنها تكون مرتبطة بصفات وخصائص من حققها استحق أن تشمله تلك البشرى.. إيمان وعمل وصبر وإخبات وإحسان وتقوى وإسلام لله جل وعلا.

صفات وخصائص حري بمن حققها أن ينتصر ويمكَّن له..

ولأن الجزم بنسبة تلك الصفات لشخص أو طائفة بشرية بعينها يعد نوعا من تزكية النفس التي نهى الشرع عنها ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ (النجم: ٣٢).

فإن الجزم كذلك بتحقق الوعود والبشريات الناتجة عن تلك الصفات هو أيضا لون من التزكية والتألي على الله.. لكن الواجب على المسلم بصدد تلك الوعود والبشريات هو السعي الحثيث لتطبيق أعمالها وتكليفاتها وتحقيق شروطها، والبذل الصادق لنيل هذه الاستحقاقات، دون أن يقطع بكونها تحققت فيه أو في جماعته البشرية وطائفته المعاصرة.

فبين بذل وعمل ورجاء وأمل يدور المؤمن، فلا هو اكتفى بآمال مفرغة عن الأعمال، أو تعلق بأهداب التزكية الخالية من حقيقة، ظنا منه كما ظن قوم أنهم أبناء الله وأحباؤه، ولا هو في الوقت نفسه فقد الرجاء في تحقق الموعود، وتعامل مع الأمور بنظرة مادية جافة.. بل أحسن الظن- جنبا إلى جنب- مع إحسان العمل، وصدق الوعد ساعيا لنيل استحقاقه وبشارته، واضعا نصب عينيه سؤالا يسعى جاهدا أن تكون إجابته متجسدة في واقعه وحاله ومآله.

سؤال فحواه: لمن يكون الوعد، وفيمن تتحقق البشرى؟

أستاذ الدراسات العليا بجامعة الأزهر د.مختار المهدي:

تغليب المصلحة العامة يعيد للأمة ترابطها

إسلام لطفي
القاهرة-دار الإعلام العربية

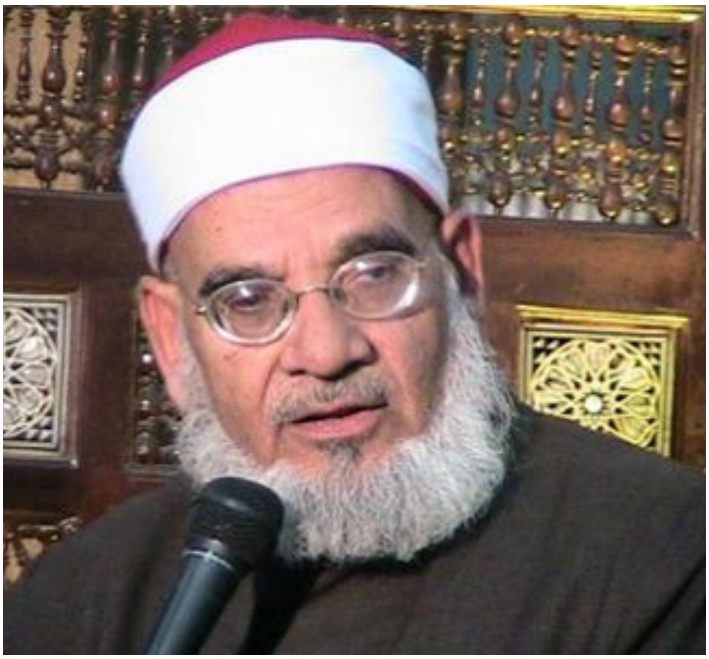

شدد أستاذ الدراسات العليا بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر وعضو مجمع البحوث الإسلامية والرئيس العام للجمعيات الشرعية بمصر الدكتور محمد المختار المهدي، على ضرورة وحدة الأمة الإسلامية على هدف واحد، والخروج من حالة الفرقة والاختلافات التي نعيشها في وقتنا الحالي، وقال في حواره مع «الوعي الإسلامي»: إن التمزق من أهداف أعداء الإسلام الذين يعتمدون على التخويف من الإسلام فيما يعرف بال «إسلاموفوبيا»، وإلى نص الحوار..

- نعيش في مجتمع عربي وإسلامي يفتقد الترابط.. فما تقييمك لوضع المسلمين في الوقت الحالي؟

المجتمع الإسلامي يعاني من الفرقة وكثرة الاختلافات، ما أدى إلى ضعف شديد استغله أعداؤنا في تنفيذ مخططاتهم؛ لإلحاق المزيد من الضعف بأمتنا، وللأسف الأمة غفلت عن توجيهات الله- عز وجل- الذي حدد العدو الحقيقي للأمة الإسلامية وهم اليهود، حيث قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ (المائدة: ٨٢)، ولذلك نجد كلمة «لتجدن» تعبيرا للمستقبل منذ نزول القرآن، ما يعني أن العداوة دائمة ومستمرة.

واستحضار هذه العداوة هو الأساس في تجمع المؤمنين والمسلمين حول هدف واحد، لكن أراد العرب إنهاء هذه القضية على أساس التعايش السلمي مع جميع الشعوب، والإسلام يريد ذلك، لكن مع عدم الغفلة عن وجود عدو، ثم حددوا الإسلام كعدوهم الأخطر.. لذلك نجد الإسلاموفوبيا يتنامى بقوة في أوروبا، إضافة إلى أنه أصبح منتشرًا في العالم الغربي..

فيجب على الأمة الإسلامية أن تستحضر هدفًا لاستعادة قوتها، والالتفات إلى المكيدة التي مازالت تروج لها إسرائيل في أن أرضها من الفرات إلى النيل، فعلى المسلمين القضاء على كل ما يفتت طاقاتهم وقوتهم؛ لتأتي الوحدة وإعلاء شأن الحضارة، وعودتنا إلى المسار الطبيعي، ونكون خير أمة.

- هل ترى أننا نعيد وضع عصور الظلام في الوقت الحالي؟

هذه هي المشكلة القائمة حاليًا في سبيل انتشار الإسلاموفوبيا، فهو مصطلح مشبوه صدقه بعض الناس فصاروا يكرهون الدين الإسلامي، فأعداؤنا يقولون: إن هناك العصور الوسطى المظلمة التي كانت في أوروبا من ذي قبل، وكان حينها العالم الإسلامي يعيش عصور الحضارة، لذلك يشيرون إلى أنها كانت مظلمة بالنسبة لهم لتقدم المسلمين، فلو استعدنا هذه العصور فستكون مضيئة للجميع.

- هناك جدل حول الإسلام كونه دين أمة أم دين دولة؟ ما الفرق بين الوصفين في تقديرك؟

هذا يعد أيضًا ضمن تلبيس إبليس، فلدى الغرب في دياناتهم تجد العلاقة بين الإنسان وربه فقط دون النظر إلى علاقته مع المجتمع وكيفية تنظيمها، لكن الإسلام يختلف تمامًا، فلديه ضوابط ونواه، ويتدخل في

أمور الحياة لضبطها، كما طبقت في عهد النبي محمد ﷺ والصحابة، فهو يشمل جميع نواحي الحياة.

ونجد أن الغرب كثيرًا ما يتحدثون عن الثيوقراطية وتحكم علماء الدين في أمور الحياة، وكل هذا يقصدون به الحاخامات والقساوسة في عصور الظلام، عندما كان القس يتحكم في عقاب الناس وإدخالهم الجنة أو النار، فليس هذا إطلاقًا من شأن الإسلام، فنجد الكفاءة في تسيير الأمور بالتخصص، لكن تحكمها المبادئ والقيم الإسلامية والقرآن الكريم، فالمشكلة أن الغرب يخلطون بين الإسلام والمسيحية، فالمسيحية تقول: إن ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، بمعنى أن الحكم شيء، والدين شيء آخر.

- وما الأسباب الداعمة لحالة التمزق لهذا الحد؟

التمزق الذي يعيشه المسلمون من أهداف اليهود، والقرآن الكريم كثيرًا ما حدثنا عن أن شياطين الإنس يسعون في الأرض فسادًا، ويريدون التصادم بين فئات الأمة الإسلامية؛ حتى لا نجتمع ضد فسادهم، وكلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله، فاليهود يتعمدون إثارة الاختلافات والتفرقة العنصرية، فنجد أول من أنشأ حالة الفرقة هو إبليس: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ (الأعراف: ١٢).

فالوضع الحالي نتيجة لعدم الانتباه لما يكيده لنا أعداؤنا، ونسيان الإخاء والمودة والوحدة النابعة من توحيدنا لله عز وجل، وأنه «لا اله إلا الله محمد رسول الله».

- وإلى أي طريق تسير الأمة في ظل التحجر الفكري الذي نعاني منه الآن؟

لو استمر هذا الوضع لضاعت أمتنا، لكننا على ثقة تامة أن الله يرعى

علينا أن نتمسك بلغتنا.. وأن تكون دراستنا تطبيقية وليست قاصرة على القواعد

ويحمي أمة الإسلام، وسيصحو منها من ينقذها ويوحدها، ونجد المصالح الشخصية هي المتحكم في هذا التحجر.. ولو أن الجميع ينطوي تحت المصلحة العامة ويضحي بمصالحه الخاصة لتقدمنا جميعًا بتقدم الأمة.

- اللغة هي أحد المكونات الحضارية المهمة لأي أمة.. فما أسباب إهمال اللغة العربية في مجتمعاتنا؟

المشكلة تكمن في الاحتلال الأجنبي، حينما كان يحتل أي بلد كان يهتم كثيرًا بلغته وتشييع فكره في المجتمع الذي يحتله؛ ليكون انتماؤه لأصحاب هذه اللغة، وبناء على ذلك كان التركيز على كراهية اللغة العربية وإهمال الكتاتيب التي كانت حارسًا للغة القرآن، إذ إن الطفل في صغره كالحجر ننقش عليه ما يستمر طوال عمره، فكان يعتمد على حفظ القرآن باللغة العربية الفصحى، فيعتمد على الكلام الفصيح، ولكن نجد المجتمع العربي الآن نحى العربية جانبًا، وأصبح تعلمه باللغات الأجنبية في المقام الأول.

ومن المؤسف أننا لا نجد هذه الاختلافات اللغوية في العالم، وبخاصة في المرحلة الأولى من العمر للأطفال، ففي فرنسا يعتزون بالفرنسية، ويمنعون من يحدثهم بغير لغتهم، فهم يؤمنون أنها أساس هويتهم، لذلك علينا كعرب أن نتمسك بلغتنا، وأن تكون دراستنا تطبيقية وليست قاصرة على القواعد.

- وما الطريق لاستعادة المسلمين مجد حضارتهم؟

بدايةً علينا الشعور بضرورة وحدة الأمة، وأنها هي أساس القوة والحضارة والتقدم، مع الأخذ بالحذر من أعدائنا، وعلينا تقديم المصلحة العامة على المصالح الخاصة والفئوية، وعلينا ترسيخ الهوية الإسلامية لدى أبنائنا منذ الصغر، والاعتزاز بأوطاننا وديننا.

إضافة إلى الالتزام بالقيم التي ميز الله بها أمتنا، ونهضت بها سابقًا.. ومازالت صالحة لنهضة الأمة في وقتنا الحالي، وأيضًا علينا محاربة الإسلاموفوبيا خاصة داخل أمتنا، وعلينا الاهتمام بالتعليم، حيث إنه لا حضارة بدون تعليم، فأول كلمة في القرآن ﴿اقرأ﴾، فهي مفتاح العلم وقال الله تعالى للرسول محمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ (طه: ١١٤)، فلابد من الاستزادة والتعمق في العلم النبوي والشرعي، فالقرآن أشار إلى ضرورة التأمل في آياته لنستخرج منها الأسرار التي خلق الله عليها الكون.

ونجد أن الله يدعو إلى العلم المادي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ (فاطر: ٢٧)، وهنا رتب القرآن الخشية من الله على البحث في الآيات الكونية، فنجد نزول المطر وإخراج النبات من الأرض، فهذه علوم الزراعة والطبيعة وعلوم البيئة والتربة والجيولوجيا، ثم نجد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ (فاطر: ٢٨)، ثم قوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾، فلدينا علم مادي كوني وآخر شرعي، كلاهما صادر من الله؛ لأن الكون

لنا والقرآن من عند الله، ولا يمكن أن يتضاربا سويا، بل يتعاونان لخلق العلم الحقيقي بمعرفة أسرار الكون واستخراج ما ينفع الأمة.

- أشرت إلى ظاهرة الإسلاموفوبيا.. فما الأسباب التي أدت إلى تناميها؟

الإسلام يتعارض مع سياسة الغرب التي تعتمد على الاستحواذ وفرض القوة، ونجد القرآن الكريم تحدث عن إعداد القوة بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (الأنفال: ٦٠)، والقوة تعني التقدم في جميع مجالات الحياة علميا وعسكريا واقتصاديا، وهذه القوة ترهب أعداء الله، وتجعلهم لا يجرؤون على اجتياح أرض المسلمين أو الاعتداء على أموالهم وعرضهم، وبناء عليه لا تقع الحرب، فالقوة إذا كانت في يد المسلمين فهي معصومة بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ (البقرة: ١٩٠)، ولذلك لن يحدث المسلم حربًا مطلقًا؛ فأعداؤه يرهبونه، لذلك يصفوننا بالإرهابيين، ويعملون على انتشار الإسلاموفوبيا.

- كونك أستاذًا للدراسات العليا.. ما أهمية الدراسات الإسلامية في مسيرة الإنسان علميًا وثقافيًا واجتماعيًا؟

الدراسات الإسلامية معتمدة على الوحي والعقل، فلا يستطيع العقل أن يقود الحياة دون الاستعانة بالوحي، وحسب نظرية المعرفة فسيأتي وقت لن يستطيع العقل إدراك المستقبل

تلاقي الحضارتين الغربية والإسلامية متوقف على حرية الرأي والحوار الحقيقي

حيث قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ (لقمان: ٣٤)، ولا يدري ما في المستقبل إلا الله.

- يدعي البعض أن تخلف الأمة على المستوى العلمي سببه تمسكها بالدين، والعكس بالنسبة للغرب.. فما تعليقك؟

أولًا لابد من النظر إلى مفهوم التقدم في الغرب؛ فهو تقدم مادي فقط، وعلى الرغم من تقدمهم ووفرة المخترعات الحديثة لديهم فإنهم يعانون من انتشار الأمراض النفسية والعصبية والانتحار؛ فالغرب اعتنى بالمادة وترك الروح.. مع أن الإنسان مكون من مادة وروح، والروح هي التي تحدث التوازن في الشخصية.

- وهل يمكن أن تتلاقى الحضارتان الغربية والإسلامية؟

من الممكن إذا وجدنا حرية في إبداء الرأي والحوار الحقيقي الذي يستهدف الوصول إلى الحقيقة دون تعصب، ولكن إذا تمسك كل برأيه وأنه على الحق دون غيره فلن تتلاقى أي حضارات، خاصة ما نشهده في وقتنا هذا من تعصب الغرب، وظنه أنه وحده من يملك مفاتيح الحضارة، وأن ما لدى العرب ظلام ورجعية.

- هل ترى أن المجتمع العربي بدأ يتخلص من حالة التغريب الثقافي التي تم وضعها من قبل الاستعمار؟ أم أننا نقبع تحت آثاره ووطأته؟

مازال العالم الإسلامي يعتمد على الفكر الغربي، ففلاسفة إنجلترا قالوا: «إذا احتلت إنجلترا شعبًا ٧٠ عامًا، فهو محتل ٧٠ أخرى بعد خروجها»، ونجد ذلك لأنهم يكونون في أثناء وجودهم كيانات وكوادر تحمل فكرهم، إضافةً إلى أن الطلاب العرب الذين يذهبون إلى الغرب للتعليم يتم غسل أذهانهم بهذا الفكر الذي ينص على أن الإسلام دين إرهاب وقيود، فعند وصول المبعوث إلى هذه الدول يتولاه أناس مهمتهم الأساسية إدخال البهجة في نفس الدارس بالحضارة الغربية، وإلصاق صفات العجز والضعف والإرهاب على حضارتنا العربية والإسلامية.. وبناء على ذلك يبدأ في تقليد الغرب.

- كيف ترى انحراف الخطاب الديني؟ وما أسبابه؟

الانحراف ينقسم إلى قسمين، فهناك تعصب للرأي من قبل البعض، ومحاولة إجبار الآخرين على الالتزام بمبادئ بعينها، كالالتزام بأحد المذاهب دون غيرها، كما هو موجود الآن في بعض البلاد، والتي تعتمد على ترسيخ التعصب.

وهناك تطرف آخر وهو البدع والخرافات عند بعض المسلمين، فهناك من يبلور عملية الاختلاف بالتركيز على نقاط ليست من أساسيات الدين، لذلك علينا العودة إلى منهج النبي ﷺ في الدعوة وترسيخ الإيمان بالله، وشرح الآيات القرآنية التي تؤكد معاني الإيمان.

- أخيرًا.. وبصفتك أحد علماء الأزهر.. كيف ترى وضعه في الوقت الحالي؟

يحتاج الأزهر إلى أن يقوى ليملأ الفراغ الموجود، وليصحح الفكر المتطرف، وضعفه يكمن في عدم استقلاله ماديا.. فمنذ نشأته كان تمويله من الأوقاف بعيدًا عن الدولة، إلى أن ضم الرئيس الراحل جمال عبدالناصر الأوقاف إلى ميزانية الدولة، ويوجد حاليًا محاولات لاستقلال الأزهر ماديًا، واختيار رؤسائه وقادته بالانتخاب.

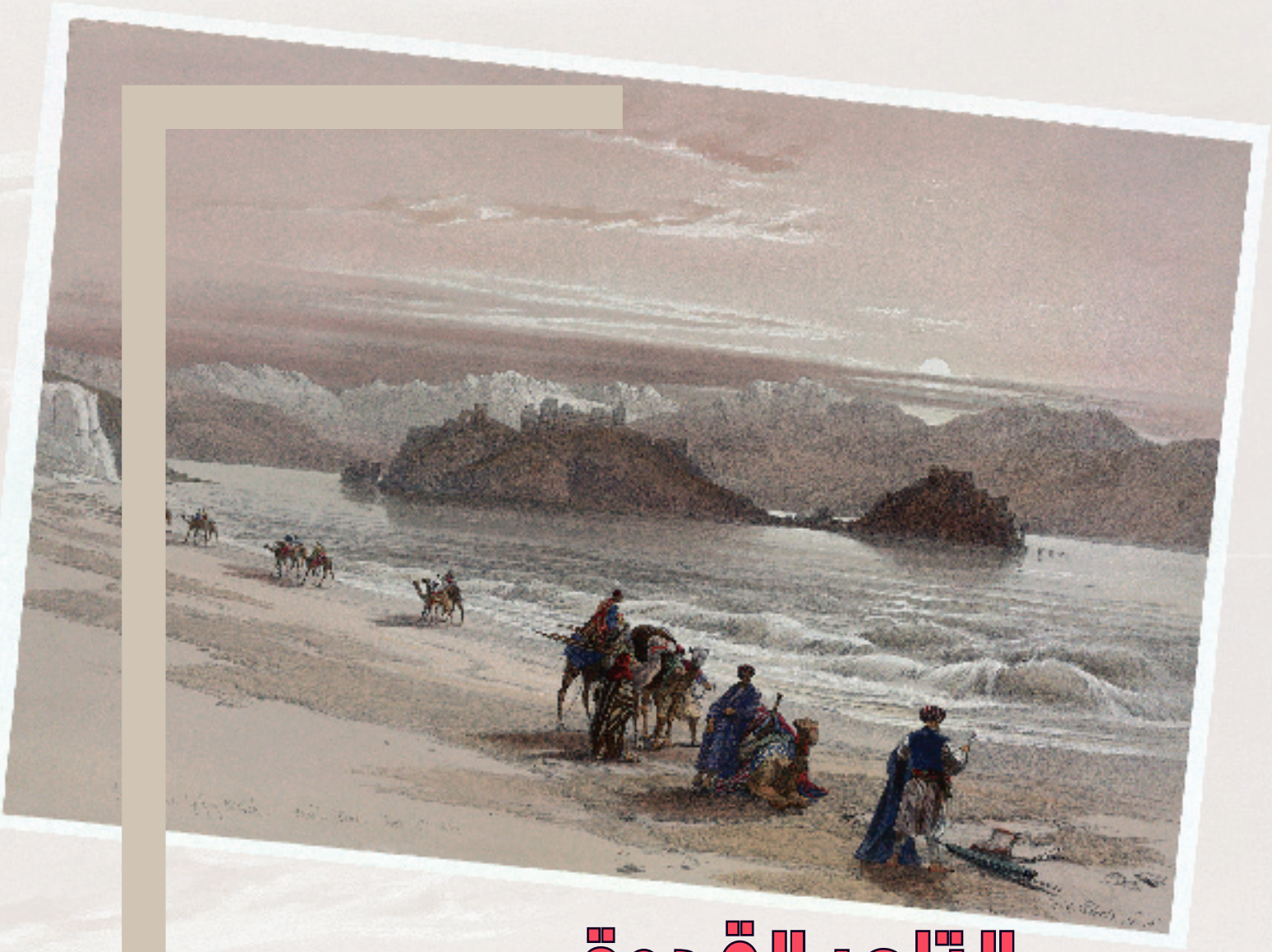

التاجر القدوة

رشيد ناجي الحسن
باحث بوزارة الأوقاف الكويتية

حث ديننا على التجارة عموما، وجعلها من أصول الحلال، بل سماها القرآن الكريم فضل الله، فقال تعالى: (وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله).

وكان التاجر المسلم مثالا لخلق الإسلام، وقدوة لمن يتعامل معه، وعلى إثر ذلك اعتنق كثير من الشعوب هذا الدين العظيم، لما رأوه مجسدا في شخص التاجر المسلم، ولا أدل على ذلك من فهم المسلمين أن التجارة عبادة، وأن للسوق آدابا يجب التزامها، وكان التجّار المسلمون يحملون معهم إلى الآفاق إلى جانب بضاعتهم أفكارهم ومبادئهم، وعقيدتهم الدينيّة مصدر عزهم وفخرهم، فكان ذلك الانتشار السلمي الهادئ للإسلام في ربوع إندونيسيا وجاوا والفلبين وسرنديب، وغيرها من البلاد النائية، كما كانوا يترددون على حواضر العالم الإسلامي في التجارة وطلب العلم والرواية.

ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا: إن الإسلام انتشر في كل مكان وصل إليه التجار المسلمون في العصر الإسلامي الأول، ذلك أن التجار المسلمين كانوا يعتبرون أنفسهم دعاة ومبلغين، قبل أن يكونوا بائعين وشارين.. وتجارا للآخرة قبل أن يكونوا تجارا للدنيا.

-يقول أحد التجار الملتزمين: إنّ كلمة تاجر تعتبر عندنا معشرَ التجار اختصارا في أحرفها الأربعة لعدد مماثل من المعاني، فحرف التاء تعني التقوى، والألف أمانة والجيم جرأة والراء رحمة.

-نعم فالتاجر يجب أن يكون أولا تقيّا، يهاب الله في أعماله وتجارته، وأمينا حيث تقتضي الأمانة في التعامل مع الناس ومع غيره من أولاد الصنعة أن يكون مؤتمنا على الأموال المودعة لديه، وخاصة في فترة السفر إلى الحج، حيث كان معروفا أن يتم إيداع الأموال عند أحد التجار في السوق، وبالتالي تقتضي الأمانة ألا يفرّط بها.

-أما الجرأة فتتطلّب من التاجر أن يكون جريئا في تجارته، لأن التجارة ربح وخسارة.

-أما الراء فتعني الرحمة، أي إن هذا التاجر فيما لو أمن وصول هذه المواد، فأصبحت في حوزته فمن غير المسموح أن يحتكرها، بل يقوم بعرضها بالسعر المناسب، وبربح معقول ولا يستفيد من شحّ المواد بالاحتكار، كما يحصل اليوم في بعض الأحيان.

أما اليوم فقد أصبحنا نسمع عبارة: (التجارة شطارة).. وعندما نسأل هؤلاء التجار عن معنى «أن تكون رجل أعمال شاطر» نجد أنّ كلمة «شاطر» يندرج تحتها كثير من التعاملات غير الأخلاقية، والبعيدة كل البعد عن المعايير الربانية، وروح الشرع ومقاصده العليا، وتحقيق مفهوم عمارة الأرض، ومراقبة الرب في الأخذ بالأسباب الشريفة بإصلاح النية، ومعاملة المسبِّب، وتحقيق الغايات النبيلة. ومثال ذلك أن يبرّر التاجر «الشاطر» الرشوة بذريعة أنه لا يأخذ حقّ غيره، وبدونها تتعطل مصالحه، ويبررها بأنه يوازن بين المصالح والمفاسد، ومصلحة عمله تقتضي ذلك، ولا يدري أنه يفسد المجتمع بأسره بعمله هذا، وصدق المجتمع وهو لا يدري عندما أضفى على هذا النوع من التجار اسم التاجر «الشاطر» ففي اللغة العربية الفصحى كلمة شاطر معناها: المتباعد من الخير. أخذ من قولهم: نوىً شُطُر، أي بعيدة. واحتج بقول امرىء القيس :

وشاقك بين الخليط الشطر

وفيمن أقام مع الحي هرّ

وقال أبو عبيدة: الشاطر معناه في كلامهم: الذي شطر نحو الشر وأراده. الزاهر،١، ١٢٦

هذا وقد وضع إسلامنا العظيم للتجارة آدابا كثيرة، منها:

- **النية الصالحة:** وهي سبب لتحويل العادات إلى عبادات، وتتمثل في ابتغاء الخير لنفسه وإعفافها عن الحرام، وصيانتها عن ذل السؤال، واتخاذ التجارة وسيلة لصلة الأرحام وإيتاء ذي القربى، كما تتمثل في ابتغاء الخير للآخرين بالمشاركة في بناء الأمة حاضرا ومستقبلا، وتحريرها من الاعتماد على الآخرين، وتوفير الحاجات العامة التي يعد توفيرها من فروض الكفايات، وما أشبه هذا بالمقاصد.

- **الخلق الحسن:** مثل الصدق والأمانة والوفاء بالعقود وحسن القضاء والاقتضاء وإنظار المعسر، وتجنب المطل في سداد الديون، وإعطاء الحقوق، وتجنب الغش، والتدليس، ونحو ذلك من الأخلاق الفاضلة الحميدة.

- **التعامل في الطيبات:** فالتاجر المسلم لا يستوي عنده الخبيث والطيب، ولو أعجبه كثرة الخبيث، بل يحل الحلال ويحرم الحرام، ويقف حيث أوقفه الله فلا تستزله لعاعة الدنيا وبريق الربح ليرتكب ما حرم الله عليه.

- **أداء الحقوق دون مَطل أو تسويف:** وعلى رأس ذلك حقوق الله عز وجل في المال من الزكوات المفروضة، ثم حقوق العباد، كأجرة الأجير ودين صاحب الدين.

- **تجنب الربا:** وما كان ذريعة ووسيلة إليه من العقود الفاسدة، فالمرابون محاربون لله ورسوله، والربا من السبع الموبقات، وصاحبه ملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- تجنب أكل أموال الناس بالباطل: فحرمة مال المسلم كحرمة دمه، ولا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه، ومن صور أكل أموال الناس بالباطل الغش والتدليس والمقامرة والغرر والاحتكار والرشوة، وما شابه ذلك.

- **تجنب الإضرار بالآخرين:** فالمستثمر المسلم منافس شريف تحكمه في جميع أعماله الاستثمارية

قاعدة: لا ضرر ولا ضرار. وهي إحدى قواعد الفقه الكلية التي يندرج تحتها من المسائل ما لا يحصى.

- **موالاة المؤمنين:** فالتاجر المسلم ناصح لأمته، وفيّ لعهدها لا يعاون عليه خصومها، ولا يدخل في استثمار مع أعدائها يلحق بها الضرر.

- تعلم أحكام المعاملات في الشريعة الإسلامية، وهذا يجب الابتداء به قبل كل ذلك، فإن العلم قائد، والعمل تابع. وقد ثبت أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كان يضرب من وجده في السوق وهو لا يعرف أحكام البيع والشراء، ويقول: لا يبع في سوقنا إلا من تفقه في ديننا. والمراد هنا بالفقه الفقه النسبيّ، يعني الفقه في مسائل الحلال والحرام، وليس معنى ذلك أن يكون فقيها في جميع أمور الدين، ولكن المقصود أن يكون فقيها فيما يتعامل فيه.

وقد أمر الإمام مالك بأن يقام من الأسواق من لا يعرف الأحكام؛ لئلا يقع في الربا ويوقع فيه المسلمين. يقول الرهوني في كتابه «أوضح المسالك» نقلا عن أحد شيوخه: إنه أدرك المحتسب يمشي على الأسواق ويقف على كل دكان، فيسأل صاحبه عن الأحكام التي تلزمه في بيعه، ومن أين يدخل عليه الربا، وكيف يتحرز منه، فإن أجابه أبقاه في الدكان، وإن جهل شيئا من ذلك أقامه منه، وقال: لا يمكنك أن تقعد في أسواق المسلمين تطعم الناس الربا ومالا يجوز.

وفيما يلي نماذج من تاريخنا العريق للتاجر المسلم الصدوق، فقد أصاب الناس القحط في زمن الصديق رضي الله عنه، فقدمت لعثمان رضي الله عنه ألف راحلة من البُر والطعام، فغدا التجار عليه كلهم يريد شراءها منه، لا للتكسب ولا للاحتكار لرفع الأسعار، وإنما ليوسّعوا على فقراء المدينة في هذه النازلة، فجعل التجار يساومون عثمان على شراء هذه السلعة، حتى أربحوه بالعشرة خمسة عشر، فأبى وأنفقها في سوق المدينة على الفقراء والمساكين، وربح البيع يا ذا النورين.

وصورة أخرى مشرقة من صور حياة تجار سلفنا الصالح، فقد كان محمد ابن المنكدر من معادن الصدق والأمانة، كان له سلع تباع بخمسة، وسلع تباع بعشرة، فباع غلامه في غَيبته شيئا من سلع الخمسة بعشرة ، فلما عرف ابن المنكدر ما فعل غلامه اغتمّ لصنيعه، وطفق يبحث عن المشتري طوال النهار ... حتى وجده، وكان من الأعراب، فقال له ابن المنكدر : إنّ الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة، فقال الأعرابي: يا هذا قد رضيت.

فقال ابن المنكدر: وإن رضيت فإنّا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث:

- إما أن تستعيد مالك وتعيد السلعة.
- وإما أن تُردّ إليك خمسة.
- وإما أن تأخذ من سلعة الخمس سلعة العشر.

فقال الأعرابي: أعطني خمسة، فرد عليه الخمسة وانصرف؛ فسأل الأعرابي أهل السوق عن هذا التاجر الأمين؟ فقيل له: هذا محمد ابن المنكدر، فقال: لا إله إلا الله، هذا الذي ملأ الآفاق ذكره.

أما الإمام أبو حنيفة رحمه الله، فقد كان والده ميسورًا، ويعمل تاجرًا للقماش، وكذلك كان أبو حنيفة.

ولعل التجارة والتعامل مع أنماط مختلفة من مجتمعه كانت من الأمور التي جعلت الإمام أبا حنيفة يوصف بالأمانة الشديدة، والخلق الكريم. وقد كانت لأمانته صور عدة، وآثار كثيرة، منها أن امرأة جاءته بثوب من الحرير تبيعه له، فقال: كم ثمنه؟ فقالت: مائة، فقال لها: هو خير من مائة، بكم تقولين؟ فزادت مائة ثم مائة حتى قالت: أربعمائة، قال: هو خير من ذلك، فقالت: أتهزأ بي؟ فقال: هاتي رجلًا يقوّمه، فجاءت برجل فاشتراه بخمسمائة. فما أعظم أمانته! يحتاط لغيره أكثر مما يحتاط لنفسه، وفاء لحق دينه عليه وأمانته، فكان رحمه الله تاجرًا عرف ربه وعرف حقّ مجتمعه عليه، وعرف أن وراءه يومًا لابد أنه صائر إليه ومحاسب فيه على كل ما اكتسبت يداه.

إنما كانت أمانته كذلك لأن المال كان في يديه، ولم يتمكن من قلبه، فهو يعلم أن ذلك المال فضل من عند الله، ولذا كان يجعل أرباح تجارته لسد حاجات العلماء والمحدّثين والفقراء وقضاء حوائجهم ودفع خلتهم، فيجمع الأرباح من سنة إلى سنة، فيشتري بها حوائجهم وأقواتهم وكسوتهم ويدفع باقي الأرباح إليهم، ويقول: أنفقوا في حوائجكم ولا تحمدوا إلا الله؛ فإني ما أعطيتكم من مالي شيئا ولكن من فضل الله عليّ فيكم، وهذه أرباح بضائعكم؛ فإنه هو والله مما يجريه الله لكم على يدي فما في رزق الله حول لغيره.

رجل لو تشبه به كل تاجر مسلم ....ولو بعشر ما فعل....لكنا بألف خير...ولم يبق فقير واحد في المسلمين.

لذا ينبغي على جميع التجار أن يتذكروا أن هذا المال منحة من عند الله جل وعلا، وقد هيأه الله للتجارة والنماء، وقد يكون ذلك امتحانا واختبارا له، ومن أعطاه الله هذا المال قادر على أخذه منه، فاللهَ اللهَ بالنصح للمسلمين ومراعاة أحوالهم وترك الطمع والجشع.

وختاما فالتاجر القدوة سلعة غابت عن كثير من جوانب حياتنا، وغيابها يمثل خطرا عظيما على المجتمع ذلك لأنّ التاجر الأمين يمثل وجوده في المجتمع ركيزة قوية وعظيمة من ركائز الأمن الاجتماعي، لذا فقد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفوف النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة، وهي أسمى المنازل التي ينالها إنسان يوم القيامة، ولاشك أنه لا ينالها إلا من كان عطاؤه وقيمة عطائه على قدرها.

فهل يكون التجار اليوم دعاة بأعمالهم قبل ألسنتهم، حاملين الهمَّ الرسالي كأسلافهم، داعين العالمين إلى الإسلام، والمنحرفين إلى التوبة والإنابة؟

لماذا تأخر المسلمون؟

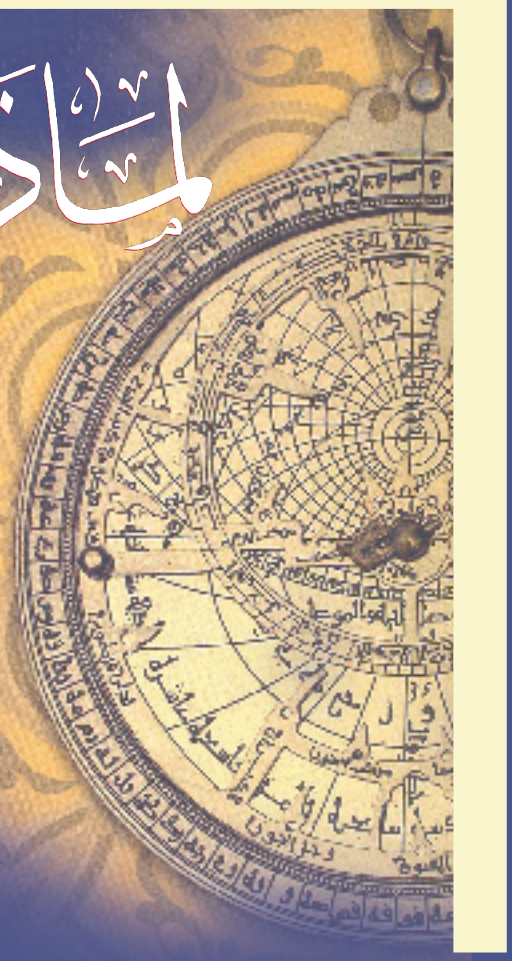

الأمير شكيب أرسلان

من أعظم أسباب تأخر المسلمين: الجهل، الذي يجعل فيهم من لا يميز بين الخمر والخل، فيتقبل السفسطة قضية مسلمة ولا يعرف أن يرد عليها.
ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين: العلم الناقص، الذي هو أشد خطرا من الجهل البسيط، لأن الجاهل إذا قيض الله له مرشدا عالما أطاعه ولم يتفلسف عليه، فأما صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع بأنه لا يدري، وكما قيل: ابتلاؤكم بمجنون خير من ابتلائكم بنصف مجنون، أقول: ابتلاؤكم بجاهل خير من ابتلائكم بشبه عالم.

من السخفاء من يقول: نعم، قد كان ذلك لكن قبل أن يخترع الإفرنج آلات القتال الحديثة، وقبل المدافع والدبابات والطيارات، وقبل أن صار الإفرنج إلى ما صاروا إليه من القوة المبنية على العلم. وهذا القول هو بمنتهى السخف والسفه والحماقة، فإن لكل عصر علما وصناعة ومدنية تشاكله، وهي فيه كما هي العلوم والصناعات والمدنية الحاضرة في هذا العصر. وأمور الخلق كلها نسبية. ولقد كانت في العصر الذي نتكلم عنه آلات قتال ومنجنيقات ودبابات ونيران مركبة تركيبا مجهولا اليوم، وكانت في ذلك الوقت كما هي المدافع والرشاشات وقنابل الديناميت وما أشبه ذلك في هذه الأيام!

على أنه ليست الدبابات والطيارات والرشاشات هي التي تبعث العزائم، وتوقد نيران الحمية في صدور البشر، بل الحمية والعزيمة والنجدة هي التي تأتي بالطيارات والدبابات والقنابل. وما هذه إلا مواد صماء لا فرق بينها وبين أي حجر، فالمادة لا تقدر أن تعمل شيئا من نفسها، وإنما الذي يعمل هو الروح، فإذا هبت أرواح البشر وتحركت عزائمهم فعند ذلك تجد الدبابات والطيارات والرشاشات والغواصات، وكل أداة قتال ونزال على طرف التمام.

ويقولون: إلا إن هذا ينبغي له العلم الحديث، وهذا العلم مفقود عند المسلمين، فلذلك أمكن الإفرنج ما لم يمكنهم.

والجواب: إن العلم الحديث أيضا يتوقف على الفكرة والعزيمة، ومتى وجدت هاتان وجد العلم الحديث، ووجدت الصناعة الحديثة. أفلا ترى أن اليابان إلى حد سنة ١٨٦٨ كانوا أمة كسائر الأمم الشرقية الباقية على حالتها القديمة، فلما أرادوا اللحاق بالأمم العزيزة تعلموا علوم الأوروبيين، وصنعوا صناعاتهم، واتسق لهم ذلك في خمسين سنة، وكل أمة من أمم الإسلام تريد أن تنهض وتلحق بالأمم العزيزة يمكنها ذلك وتبقى مسلمة ومتمسكة بدينها، كما أن اليابانيين تعلموا علوم الأوروبيين كلها وضارعوهم، ولم يقصروا في شيء عنهم، ولبثوا يابانيين ولبثوا متمسكين بدينهم وأوضاعهم. وأيضا فمتى أرادت أمة مسلمة أدوات أو أسلحة حديثة ولم تجدها؟ إن ملاك الأمر هو الإرادة، فمتى وجدت الإرادة وجد الشيء المراد.

ومن المعلوم أن الإفراط في حب الدنيا يحرم الإنسان التمتع بها، وأن الغلو في المحافظة على الحياة تكون عاقبته زيادة التعرض للهلاك، هذه من سنن الله في خلقه، أو من النواميس الطبيعية كما يقال في هذا العصر.

فالقرآن يأمر المسلم بأن يحتقر الحياة والمال وكل عزيز في سبيل الله، ويأمر المسلم أن يثبت ولا ييأس، وأن يصبر ولا يتزلزل مهما أصيب. وتراه يقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ (آل عمران: ١٤٦).

• مقتطفات من كتاب «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم» - تحرير د. سوسن النجار نصر - الدار التقدمية - لبنان

هكذا يريد الله ليكون المسلمون، فإن لم يكونوا هكذا بصريح نص القرآن، فكيف يستنجزون الله عداته بالنصر والتمكين، والسعادة والتأمين؟!

ضياع الإسلام بين الجامدين والجاحدين

ومن أكبر عوامل انحطاط المسلمين: الجمود على القديم، فكما أن آفة الإسلام هي الفئة التي تريد أن تلغي كل شيء قديم، بدون نظر فيما هو ضار منه أو نافع، كذلك آفة الإسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد أن تغير شيئا، ولا ترضى بإدخال أقل تعديل على أصول التعليم؛ ظنا منهم بأن الاقتداء بالكفار كفر، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار.

العبرة للعرب وسائر المسلمين برقي اليابانيين

ولكني أخرج من أوربة إلى اليابان فقط، لأن رقي اليابان يضارع الترقي الأوروبي، وقد تم لليابانيين كما تم رقي أوربة للأوربيين، أي في ضمن دائرة قوميتهم ولسانهم وآدابهم وحريتهم ودينهم وشعائرهم ومشاعرهم وكل شيء لهم.

فأنقل إلى القراء العرب فقرة من رسالة طويلة جاءت من مراسل أوروبي سائح في اليابان وظهرت في جريدة «جورنال دو جنيف» بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٩٣١، فإنه يقول: إن الياباني يحب الفن قبل كل شيء، وإن رأيته ساعيا في كسب المال فلأجل أن يُلَذِّذَ بالمال أهواءه المنصرفة إلى الحسن والجمال.

وقد انتقش في صفحة نفسه الشعور القومي الشديد عدا الميل إلى الجمال، لأنه يفتخر بكون اليابان في مدة ستين سنة فقط صارت من طور أمة من القرون الوسطى إقطاعية الحكم، إلى أمة عظيمة من أعظم الأمم.

مدنية الإسلام

أما زعم من زعم أن الإسلام لم يتمكن من تأسيس مدنية خاصة، والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة- فهو خرافة يموه بها بعض أعداء الإسلام من الخارج، وبعض جاحديه من الداخل. أما القسم الأول فلأجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الأوروبية، وأما القسم الثاني فلأجل أن يزرعوا في العالم الإسلامي بذور الإلحاد.

ومدنية الإسلام قضية لا تقبل المماحكة، إذ ليس من أمة في أوربة، سواء الألمان أو الفرنسيس أو الإنكليز أو الطليان... إلخ، إلا وعندهم تآليف لا تحصى في «مدنية الإسلام»، فلو لم تكن للإسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه، مبنية على كتابه وسنته- ما كان علماء أوربة حتى الذين عرفوا منهم بالتحامل على الإسلام يكثرون من ذكر المدنية الإسلامية ومن سرد تواريخها، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدنيات، ومن تبيين الخصائص التي انفردت هي بها.

فالمدنية الإسلامية هي من المدنيات الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام، والتي تغص سجلاته الخالدة بآثارها الباهرة. وقد بلغت بغداد في دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال العمارة، واستبحار الحضارة، وتناهي الترف والثروة- ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها إلى هذا العصر، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان. وكانت البصرة في الدرجة الثانية عنها، وكان أهلها نحو نصف مليون.

وكانت دمشق والقاهرة وحلب وسمرقند وأصفهان وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الإسلام أمثلة تامة، وأقيسة بعيدة في استبحار العمران، وتطاول البنيان، ورفاهة السكان، وانتشار العلم والعرفان، وتأثل الفنون المتهدلة الأفنان.

وكانت القيروان وفاس وتلمسان ومراكش في المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول، أو يناظرها مناظر، أو أن يكاثرها مكاثر في ممالك أوربة حتى هذه القرون الأخيرة.

وكانت قرطبة مدينة فذة في أوربة لا يدانيها مدان، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف نسمة، وكان فيها نحو سبعمائة جامع عدا المسجد الأعظم الذي لما زرته في هذا الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قبل الحكومة الإسبانيولية: إنه يسع بحسب مساحته خمسين ألف مصل في الداخل و٣٠ ألف مصل في الصحن، فجملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفا من المصلين!

ولما ذهبنا إلى آثار قصر الزهراء رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد، وعلمنا أنها تمتد على مسافة تسعمائة متر طولا في ثمانمائة متر عرضا، والإسبانيون يقولون: مدينة الزهراء.

وقال لي المهندسون الموكلون بالحفر على آثارها: إنهم يرجون الإتيان على كشفها كلها من الآن إلى خمسين سنة.

وحسبك أن غرناطة التي كانت حاضرة مملكة صغيرة في آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن في أوربة في القرن الخامس عشر المسيحي بلدة تضاهيها ولا تدانيها، وكان فيها عندما سقطت في أيدي الإسبانيول- نصف مليون نسمة. ولم يكن وقتئذ عاصمة من عواصم أوروبة تحتوي نصف هذا العدد، وحمراء غرناطة لاتزال يتيمة الدهر إلى اليوم.

هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الإسلام وغرر أيامه، وإلا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الأجلاد الكثيرة، المرصوفة طبقا فوق طبق.

وكم حرر المؤرخون الأوروبيون تحت عنوان «مدنية الإسلام» كتبا قيمة ومجاميع صور تأخذ بالأبصار. وإن أشد مؤرخي الإفرنج تحاملا على الإسلام لا يتعدى أن يحاول التصغير من شأن مدنيته، وأن ينكر كونه أبا عذرتها. فقصارى هذه الفئة أن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علوما، وسبقوا إلى نظريات صارت خاصة بهم، وغايتهم أن يقولوا: إن المسلمين لم يزيدوا على أن نقلوا وأذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب.

وهذا القول مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوما ابتكروها، وحقائق كشفوها، وآراء سبقوا إليها، فضلا عما زادوا عليه وأكملوه، وما نشروه ونقلوه، ومن استرق شيئا وقد استرقَّه، فقد استحقه.

العلم أساس النهضة

هواري عبدالقادر- الجزائر
ماجستير إدارة الأعمال والتنمية المستدامة

العلم أنفس ما طُلب، وأغلى ما كُسب، فهو التاج الذي يميز العالم عن الجاهل، والأعمى عن البصير، وهو الذي دعت إليه كل الشرائع السماوية وجعلته مقدسا، وحامله مبجلا، فبه استطاعت أمم أن تقود العالم وتصل إلى مواقع لم تحلم بالوصول إليها..

وبالعلم تزيد صلة العبد بربه، وتقوى معرفته له، من خلال فقهه لأسرار كونه، وبه أيضا تصح الأبدان من الأسقام وتقوى، ويقضى على الأوبئة والأمراض، وتقل حالات الوفاة الناتجة عن الأمراض، كما أن للعلم دورا أساسيا في تنظيم حياة البشر وزيادة رفاهيتهم، فهو كنز لا يعرف قيمته إلا من حصل عليه، ولا يدرك أسراره إلا من حرص على النهل منه.

إن اختلاف العلوم وتعددها أدى إلى كثرة المعارف التي لا يمكن لعقل بشري واحد أن يستوعبها، كما كان الأمر لدى أسلافنا القدامى، فقد كان العالم رياضيا وفيزيائيا وفيلسوفا وأديبا وفقيها وشاعرا في الوقت نفسه، قد يرجع ذلك إلى أن العلوم في الماضي لم تكن بالتوسع التي هي عليه اليوم، حيث أصبح الاختصاص الدقيق هو السائد.. فقد يفني العالم عمره في فقه جزء بسيط من علم معين وقد لا يلم به، وهو الأمر الذي جعل العلوم أكثر تشعبا من ذي قبل، فقد ولى عصر العلماء الموسوعيين الذين يجمعون كل العلوم السائدة في ذلك العصر، ونادرا ما تجد في هذه الأيام عالما يجمع تخصصين علميين أو ثلاثة على الأكثر؛ لتوسع المعارف في كل مجال وتشعبها.

مفارقات

من المفارقات ألا نجد بين الأمم التي تقود العالم والرائدة في مجال العلم أمة «اقرأ»، الأمة التي كانت منارة العلم حينما كانت باقي الأمم في غياهب الجهل وظلماته، لا لشيء سوى لأنها لم تعط العلم وأهله حقهم، ولم تدرك أنه السبيل الوحيد للتقدم والوصول إلى التنمية المنشودة.

والله إن الجبين ليندى حين ندرس نظريات العلوم المختلفة وننسبها إلى علماء الغرب، بينما نجد أن جل أسس هذه النظريات وضعها علماء مسلمون، عرفوا حقيقة العلم وآمنوا بها، وسخروا جهدهم لخدمته.. فأصبحت مدنهم آنذاك حواضر علمية يأتيها طلبة العلم من كل حدب وصوب لينهلوا من معارفها، وما قرطبة إلا مثال ناطق على ذلك، لكن الخلف لم يصونوا الأمانة، ولم يحفظوا الوديعة التي تركها سلفهم، فشغلوا أنفسهم بسفاسف الأمور وتركوا العلم، وهو ما جعل غيرنا من الأمم تسيطر عليه، وتصل به إلى أعلى المراتب، بل وحاولوا الخروج من أقطار السموات والأرض لاكتشاف غياهب الكون؛ لأنهم عرفوا الحقيقة التي لم ندركها بعد.

نحن اليوم نملك جيوشا هائلة من

العلماء والباحثين في كل المجالات، ولا ننكر أن هناك من يتحكمون بمجال تخصصهم تحكما مميزا، لكن تطالعنا الصحف والتقارير يوميا بوصول فرق من الخبراء إلى نظريات جديدة.. وكذا اكتشاف مجموعة من الباحثين لحقيقة علمية ما، كل هذه التقارير والنظريات والحقائق تغيب عنها لمسة أمتنا، فلا نجد أثرا لاسم عالم مسلم إلا نادرا.

للأسف تعجز هذه الأعداد الهائلة من العلماء والباحثين عن مجاراة التطور العلمي الحاصل، ووضع بصمة الإسلام عليه.. لا ندري لماذا؟ هل هو نقص الإمكانات المادية والاعتمادات المالية؟ لا بالتأكيد؛ فالإمكانات المادية المتوفرة لدى أمتنا ربما لا تملكها أمم أخرى، فما هو السبب إذن؟! هل يرجع إلى تركيبة خاصة في عقولهم؟ لا، فكل عقول البشر سواء، بل عقولنا نحن أكبر وأوعى، كيف لا وهي التي تتشبع بتعاليم الإسلام، ونور القرآن الذي فيه شفاء للصدور.

التحكم في العلوم

بالتحليل الدقيق لأسباب تأخرنا في التحكم في العلوم نجد أن هناك أسبابا عدة أوصلتنا إلى ما نحن عليه.. لعل أهمها هشاشة القاعدة التعليمية لدينا، فنحن لا نبني أجيالا تقوى على حمل المشعل في المستقبل؛ لأننا لا نضع أرضية تعليمية صلبة في السنوات الأولى للأجيال الصاعدة، فجل منظوماتنا التربوية مستوردة أو مسطرة دون أهداف من قبل أشخاص ناقصي الخبرة، فلابد أن يكون التعليم الإعدادي والأساسي مدروسا، ومناهجه مضبوطة وفقا لمتطلبات نهضة الأمة، وذلك بتسطير أهداف معينة، على رأسها إخراج جيل من العلماء والقادة القادرين على التحكم في مجالات تخصصهم، دون اللجوء إلى خبرات أجنبية، وهو ما سيعيد لنا أمجادنا، ويجعلنا أمة تحترم العلم والعلماء.

السبب الآخر: هو عدم احترام البحث العلمي، ويتجلى ذلك من خلال الميزانيات الزهيدة الموجهة له، وكذا الرواتب المتدنية التي يتقاضاها الباحثون، مما جعل عدد الباحثين يقل بدل أن يزيد، على عكس ما يحدث في الدول المتقدمة، فعلى سبيل المثال عدد الباحثين في شركة سامسونج الكورية وحدها يساوي ضعف عدد الباحثين في كل الدول العربية مجتمعة، ولنا أن نتصور ذلك، فلابد من إصلاح الخلل بتسخير موارد مادية ومالية ترقى لجعله قطاعا مهما في الدولة، وتسطير برامج البحث بما يتوافق ومتطلبات الأمة، والرقابة على مشاريع البحث واستثمار النتائج المتوصل إليها، وعدم جعلها حبيسة الأدراج.

تبجيل العلماء

من جانب آخر لابد من إعادة الاعتبار للعلم بتكريم وتبجيل العلماء، فالملاحظ اليوم أن المكانة التي يحظى بها المغنون والفنانون والرياضيون لدينا أكبر بكثير من مكانة العلماء، فنجد الفرق بين عدد المغنين وعدد العلماء المعروفين لدى أفراد المجتمع فرقا شاسعا، فأصبح طموح الناشئة هو الشهرة والاقتداء بالمغنين والرياضيين وجعلهم قدوة لهم بدلا من العلماء، الذين لا يكادون يجدون ما يسدون بهم رمقهم في المجتمع، هذا للأسف هو واقعنا.. فكيف لنا بالحديث عن التنمية والتقدم ونحن لا نحمل من العلم إلا اسمه؟! فكما قال الشاعر:

ترجو النجاة ولا تسلك مسالكها
إن السفينة لا تمشي على اليبس

فالمراد لا ينال بالتمني، والهدف لا يبلغ إلا بالجد والعمل.

بالإضافة إلى ما سبق، لابد أن يدرك كل فرد في الأمة أنه مسؤول عن صناعة النهضة التي لا تتم إلا بالعلم، فإذا كان هذا الفرد من أصحاب العلم- سواء كان عالما أو متعلما- وجب عليه الإخلاص في عمله، والعمل على تحقيق ما يراه غيره مستحيلا؛ لأن علماء الغرب انطلقوا من قاعدة أن لا مستحيل مع العلم، ووصلوا إلى تحقيق الصعب..

فكلما كان الهدف بعيدا كانت النتائج المحققة أفضل، أما إذا كان الفرد من العامة فعليه احترام أهل العلم وتبجيلهم، وإعطاؤهم المكانة التي يستحقونها؛ حتى يتمكنوا من الإبداع والتميز، والوصول إلى الهدف الأسمى.. ألا وهو نهضة الأمة.

العلم والدين عند غير المسلمين

اعترف كالفين كوليدج رئيس الولايات المتحدة في إحدى خطبه بعجز القوانين الوضعية عن تقرير الفضيلة وحسن التعامل بين الناس، وقال: إن البشر مهما بلغوا من التقدم في الأنظمة لابد لهم في سعادتهم الدنيوية من الاعتماد على الدين.

قالت الكاتبة الفرنسية المعروفة مدام فالنتين دي سان بوان: إن الغرب يتقدم بسرعة هائلة، ولكن لا يمكن للنفس الدينية والنسمة المقدسة أن تسود العالم، وتلدا له العجائب: الفضيلة والنبوغ إلا إذا اتحد العلم والدين بعد أن فرقت بينهما القرون الوسطى.

فأنا أجاهر بأنه لا يمكنني أن أبقى أسيرة التقدم المادي أو أسيرة كتلة الماديين في الغرب؛ لأنني موقنة بأن العالم في حاجة إلى صرخات ترجعه إلى الرشد، وتنير أمامه السبيل الموصل إلى الحقائق الخالدة أكثر من حاجته إلى الأمور المادية الزائلة.

من مجلة الفتح.. العدد الأول صـ٢ و٣.

كيف نهيئ أطفالنا للتفكير العلمي؟

الطيب أديب
عضو اتحاد كتاب مصر

يعتبر أدب الأطفال وسيطا تربويا، يتيح الفرصة أمام الأطفال لمعرفة الإجابات عن أسئلتهم واستفساراتهم، ومحاولات الاستكشاف، واستخدام الخيال، وحب الاستطلاع، وإيجاد الدافع للإنجاز والتحرر من الأساليب المعتادة للتفكير، من أجل مزيد من المعرفة لنفسه وبيئته، مما ينمي سمات الإبداع لدى الطفل.

«إن حياة البشر تزداد تعقدا يوما بعد يوم، ونجاح الفرد في عصر المعلومات رهن بقدرته على مواجهة تعقد الحياة من حوله، سواء كانت على المستوى الفردي أو الأسري أو الاجتماعي.. لقد كان المتعلم في الماضي يكفيه عدد محدود من طرق التفكير، كالتعليل والتسلسل المنطقي والتحليل المتعاقب ذي الطابع الهرمي، بدءا من الكليات وانتهاء بالعناصر الأولية.. وأمام الكم العديد من الظواهر المعقدة، لم يعد هذا التردد القليل من أساليب التفكير كافيا، ويجب أن يزود المتعلم بعُدة معرفية جديدة»(١).

وهناك قائمة طويلة بأنواع التفكير في الخطاب المعلوماتي التربوي الحديث، منها على سبيل المثال لا الحصر: التفكير الابتكاري- التفكير المفهومي- التفكير النقدي- التفكير العلمي- التفكير الاستشراقي- التفكير المتوازي- التفكير الجمعي- التفكير العولمي وأنواع أخرى..

أطفالنا والتفكير العلمي

«أما التفكير العلمي المطلوب إشاعته بين الأطفال فهو طبع الأطفال على الحكم على المسائل والمشكلات بوعي شامل استنادا إلى ضوابط معينة، وليس هناك ما يجعل هذه الضوابط حكرا على العلماء دون غيرهم، أو الراشدين دون الأطفال- إذا ما استثنينا بعض الفوارق في الدرجة- خصوصا أن التفكير العلمي هو نشاط ذهني يراد له أن يظل قائما، ليس في النظر إلى الظواهر المختلفة التي أصبحت موضع اهتمام العلوم، بل يتعداه إلى مختلف مسائل الحياة اليومية»(٢).

«وترافق توجيه الطفل نحو التفكير العلمي ظواهر عدة، أبرزها غرس اتجاهات لقبول نتائج الفكر العلمي، واتجاهات البحث عن الأسباب الحقيقية للظواهر، وتنمية حب الاستطلاع في جوانب الحياة ذات القيمة المرغوب فيها، وبناء الآراء استنادا إلى أدلة كافية»(٣).

«وعند تناولنا لموضوع التفكير العلمي عند الأطفال يجب علينا ألا نغفل دور البيئة الثقافية التي ينشأ فيها الأطفال، إذ تؤثر البيئة الثقافية التي ينشأ فيها الأطفال تأثيرا كبيرا في أساليب وأهداف ومستويات التفكير لديهم، حيث إن هذه البيئة تزود الأطفال بالخبرات التي تعد المعين الأول للتفكير، وتشكل أنواع الحوافز والمواقف المثيرة لتفكيرهم، يضاف إلى ذلك أن حاجات الأطفال تؤثر هي الأخرى في تفكيرهم، وعلى هذا ففي الوقت الذي يعتبر التفكير نشاطا ذهنيا إلا أنه يتحدد بالثقافة إلى حد كبير، حيث تبسط الثقافة ظلها عليه، وعليه فإن الثقافة التي تسود فيها القيم السلطوية تشيع تفكيرا سلطويا، والثقافة التي تشيع فيها القيم اللفظية تشيع تفكيرا لفظيا، والثقافة التي تشيع فيها الخرافات تنشر تفكيرا خرافيا، بينما تشيع الثقافة التي تغلب فيها القيم العلمية تفكيرا علميا»(٤).

كيف نساعد الأطفال على التفكير العلمي؟

عند تعاملنا مع الأطفال، على المؤسسات الثقافية والتعليمية وكُتاب أدب الطفل مراعاة الآتي:

- تشكيل طرق التفكير لدى الأطفال، لأن التفكير أنسب الطرق لاكتساب عناصر الثقافة، ويقودهم إلى الفهم، ويحفز الأطفال لاكتساب حقائق جديدة، ويهيئهم أيضا لمواجهة مواقف الحياة المختلفة والوصول للحلول.
- تجنب حشر ذهن الأطفال بالمعلومات، لأن المعلومات عرضة للتغيير.
- أن نجنب الأطفال الانفعالات الحادة، حتى لا نعيق عملية التفكير، وأن نترك لهم مساحة كبيرة من الحرية للتعبير عن أفكارهم.
- تجنب تقديم الحلول الجاهزة لهم بصورة مباشرة لنتجنب المزيد من أسئلتهم الكثيرة.
- أن ننمي فيهم القدرة على النقد وعدم التسرع في إطلاق الأحكام، وأن نحرص على تشجيعهم على المناقشة في جو من الحرية والحوار الهادف.
- ضرورة تنمية الثروة اللغوية للأطفال لما للغة من أهمية في التعبير عن الأفكار.
- ألا نترك أطفالنا عرضة لتلقف المعلومات الجاهزة القادمة عبر الإنترنت والوسائط الإلكترونية المختلفة.
- ضرورة العمل على إنتاج أفلام كارتون ومسلسلات ومسرحيات وطنية، والتوسع في إنتاج مجلات متخصصة للطفل العربي، تنمي فيه الحس الجمالي، وتحببه في العلم، وتغرس فيه روح الابتكار التي يفتقدها الطفل العربي.

الهوامش:

١- د.نبيل علي، الطفل العربي وتكنولوجيا المعلومات، دراسة منشورة في كتاب ثقافة الطفل العربي، كتاب العربي، الكويت ٢٠٠٢م، ص٢٢٢.

٢- د.نعمان الهيتي، ثقافة الأطفال، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، مارس ١٩٨٨م، ص ٩٤.

٣- د.نعمان الهيتي، المرجع السابق، ص ٩٥.

٤- د.نعمان الهيتي، المرجع السابق، ص ٩٥.

التعليم الذي نشده

د. محمد سعيد باه
أستاذ جامعي – السنغال

فليكن بسؤال جوهري يتضمن جوابه بالمنطق البسيط والقوي الذي استنطقنا به كتابنا سوقا نحو مرابع المعرفة، وذلك يوم كانت الأمم تتدثر بغيوم الجهالة، وتفاخر بالغباوة فقيل لنا:

﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ (الزمر:٩).

ومن مسببات النكبة المعرفية التي ترتبت عليها أزمة حضارية مركبة أننا قدمنا، حين تعثرت أقدامنا في مسيرتنا للعروج نحو آفاق الكمال البشري والرقي العمراني، من «لا يعلمون»، وقد يكونون ممن طمست أعينهم حسا ومعنى، وبالتالي فبدلا من التذكر نسينا كل شيء تقريبا، وهنا بدأ خط الانحراف، وخرجنا من دائرة أولي الألباب الذين يعلمون ويعلِّمون، يهتدون بالذي تعلموه ثم يقودون المواكب.

وقبل بزوغ واستفحال هذا الانحراف في ميادين التربية والتعليم، كان المربون المسلمون أمثال الزرنوجي والقابسي والغزالي، قد تركوا لنا ثروة هائلة في مجال التربية والتعليم، تعكس القدرة الخلاقة التي انبثقت عن المنهج الإسلامي الذي وضع من أجل النهوض مجددا بالعقل الإسلامي وتمكينه من الانطلاق في ميادين المعرفة المتصلة بالواقع الحي، مع وضع الإنسان في قلب حركة الحياة الفاعلة.

كان هذا الوهج في ميادين التربية والتعليم قويا يوم كان التمسك بالمنهج الرباني قويا لدينا بما فيه الكفاية، فانجذب الناس من الأمم الأخرى قاصدين الحواضر الإسلامية التي كان التعليم المؤصل والمتعدد الميادين أبرز لافتاتها، بقي الأمر كذلك إلى أن تراخت قبضتنا، فأخذ التيار التعليمي يتجه نحو الجزر حتى دخل المسلمون منزل المحاق الفكري.

ندير هذه المقالة حول مسلمات ثلاث:

نهضت الأمة الإسلامية بعقيدة صافية محركة؛ بعيدا عن الترهات التي تسطح العقل وتشل التفكير (أنهضت أمما من الرمم)(١). وتتكئ على منظومة تعليمية تربوية من الطراز الخاص.

تعيش الأمة اليوم كبوة حضارية عنوانها العام جهالة مطبقة: تجهل ظاهر الحياة وتقدم الحياة الآخرة بصورة مشوشة تجعل الناس تستنكف أن تسير في طريق الله.

المعركة بيننا وبين الآخرين، ممن يخاصمنا أو يناصبنا العداوة، قد اشتد أوارها منذ حقب، فظللنا نخسر جولة بعد أخرى بفعل ضحالة ما لدينا من معارف عن الكون وعن الإنسان، فنبت ضرباتنا لأن أسلحتنا صدئة.. ولتدارك الحالة نحتاج إلى صياغات جديدة للعقلية الإسلامية، وهي المهمة التي تجعل التعليم مجددا في قلب المشروع.

المنة العظمى

حاولت تقصي مضامين رسالات الأنبياء والرسل، وما حملوه لأقوامهم من تعاليم وإرشادات لإصلاحهم وإسعادهم، من خلال تصفح نصوصهم أو ما نسب إليهم من تلك النصوص، ولم أر ما يماثل ما حمله خاتمهم –لا غرو إذ هو إمامهم– في استيعاب ونفع مع خاصية الاستمرارية بل وقابلية التجدد:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران:١٦٤).

لو نظرنا بعمق في المنهجية الكامنة في هذه الآية لقدمنا للعالم المتعطش لونا من التعليم قادرا على أن يعيد لأقدامه المترنحة توازنها، وذلك حين نعيد اللحمة بين التعليم وواقع الأمة، بحيث يصبح التعليم الرافد الأساس لصقل النفوس ولتشكيل العقول؛ ما يجعلها بمنأى عن الخضوع للمؤثرات الخارجية التي تأتي حاملة من السموم ما تشوهها وتغير من طبيعتها.

تعليمنا المأزوم وإشكالية الاقتباس:

بعد فترة العطاء الثر، يوم كانت الشعوب والأمم تنافس حظوة التعلم على أيدي علمائنا، والتوقف عن الإنتاج المعرفي وتقاصر طرائقنا والتباس أساليبنا في ميادين التعلم والتعليم، وجدنا أنفسنا في العراء ونحن مذمومون، لا سقفا يظلنا ولا أرضا تقلنا، وكان البديل هو أمر الخيارات «الامتراء»، أو فلنقل هو الاستجداء المزري، وحتى لما قررنا التعلم عند الآخرين لم يكن الخيار متضحا أمامنا، فذهب أبناؤنا وهم في أشد حالات الانكشاف والحيرة لأننا لم نستطع أن نجيب لهم على السؤال المعضلة:

«إذا قلنا لأبنائنا أن يذهبوا (إلى الغرب) ليتعلموا فسيذهبون ويتعلمون، ولكن هل الذي سيتعلمونه يساوي ما سينسونه؟»(٢).

قصة تاريخية طريفة وذات دلالة

نجلي أبعاد الأزمة في ميادين التعليم برواية قصة تاريخية طريفة، ولكنها ذات دلالة خطيرة، وهي قصة العالم الموسوعي المسلم والمخترع/ عباس بن فرناس (١٩٤ – ٢٧١ هـ/ ٨١٠ – ٨٨٧م)، الذي يعتبر بحق أول إنسان حاول الطيران، طبقا لما هو محفوظ من التاريخ البشري، وذلك انطلاقا من قواعد علمية وحسابات رياضية دقيقة، ثم قام بتجربة ناجحة حين طار لمسافة بعيدة، قبل أن يسقط مصابا، ولم يخطئ إلا في نقطة واحدة فقط، ألا وهي أن عملية الهبوط –بخلاف عملية الطيران– تتم عن طريق الذيل.

وبهذه المحاولة التي جرت في وقت مبكر جدا من التاريخ الإسلامي، سجل العقل الإسلامي، المنطلق من قراءة صحيحة لنصوص الوحي، بخلاف ما كان سائدا في العالم في حينه، سبقا علميا خطيرا، وذلك حين فتح باب عالم الطيران، الذي سيكون أبرز حدث في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وذلك قبل خطوة الأخوين «رايت» التي ستتم عام ١٩٠٣(٣).

والعبرة هنا أن المنظومة التعليمية المنسجمة التي أنتجت هذه العقلية الجبارة (كان الرجل عالما موسوعيا ومتضلعا في المعارف ذات الصبغة التدينية)، كانت قد أخذت في التآكل، وهو ما جعل الجدل عندنا يدور حول ما إذا كان الرجل منتحرا أم لا؟! بينما ذهب الأوروبيون الذين تابعوا الحدث بعناية يبحثون عن مكمن فشل المحاولة، ولذلك صنعوا الطائرة وطيروها؛ أما نحن أصحاب الفكرة فقد اكتفينا بشراء تلك الطائرة وركوبها.

معركة المناهج

بعد تلك الكبوة تنادى المصلحون في ديار الأمة إلى تدارك الوضع الذي كان مائلا، فوضع مطلب التجديد في التربية والتعليم على رأس سلم الأولويات، فبدأ النموذج الإسلامي يشق طريقه بنجاح ملحوظ في كل الاتجاهات شرقا وغربا، وحين بدأت مخرجاتنا تتحرك وهي تحمل بصمات الوحي بوضوح ضاق بهم خصوم الأمة ذرعا؛ فشنت حملة شعواء تحت عنوان

قال الإمام الشافعي: العلم علمان، علم الطب للأبدان وعلم الفقه للأديان

مفتاح السعادة طاش، كبرى زاده، ١/٢٦٧.

ويروى عن الإمام علي بن أبي طالب: العلوم خمسة:
الفقه للأديان
والطب للأبدان
والهندسة للبنيان
والنحو للسان
والنجوم للزمان

مفتاح السعادة، طاش كبرى زادة، ١/٢٦٧.

منكر «تغيير المناهج» لأن مناهجنا تفرخ الإرهاب والمتزمتين، واشتد الضغط إلى أن قيل لنا: احذفوا هذه الباقة من الآيات واشطبوا تلك المجموعة من الأحاديث.

تعليمنا بين الشحن والتسطيح:

تتهم مناهجنا بأنها تقوم على الحفظ على حساب الفهم(٤)، وهي تهمة يجب أن نناقشها بقدر من الهدوء بعيدا عن العاطفية الممزوجة بالتسطيح، في فترة الركود الذي ران على العالم الإسلامي نتيجة خفوت جذوة التعليم القادر على الاستجابة لمتطلبات الواقع ومواكبة حركة المجتمع، تم اللجوء إلى طريقة الشحن الذهني بدلا من اتباع نهج القراءات المعمقة القائم على استنطاق النصوص وإحكام ربطها بالسنن الكونية؛ فكانت تلك الثغرة انعكاسا لواقع منحرف، وليس من نتاج المنهجية المعرفية الصارمة المعتمدة على الفهم، وليس على التلقين، بدليل أن القرآن لم يحثنا ولو مرة واحدة على حفظه مقابل حشد من الآيات ترسخ الفهم والقدرة على الاستكناه باعتباره ركيزة لعملية التعلم والتعليم.

من خصائص التعليم النوعي:

في المرحلة التغييرية التي نعيشها لا خيار لنا سوى ابتكار منظومة للتعليم مجدّدة، شريطة أن تكون أولى مواصفاتها «النوعية»، وهي الخاصية الجامعة التي تتشكل من مقومات أهمها:

المرتكز الروحي: هذه هي الخاصية المحورية لمنظومتنا التعليمية، ولما انتزعت منها أضحت قوالب مزركشة لا تبني فكرا ولا تشحن روحا، ولا تصقل عقلا، ورغم ضمورها فإن ثمة جهودا متواصلة لانتزاع البقية الباقية.

البعد اللغوي: لم يشهد التاريخ البشري حتى الآن نهوض أمة نهوضا حقيقيا بتعليم أبنائها من خلال لغات الأمم الأخرى، كما هو الحال في بلداننا اليوم، وفضلا عما في هذه الطريقة من إرهاق لعقول أبنائنا والمعاناة من حالة الانفصام، وما ينجم عن ذلك من الشعور الانهزامي، فإنها تكرس حالة التبعية الحضارية الحادة التي تعيشها الأمم الإسلامية.

القدرة على الاستجابة: أدق وصف لحالتنا التعليمية هو أننا انطلقنا مبكرا وبقوة هائلة، ثم توقفنا فنمنا حين خطا الآخرون في ارتياد لآفاق الكون البعيدة عنا..

وفي تطلع إلى نهضة جديدة تمكننا هذه الخاصية من الابتكار والاقتباس والتوليد، بمعنى اشتمالها على كل مقومات النمو والمواكبة لاحتياجاتنا، لكن ذلك لا يغني عن تعميق التفكير واستحداث الأنماط وتوليد الطرائق، بما يساير الوضع.

الانطلاق من الذاتية: إن طبيعة الإنسان الجديد الذي نريد إعداده وفق المقاسات الربانية ما يجعله إنسانا صالحا(٥) تقتضي أن تكون الذاتية، بمعنى الخصائص الكبرى التي بها تتحقق الشخصية المسلمة الحقة، إحدى مقومات كسب المعرفة وتوظيفها بما يستجيب لاحتياجاتنا المتجددة.

التخصيب المنضبط: من نعم الله علينا أن ديننا لم يحجر علينا كل واسع، بل يناشدنا بالسياحة في الأرض وعيوننا مفتوحة لا تقع على زهرة جميلة أو ثمرة يانعة إلا واستشقنا أو قطفنا ثم زرعنا بدورنا، لكن الأخذ من الآخرين بلا ضوابط مرشدة غير مقيدة كلفنا الكثير، وفي هذا المنعطف يجب أن نؤسس لمنظوماتنا التعلمية التعليمية بحيث نخصبها بما ثبت نفعه وانتفى ضرره، أو قل بما يرجح الخيار.

الاستثمار: كان التعليم، حين ازدهر في العالم الإسلامي، وخرج العالم الموسوعي النموذج، يقتات من مصدرين أساسيين هما الدولة الممكنة، يساندها الوقف بكل روافده، ثم تقلبت بنا الأحوال فأصبح التعليم اليوم أكبر أبواب الاستثمار، وهذا مطلب ما لم يستوعبه أصحاب القرار عندنا فسيبقى تعليمنا في ذيل الركب يركض ولا يدرك.

التعليم المنشود:

بعد هذه النظرات حول مسار وواقع التعليم في شتى أرجاء العالم الإسلامي، آن لنا أن نحاول لملمة أطراف الإشكالية لرسم ملامح التعليم الذي نرى أنه القادر على انتشال الأمة من رقدتها الحضارية التي أخذت تطول، وكذلك الآفاق التي يمكن التطلع إليها في المرحلة القادمة على ضوء ما يتاح لنا من فرص للإصلاح وإمكانات لتوظيف تلك الفرص.

أولا، نلاحظ أن أزمة التعلم والتعليم ليست عقبة أمامنا وحدنا، بل حتى الأمم المتقدمة ماديا وعمرانيا تعاني اليوم، وإن تباينت طبيعة وتجليات الأزمة، وهنا تتمثل فرصة الأمة في أنها تمتلك منظومة قيمية عالية الجودة لإعادة رسم علاقة المعرفة، بما في ذلك طرق كسب المعرفة (التعلم والتعليم)، بطرق ومجالات توظيفها، وهذا المطلب جوهري اليوم ونحن نسعى إلى إعادة بناء رؤانا الكلية في مجال التربية والتعليم.

ثانيا، إن طور قدرة جهة ما، سواء أكانت دولا أو أنظمة أو مناطق، على احتكار المعرفة والتحكم في طرائق التعليم النوعي على وشك أن يكون قد ولى، وهذه فرصة ذهبية لينهض عقلاء الأمة من أهل الاختصاص بإعادة بناء الأنظمة والطرائق والمرتكزات المحورية التي يجب أن تجري عمليات التعلم والتعليم في إطار صياغاتها.

هوامش:

١- قال شوقي، مخاطبا معلم البشرية:
أخوك عيسى دعا ميتا فقام له
وأنت أحييت أجيالا من الرمم.

٢- المغامرة الغامضة، شيخ حامد كان، ترجمة سعيد باه، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠١٣م.

٣- مقتبس من محاضرة لي ألقيت في رمضان ١٤٣٤هـ، بعنوان: «مساهمة العلماء المسلمين (القدماء والمعاصرين) في ازدهار الآداب والعلوم!».

٤- وربما في هذا السياق تتضح دلالة قصة الطالب الذي استظهر صحيح البخاري فطلب الإجازة ولما فشل في اختبار استكناه المعاني قال له الشيخ الحصيف: أنت نسخة إضافية، فبدلا من أن أجيزك يمكنني أن أدبس الإجازة على نسخة مطبوعة من الصحيح في مكتبتي.

٥- حين نقارن بين نمطينا، نحن والغرب، في مجال التربية والتعليم نلحظ من الفروق الجوهرية أننا ننشد إعداد إنسان صالح بينما يكتفون بإعداد المواطن الصالح، والبون بينهما كبير.

فضل كفالة العالم المعلم والطالب المتفرغ

د. محمد الأمسمي
أستاذ مساعد لمواد الفرق والأديان بجامعة طيبة

إن أقدر الكاسبين على كسب الحلال هم طلبة العلم، لما عندهم من مهارات وسلوكات حسنة وتدبير للأمور، والمثل الأول على ذلك التجارات الرابحة للنبي ﷺ قبل البعثة، ومن تاجر من صحابته الكرام، وكذلك من مارس منهم أي عمل آخر، ولايزال التاريخ الإسلامي يشهد بذلك، ونقدم بين يدي مباحث ذلك هذه التنبيهات:

أ- لما كان الله تعالى طلب منهم- أي من طلبة العلم- أداء أعمال جليلة، تتطلب الترفع عن الأنانية الضيقة وحب المصلحة النفعية المحدودة، فقد اقتضى ذلك منهم التجرد لهذه الأعمال لعموم نفعها، وشدة حاجة الأمم والأجيال المتتالية لاستمراريتها، فكان أن زهدهم في الدنيا، وأذاقهم حلاوة الإيمان، ووجههم إلى حذف العلائق أو التخفف منها ما أمكن، والاكتفاء من متاع الدنيا بالضروري الذي لابد منه.

ب- ثم إن أعمالهم التعليمية والعلمية والتربوية توجب خلو القلب من الشواغل وهموم الدنيا والجري وراءها بالكسب والجمع والحفظ، وما يتبع ذلك مما يشوب الخاطر ويأخذ الوقت الذي هو رأس مال كل إنسان له هدف في الحياة يسعى لتحقيقه في عمره القصير.

ج- ولعلمهم أن أسباب الرزق كثيرة، وأن الكدح في الدنيا ليس إلا بابا واحدا ضيقا، فتوجهوا لطاعة الرازق مباشرة والعمل لصالح الخلق الذين هم عيال الله، وخيرهم أنفعهم لعياله - سبحانه وتعالى وهل يا ترى يضيع الله من وجهه لطاعته ونفع عموم خلقه؟

فضل كفالة معلم الناس الخير

والداعي له وطالبه:

كان النبي ﷺ يعمل قبل البعثة في رعي الغنم، ثم في التجارة بعد ذلك، وكان من أبرك المتاجرين وأربحهم تجارة وأكثرهم وفاءً وأمانة، وتلك أهم شروط التاجر الناجح الرابح، ولما أثنت عليه أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها بأصول مكارم الأخلاق التي عرفتها فيه قالت: «كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»(١).

فهذه أمور تتطلب مالا، وإن من أعظم أوجه الإنفاق في الخير وأهمها وأعمها نفعا.. الإعانة على نوائب الحق، وأي حق أجل من كفالة معلم الناس الخير ومتعلميه، ويكفي فاعل ذلك شرف التأسي بالنبي ﷺ، في مثل هذه الأصول الأخلاقية العالية، وأما ثوابها عند الله تعالى فحدث عنه ولا حرج.

إن كل وافد على النبي ﷺ بعد الهجرة يعتبر طالب علم، وإن كفالته من أفضل الأعمال وأجلها أثرا في الدنيا وذخرا في الآخرة، وكان من تأسى به في رعاية هؤلاء الوافدين يستحق- إن شاء الله- من الفضل ما لا يحده إلا الله تعالى- وجدير بنا أن ننظر إلى قوم كانوا يُعرفون في صدر الإسلام بأهل الصُّفة، وهم أضياف الإسلام وفقراء الطلبة الوافدين الذين لا أهل لهم في المدينة النبوية ولا مال(٢).

وكانوا- كما قال أبوهريرة رضي الله عنه وكان واحدا منهم- يصحبون النبي ﷺ على ملء بطونهم فترات تطول أو تقصر حتى كان يتجمع في المسجد منهم مائة أو أكثر أو أقل، فكان النبي ﷺ يرى أن أهل المدينة مسؤولون على وجه العموم عن كفالتهم، لذلك كان يطلب لهم من بيوته الطعام والشراب، ويطلب لهم من أصحابه، ولا يتركهم يتكففون الناس، بل يدل الناس بنفسه، وبقوله، بعد أن كان لهم قدوة بعمله فيقول: من يعشي هذا.. من يأخذ معه واحدا.. من يضيف إليه اثنين، فإن طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة... وهكذا، إلى أن قال: ومن كان عنده طعام أربعة ليذهب بخامس أو سادس. أو كما قال ﷺ، وإن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة(٣) كما في حديث عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما.

فهل يا ترى تحمل النبي ﷺ إعالة هؤلاء وكفالتهم لأنهم فقراء فقط؟ أم لأنهم غرباء طلبة علم شرعي وأخذ منهج إسلامي، والخروج بعد ذلك للدعوة إليه وتبليغه وتعليمه والجهاد في سبيل الله بخوض المعارك من أجله؟

وإذا نظرنا إلى اقتراح محمد بن مسلمة رضي الله عنه على النبي ﷺ عندما رأى تكاثر هؤلاء الطلبة (من أهل الصفة) في المسجد، وأشفق من تحمل النبي ﷺ لشؤونهم، فقال (والدال على الخير كفاعله): «ألا تفرق هذه الأضياف في دور الأنصار، ونجعل لك من كل حائط قنوا، ليكون لمن يأتيك من هؤلاء الأقوام؟ فقال رسول الله ﷺ: بلى، فلما جدّ له مال جاء بقنو، فجعله في المسجد بين ساريتين، فجعل الناس يفعلون ذلك، وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقوم عليه»(٤).

فمجتمع يفد الطلاب فيه إلى معلم أو معلمين متعددين، أو إلى مدارس ومراكز تشع عليهم بنور القرآن والسنة المطهرة والفقه والآداب، وهو مجتمع مسلم، لا يتردد في كسب هذه الفضائل بكفالة هؤلاء الطلبة وحسن رعايتهم، والأمر يتوجه إلى أهل الثراء والسعة في المال والرزق أولا، ثم إلى المجتمع عامة.

وعندما أوصى النبي ﷺ بالوافدين من طلبة العلم، هل كان يقصد بذلك أن العلماء يرحبون بهم فقط وينشرون لهم ما عندهم من العلم ويتركهم المجتمع بعد ذلك وهم غرباء في ضيعة وبدون كفالة ورعاية؟

إن الحديث في ذلك أشمل بكثير مما يتوقعه أو يتصوره بعض الناس الذين استحوذ عليهم الشح بمالهم على أن يكسبوا به الحسنات

أو يرفعوا به أنفسهم بالمآثر في المجتمعات.

قال ﷺ كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال: «يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون، فإذا جاءوكم فاستوصوا بهم خيرا»، قال الراوي: وكان أبوسعيد إذا رآنا قال: مرحبا بوصية رسول الله ﷺ. وفي لفظ، قال الراوي- وهو أبو هارون العبدي: كنا نأتي أبا سعيد فيقول مرحبا بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن الناس لكم تبع، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا»(٥).

وإذا كان العالم والمتعلم في الأجر شريكين، وتضع الملائكة أجنحتها لهما رضا لما يصنعان، ويستغفر لهما كل شيء، حتى الحيتان في البحر لعموم نفعهما وتعريفهما للناس الحقوق والأحكام والحلال والحرام بعد معرفة الله تعالى ورسله وأنبيائه وملائكته وتعليم الناس ذلك، فإن كفالة متعلم هذا الخير ومعلمه والداعي له لا تقل- إن شاء الله تعالى- عن الشراكة لهما في هذا الخير، وقد يزيد عليهما بأنه إذا لم يجدا من يكفلهما قد ينقطعان عن هذا الخير وينصرفان عنه، فيعم الجهل والشر، ويغلب الخبث في الأرض، فيحل على الخلق سخط الله وغضبه بسبب ذلك(٦).

وإذا كان طالب العلم عندما يسلك طريقه يسهل الله له به طريقا إلى الجنة، فلا نتردد- إن شاء الله عند صلاح النية- أن نقول بأن الكافل له حتى يتفرغ لمهمته ويتقنها ويكون نافعا للمسلمين ويتعدى نفعه- أن ذلك في ميزان حسناته، وأن الله تعالى بفضله وكرمه قد سلك به مسلك الجنة الموصلة إليها بإذن الله(٧).

وإذا كان الدال على الخير كفاعله فإن المعاون له على ذلك يدخل معه في الأجر إن شاء الله تعالى(٨) لعموم لفظ الخير، وتنوع الدلالة عليه لتشمل كل ما يتطلبه حصوله وتعديه إلى الغير، وكذا ظهور الحاجة إليه.

إذن علينا التأسي بالنبي ﷺ في ذلك، والاقتداء بالصحابة الكرام ومن اقتفى أثرهم من أهل الخير والمال والسلطان الصالح.. وعلينا كسب قلوب أبرك فئات المجتمع، ونيل بركة دعائهم وثنائهم الحسن الذي يورث البركة في المال والأهل وبقاء الذكر الحسن على مر الدهور، كما هو معلوم ومشهور، وصيانة هذه الفئة الصالحة- من تغير حالها- والحفاظ على الأحوال الحسنة من مقاصد الشريعة التي تأمر بالعطاء، وذلك أن حال العلماء وطلبة العلم هو التعفف والصيانة والبعد عن الحرف الدنيئة والمطامع المريبة، فمن أعانهم على ذلك بكفايتهم وكفالتهم حقق لهم وللأمة مطلبا عظيما هو التفرغ لمهامهم العامة وحمايتهم من الانصراف عن أعمالهم الجليلة أو تدنيسها تحت قهر الحاجيات الضرورية، وقد قيل لأحد العلماء وقد احتاج إلى بيع الزيت، والطلاب يتزاحمون حوله: إنه لا يليق بك هذا، فقال: «من جاع ببطن غير بطنه باع الزيت» يعني بذلك العيال والنفقات الواجبة للزوجات والأطفال والطلبة المغتربين الذين لا راعي لهم بعد الله إلا هو.

وإذا قدرنا أنه لا يوجد من بين الأغنياء في الأمة من يراعي مثل هذه الأمور، وإنما يعطي زكاة للفقراء فقط، كان العلماء والدعاة وطلبة العلم في مقدمة من ينبغي تقديمهم في زكاة المال الواجبة، فلتعففهم وصلاحهم يقدمون في الحصول على حقوقهم من الزكاة الواجبة (٩).

وبهذا نكون عالجنا هذه المسألة الجديرة بمزيد من البحث بما يؤصل فضلها ويسلط الضوء على اهتمام الكتاب والسنة وعمل سلف الأمة على تحمل المسؤولية نحو معلمي الناس الخير والدعاة إلى الله تعالى والسائرين على طريق العلم الشرعي المتفرغين له.

وختاما فإن العلماء دائما يُنشدون مع العلامة حماد بن الأمين الشنقيطي، متمنيا على الله تعالى:

يا لهف نفسي على شيئين لو جمعا
عندي لكنت- إذن- من أسعد البشر
كفاف عيش يقيني ذل مسألة
وخدمة العلم حتى ينتهي عمري
وثالث أتمنى لو ظفرت به
كون السعادة لي في سابق القدر

الهوامش:

١- صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب الحديث الثالث، فتح الباري، ط٢، الريان، ١٤٠٧هـ ١/ ٣٠.

٢- المسند، للإمام أحمد، المكتب الإسلامي، ١/ ٦٣٧- ٦٣٩.

٣- انظر الحديث وشرحه في المصدر السابق ٦٧٩/٦ وما بعدها، وراوي الحديث عبدالرحمن ابن أبي بكر رضي الله عنه.

٤- انظر أخبار مدينة الرسول ﷺ، لابن البحار ٨٨. أو غيره من كتب السير.

٥- راجع «رجحان الكفة في أخبار أهل الصفة» حيث إن كثيرا من العلماء رأوا أن شأن أهل الصفة هذا هو الأساس لتجمع الطلبة والمتربين والمتعدين عند شيخ في مدرسة أو رباط، وهو الأصل في توجه الأغنياء والأمراء والخلفاء والسلاطين لتوقيف الأوقاف وإنشاء المدارس الخيرية وجماعات رعاية العلم وأهله.

٦- جامع الأصول في أحاديث الرسول، تأليف مجد الدين ابن الأثير الجزري، دار الفكر، ط٢، ١٤٠٣هـ، ٨/ ١٣.

٧- جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر، ١٥٥/١ وما بعدها، وشرح السنة للبغوي، ١٤/ ٢٢٩.

٨- السابق ١٦٨/١، ١٦٩، وانظر ما بعدها إلى ١٧٤، وانظر: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ٢٢٣ وما بعدها.

٩- انظر: (تاريخ الدعوة الإسلامية في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين) ، بلاغ الدعوة، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤٤١هـ، ص١٥٥ وما بعدها، ومجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت العدد١٣، ١٤٠٩هـ، ص١٨٨- ١٨٩.

علم الكيمياء وتطبيقاته في الحضارة العربية والإسلامية

د. رفعت حسن هلال
أستاذ قسم الكيمياء بكلية العلوم- جامعة القاهرة

● مقتطفات من كتاب إسهامات الحضارة العربية والإسلامية(٣)
مركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي - مكتبة الأسكندرية مصر

«علم الكيمياء علم عربي الأساس والمنهج». من أجل تبرير هذه المقولة يلزمنا أن نقدم الخلفية التاريخية للكيمياء كمجموعة من المعارف المتوارثة التي تلقاها العلماء المسلمون؛ فوضعوا نظرية كيميائية ناضجة، ومنهجا علميا قويما. ولقد تعمقوا في فهم هذا العلم الجديد فتمخض ذلك عن بلورة فلسفة رائعة تعكس حكمتهم المستخلصة من قدر هائل من التجارب والمشاهدات لقد طوروا المختبر الكيميائي وصنعوا له أدواته الخاصة. ومما لاشك فيه أن ذلك المختبر الذي طوروه هو نفسه الذي نعرفه اليوم، العمليات داخل المختبرات، ولكنهم اجتهدوا أيضا في التطبيق: فقامت صناعات كيميائية غيّرت وجه الحياة، وتقدمت بالإنسانية خطوات عملاقة إلى الأمام.

وعلم الكيمياء -كما نعرفه اليوم- نشأ وتطور على أيدي العلماء المسلمين بداية من القرن الثامن الميلادي، ورغم حركة الترجمة الهائلة التي بدأها المسلمون لكل ما وصل إليهم من مخطوطات يونانية وسريانية، فإنهم قد وجدوا القليل جدا من العلم والكثير من الفلسفة في مجال الكيمياء، فبدأوا من الصفر. وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية انتقل مركز العلوم وبؤرة توهجها إلى الحضارة العربية الإسلامية: حيث تميزت هذه الحضارة بالقدرة العالية على التوثيق، فقد حفظت علوم الأولين بالترجمات العربية. وعلى الرغم من أن الكيمياء قد قامت على أنقاض فلسفة يونانية تمحورت حول تحويل العناصر الخسيسة (المعادن غير الذهب، والفضة، والبلاتين) إلى عناصر نفيسة، وتحضير إكسير الحياة، فإن العلماء المسلمين سرعان ما لفظوا تلك الأساطير وتبنوا المنهج التجريبي كما نعرفه الآن.

بداية علم الكيمياء العربي

تبنى علماء الكيمياء المسلمون المنهج العلمي التجريبي منذ بداية القرن التاسع الميلادي، يقودهم في هذا المجال بلا منازع العالم العربي جابر بن حيان الذي يستحق أن يسمى «أبوالكيمياء». وقد أسس ابن حيان للمنهج التجريبي وصمم أجهزة التقطير ووصف عمليات كيميائية متعددة، منها: الإسالة Liquefaction، والبلورة crystallization، والمعايرة calibration، والأكسدة oxidization، والتبخر Evaporation؛ كما عرف ووصف عملية الترشيح. ولقد تميز معمل جابر بن حيان بالقدرة الفائقة على فصل المواد، والحصول عليها في صورة نقية.

المنهج العلمي التجريبي

وضع جابر بن حيان أسس المنهج العلمي التجريبي: حيث بنى معرفته الكيميائية على التجارب والاستقراء والاستنتاج العلمي. وهكذا آمن جابر إيمانا عميقا بأهمية إجراء التجارب كسبيل علمي دقيق للوقوف على الحقائق بعد أن تخلى عن منهج التأمل العقيم المنقطع الصلة بالواقع المشاهد. ونادى بأن دراسة العلوم الطبيعية أساسها التجربة، لذا نجد أن علماء المسلمين نهجوا منهجه وحذوا حذوه. ولم يكن ذلك في مجال الكيمياء وحده، وإنما في العلوم الأخرى. ولأن جابر كان أول من أدخل التجربة العلمية المختبرية في منهج البحث العلمي الذي أرسى قواعده، فإنه كان يوجه طلابه بالقول المأثور عنه: «وأول واجب أن تعمل وتجري تجارب، لأن من لا يعمل ويجري التجارب لا يصل إلى أدنى مراتب الإتقان. فعليك بالتجربة لتصل إلى المعرفة». ولقد درس جابر بن حيان المنهج العلمي عند علماء اليونان بكل إمعان، فوجده يرتكز على التحليلات الفكرية الغامضة. واتجه هو نحو الاعتماد على المنهج العلمي الذي يخضع للتجربة المختبرية والبرهان الحسي، وذلك مع الاحتفاظ بالنظريات التي تعتبر عصب البحث العلمي.

وهكذا ألزم نفسه بأسلوب من البحث النظري والسلوك العملي، يضم تحته كلا المنهجين الاستدلالي والاستقرائي، والذي هو في النهاية الأسلوب العلمي في المعنى الحديث. ويطرح جابر منهجه، مخاطبا قارئه بقوله: «يجب أن تعلم أننا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط دون ما سمعناه أو قيل لنا أو قرأناه، وبعد أن امتحناه وجربناه، فما صح أوردناه وما بطل رفضناه، ومما استخرجناه نحن أيضا وقايسناه على هؤلاء القوم».

وإضافة إلى ذلك، فإن جابر كان يجمع بين الامتحان التجريبي، أو العمل المعملي، والفرض العقلي الذي تأتي التجربة لتأييده أو رفضه أو تكذيبه، وهو ما يعتبر لب المنهج التجريبي. وفي هذا يقول: «لقد عملته بيدي وبعقلي من قبل وبحثت عنه حتى صح وامتحنته فما كذب». وهذا يعني أن التجربة وحدها لا تكفي لتصنع عالما، بل لابد من أن يسبقها الفرض العلمي الذي يصنعه العالم، ثم تكون التجربة بعدئذ هي المحك. ويقول جابر أيضا: إياك أن تجرب، أو تعمل حتى تعلم. ويحق أن تعرف الباب من أوله إلى آخره بجميع تقنياته وعلله، ثم تقصد التجريب؛ فيكون بالتجربة كمال العلم.

وهكذا نجد أن المنهج العلمي لجابر بن حيان يتلخص في الفرض النظري ثم البحث عما يؤكده أو يدل عليه في الواقع المحسوس ومواصلة البحث والتطبيق والدقة في التجربة إلى أن يصل الباحث إلى قانون عام، ثم امتحان هذا التعميم الذي أخذ صورة القانون.

ولا يقتصر ذلك على ما ثبت صدقه وحده، وإنما يتجاوزه إلى ما يخالفه ويناقضه أيضا إن وجد، وهذا يفرضه واقع أن صورة القانون العلمي لا تكتمل -في حقيقتها- إلا بكشف العملية العلمية لما يحدث فعلا.

ويقول جابر أيضا لطالب العلم: «لا علم إلا بعمل قبله يتقدمه، فاعرف ذلك واعمل عليه، وإياك وإهماله فليس يمكن كل يوم العمل والتجربة لترى الرشد فيما نقوله لك. ولكن اتعب أولا تعبا واحدا واجمع وانظر واعلم ثم اعمل». أي أن التجربة منهج معتمد، لكنها وحدها لا تكفي: إنما تأتي «صنعة الكيمياء بالعوامل الثلاثة معا: العلم والعمل والتجربة».

إسهامات الحضارة العربية في علم الكيمياء

لعب المجتمع الإسلامي دور المؤسس والحاضن لعلم الكيمياء، وكان لعلماء عظام أمثال جابر بن حيان والرازي دور أساسي في الاكتشافات الكيميائية التي أسست للحضارة المعاصرة؛ حيث وصفوا عملية التقطير وأجهزتها، مثل الإنبيق المستخدم في الحصول على النواتج في صورة نقية. وكذلك فإن المصطلحات التي مازالت تستخدم حتى الآن، مثل الإكسير والإنبيق والكحول المستخدمة الآن باللغة الإنجليزية واللغات المشتقة عن اللاتينية، كلها كلمات عربية الأصل، كما أن اكتشاف وتسمية أحماض الهيدروكلوريك، الكبريتيك، النيتريك، الخليك، الصودا، والبوتاس كلها أدخلت على أيدي العلماء المسلمين. وهناك كثير من العمليات الكيميائية عُرفت ووصفت من جانب العلماء العرب، مثل تقطير الماء والكحول وصناعة العطور؛ حتى إن بعض الرموز للعناصر الكيميائية المستخدمة حاليا ترجع أصولها إلى اللغة العربية. ومنها مثلا رمز الصوديوم Na المشتق من كلمة نطرون (al-natrun): الذي كتب باللاتينية Natrium، وكذلك فإن رمز عنصر البوتاسيوم k مشتق من كلمة (al-qaliy) الذي كتب باللاتينية (kaliem). ومن أعظم اكتشافات الكيمياء العربية التجريبية، الماء الملكية «aqua regia» وهو خليط من حامض النيتريك وحامض الهيدروكلوريك: حيث يتميز بقدرة عالية على إذابة معظم العناصر، ومن بينها الذهب. وقد أدخل العرب طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحل بحمض النتريك، كما أمكنهم فصل كل من عنصري الزرنيخ والأنتيمون من مركباتهما الكبريتية، كما برزوا أيضا في صناعة الحديد وفي دباغة الجلود. وفوق ذلك تركوا موروثا هائلا من المؤلفات التفصيلية الوافية التي تناولت صناعات عديدة، منها: صناعة السكر والزجاج والأحجار الكريمة والطلاء.

استخدم جابر بن حيان ثاني أكسيد المنجنيز في صناعة الزجاج، واستخدم الرمل الأبيض الخالي من أكاسيد الحديد للحصول على زجاج ناصع البياض. وحضر جابر أيضا مادة براقة من كبريتيد النحاس واستخدمها في تزيين المخطوطات بدلا من الذهب، كما قام بتحضير نوع خاص من الطلاء يقي الثياب من البلل ويمنع الصدأ عن المعادن، واكتشف أن الشب Alum يساعد على تثبيت الألوان في الصباغة؛ وهو ما ظل مستخدما إلى اليوم. وصنع جابر بن حيان كذلك نوعا من الورق غير القابل للاحتراق، ونسخ عليه كتاب الإمام جعفر الصادق في الحكمة؛ حرصا عليه من الاحتراق. ويقول ابن الأثير في ذلك: «إن العرب استعملوا أدوية خاصة إذا طُلى بها الخشب امتنع احتراقه».

وكان الرازي أول من قطر النفط (البترول) واكتشف الكيروسين وصنع مصباح الكيروسين، وصنع الصابون، والمواد القاتلة للبكتيريا أيضا.

كما عرَف ووصف عملية التسامي Sublimation التي يقصد بها تحول المادة الصلبة بالتسخين إلى الحالة الغازية دون المرور بالحالة السائلة.

وكان من إبداعات الكيميائيين العرب تنقية المواد والحصول عليها في صورة عالية النقاء: حيث طوروا تطبيقات صناعية كان لها تأثير كبير في تقدم العلم والحضارة الإنسانية. ومن أهم هذه التطبيقات الصناعية صناعة الصلب، ومن أهم المراجع في هذا المجال مخطوطة لأبي يوسف بن إسحق الكندي (حوالي ٨٥٠م)، الملقب بفيلسوف العرب. والمخطوطة رسالة بعنوان «رسالة إلى إخواني في السيوف» قدم فيها معلومات تكنولوجية غاية في الأهمية وقدم تقسيما للحديد وأنواعه ومنها الفولاذ.

ظلام في أوربا

وتعتبر مخطوطة «الجماهر في معرفة الجواهر» لأبي الريحان البيروني (٩٧٣-١٠٤٣م) التي توجد نسخة منها في مكتبة طوب كابي تحت رقم ٢٠٤٧ من أجمع ما كتب في التعريف بالتقنيات العربية في مجال الحديد والصلب. وهي تعكس إبداع العرب في كيمياء المعادن ومعرفتهم العميقة بخواصها. وفي مكتبة شيستربيتي بالعاصمة الأيرلندية دبلن مخطوطة للجلدكي (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م). تحت رقم (٤١٢١) تحتوي على جزء من كتاب «الحديد»، وتعتبر مرجعا مهما في دراسات تأريخ التعدين وكيمياء المعادن.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي قدم ناصر الدين الطوسي قانون حفظ المادة: حيث أكد أن «المادة لا تفنى وإنما تتحول من صورة إلى أخرى»، وهو ما نعرفه اليوم بالقانون الأول للديناميكا الحرارية.

ولم تكن أوروبا تعرف شيئا عن

علم الكيمياء حتى الربع الأخير من القرن الثالث عشر، وبالتحديد حتى عام ١٢٧٦م؛ حيث كتب روجر بيكون إلى البابا في روما قائلا: «إن العرب يتميزون بعلم يسمى بالكيميائية النظرية»، ويستأذنه في إدخاله في برامج التعليم في أوروبا، وبدأت حركة ترجمة هائلة لكتب ابن حيان والرازي والكندي وابن سينا إلى اللغة اللاتينية، ثم بدأت حركة كتابات لاتينية بيد من سُمّى فيما بعد باسم جابر المزيّف: وهو كيميائي مجهول من القرن الرابع عشر الميلادي ظهر في إسبانيا، وقد ترجم العديد من كتب جابر ونسب بعضها لنفسه، ونسب بعض كتبه الشخصية إلى جابر بن حيان.

الوزن النوعي ودفع السوائل

عرف الكيميائيون العرب الميزان ووصفه جابر في كتبه وصفا دقيقا، وكانوا يستخدمون الرطل والأوقية والمثقال والدرهم والقيراط والحبة في بحوثهم. ومن المعروف أن الرطل المستخدم في ذلك الحين كان يساوي ١,١ من كيلوجرام على حين أن الحبة تزيد قليلا على ٠,٠٦ من الجرام: مما يدل على مدى حساسية ودقة الميزان المستعمل في ذلك الحين، ومن المدهش حقا أن الميزان لم يستخدم في أوروبا إلا بعد عهد جابر بأكثر من ستة قرون.

واستخدم العلماء العرب الميزان لتعيين الوزن النوعي للعناصر، ويمكن الاستدلال على ذلك مما ذكره جابر بن حيان في كتابه «الأحجار على رأي بيناس»؛ فهو يقول: «اعمد إلى سبيكة ذهب أحمر خالص نقي جيد يكون وزنها درهما وسبيكة فضة بيضاء يكون وزنها درهما، ضع الذهب في إحدى كفتي ميزان والفضة في الكفة الأخرى ثم دل الكفتين في ذلك الماء الذي صفا داخله (خلا من الشوائب) إلى أن تغوصا فيه فإنك تجد الكفة التي فيها الذهب ترجح الكفة التي فيها الفضة، وذلك لصغر جرم الذهب (صغر الحجم) وانتفاش الفضة. ولا يكون ذلك إلا من اليبوسة التي فيها، فاعرف الزيادة التي بينهما بالصنجة». ويتبين من ذلك أن العلماء العرب كانوا يعرفون الوزن النوعي للعناصر المختلفة. وقوله: وبأن ذلك لا يكون إلا من اليبوسة.. يشير إلى اختلاف الكثافة. وذكر صغر جرم الذهب يعد تعبيرا عن المعرفة بأن دفع الماء للأجسام يتناسب طرديا مع الحجم؛ أو بمعنى آخر مع وزن السائل المزاح.

التقنية والصناعات الكيميائية العربية

ازدهرت صناعات عديدة خلال الفترة من القرن الثامن الميلادي، وحتى القرن الخامس عشر الميلادي، وهي صناعات وضع أساسها علماء الكيمياء العرب، ثم أصبحت هي الأساس للعديد من الصناعات الكيميائية المعاصرة. ولعل من أكثر تطبيقات كيمياء العرب أهمية استخدام العرب الرق وسعف النخيل والبردي للكتابة، وذلك حتى القرن الثالث الهجري، وقد كانت صناعة الورق قد نقلت عن الصينيين. وفي عصر الخلافة العباسية انتشرت مصانع الورق في بغداد ودمشق والقاهرة، وازدهرت صنعة الوراقين وانتشرت الكتب، وقد صاحب ذلك تطور صناعة الأحبار واكتشاف الحبر الحديدي والكربوني والأحبار الملونة. وكان لهذا الاكتشاف أكبر الأثر في حفظ نقل وتوثيق العلوم العربية، وكذلك الإغريقية القديمة. وفيما يلي نماذج لبعض الصناعات التي ترجع أصولها إلى الحضارة العربية الإسلامية.

صناعة السيراميك

ظلت صناعة السيراميك، خلال الفترة من القرن الثامن الميلادي وحتى القرن الثاني عشر الميلادي، تعتمد على التقنية التي أبدعها العلماء المسلمون الأوائل؛ حيث استخدموا الخارصين (أي الزنك Zinc) في عملية التلميع. وكانت العملية في البدء تؤدي إلى أسطح معتمة. وتوجد من هذا النوع من السيراميك الذي يرجع إلى القرن الثامن الميلادي قطع زرقاء اللون محفوظة في البصرة بالعراق.

وطور علماء الكيمياء المسلمون تصنيع عجينة السيراميك في العراق، وتفوقت الفسطاط في صناعة السيراميك الملون، خلال الفترة من عام ٩٧٥م إلى عام ١٠٧٥م، وأصبحت مركز ازدهار لهذه الصناعة، ثم انتقلت هذه الصناعة إلى دمشق، وظلت متمركزة فيها حتى بداية القرن السابع عشر الميلادي، كما تميزت «تبريز» بإيران في صناعة سيراميك عالي الجودة منذ عام ١٤٧٠م وحتى عام ١٥٠٥م.

الألعاب النارية والصناعات العسكرية

طور علماء الكيمياء العرب صناعة الألعاب النارية التي يرجع أصلها إلى الصين باكتشافهم البارود الذي أعد بنسب مئوية ثابتة من ملح النترات (٧٥٪)، والكبريت (١٠٪)، والكربون (١٥٪)، وذكر هذا التركيب العالم السوري «حسن الرّماح» في كتابه الذي نشر عام ١٢٧٠ ميلادي؛ مما أدى لانتشار صناعة البارود والقذائف والألعاب النارية، وأصبحت صناعة لها أسس وقوانين وقواعد في المجتمع العربي الإسلامي.

واستخدم ملح البارود (نترات النشادر) في عدة أغراض منها: الصناعات المعدنية، وصناعة حامض النيتريك والماء الملكي. وقد نشر «جابر بن حيان، والرازي» عدة وصفات لاستخدام هذه المادة والحصول عليها في صورة نقية، وأكدوا على أن استخدامها كسلاح يستلزم تحضيرها بدرجة عالية من

النقاوة. ووصف «ابن المخطاوي» إحدى هذه الطرق في كتابه «المقدمات» عام ١٠٢٩م، كما وصف طريقة أخرى أكثر سهولة الكيميائي المهندس «حسن الرّماح» في كتابه «الفروسية والمناصب الحربية» عام ١٢٧٠م.

واستطاع الكيميائيون العرب كذلك صناعة الحديد والصلب، واستحدثوا طريقة لتقسية الحديد من أجل استخدامه في صناعة السيوف والرماح.

استخدم الجنود المصريون في معركة (عين جالوت) عام ١٢٦٠م ملابس واقية من الحريق، كما كانوا يطورون تقنية لاستخدام (بودرة التلك) لدهان أيديهم ووجوههم حماية لهم من البارود. وطوّر المصريون كذلك أول مدفع يطلق أعيرة البارود واستخدموه في معركة عين جالوت ضد المغول عام ١٢٦٠م. وعرفت في القرن الرابع عشر الميلادي بمصر أربع تركيبات (أنواع مختلفة) لبارود المدافع: كان أكثرها قوة انفجار ذلك النوع الذي يحتوي على ٧٤٪ من نترات الصوديوم، ١١٪ من الكبريت، ١٥٪ من الكربون. كما يرجع اكتشاف «ملح البارود» أو نترات النشادر إلى «خالد بن يزيد».

تقطير وتكرير البترول

اكتشف العديد من آبار النفط وازدهرت صناعة التقطير وتنقية مستخرجات البترول والصناعات الثانوية المبنية عليها خلال القرن الثامن الميلادي. وقبل نهاية ذلك القرن كانت شوارع بغداد كلها قد فرشت بالقار من مادة الأسفلت؛ التي استخرجت عن طريق التقطير الائتلافي للبترول. كما وصف «الرازي» لأول مرة في بغداد في القرن التاسع الميلادي عملية تقطير لاستخلاص الكيروسين من البترول وصفا دقيقا في كتابه «الأسرار»؛ حيث قدم طريقتين لاستخلاص الكيروسين. وتعتمد الطريقة الأولى على استخدام الطَفل clay كمادة ماصة، واستخدم ملح كلوريد الأمونيوم في الطريقة الأخرى. كما وصف «الرازي» أيضا مصباح كيروسين سماه «النفاطة» نسبة إلى النفط الذي يستخدم فيه، وصار المصباح الكيروسيني يستخدم على نطاق واسع في أرجاء العالم العربي لأغراض الإضاءة والتدفئة.

صناعة الزجاج

عرف المسلمون القدامى صناعة الزجاج وتلوينه، وكانت تلك الصناعة قد انتقلت إلى دمشق، ومنها إلى الصين، وبعض بلدان آسيا في الحضارات القديمة. ومع ازدهار الحضارة العربية طوّر المسلمون -وعلى رأسهم «جابر ابن حيان»- طرقا علمية عديدة لصناعة الزجاج وتلوينه. وقدم جابر بن حيان في كتابه «الدرر المكنونة» ستا وأربعين وصفة لتصنيع الزجاج الملون، كما أضيفت اثنتا عشرة وصفة جديدة إلى هذا الكتاب في إصدار قام «المراكشي» بتنقيحه. وهكذا أمكن تصنيع الزجاج الشفاف عالي النقاء. وزجاج الكوارتز والسيلكا الذي وصفه «عباس بن فرناس»، وهو أول من حفر الزجاج باستخدام الرمال مباشرة. وانتقل مركز ازدهار صناعة الزجاج إلى الأندلس في القرن الحادي عشر الميلادي، حيث أنتجت المرايا الزجاجية وأقيمت مصانع للزجاج انتشرت في أوروبا واليونان، واستطاعت تلك المصانع أن تنتج أول مرايا محدبة، واستخدم «الحسن بن الهيثم» مثل تلك المرايا، ووصفها في كتابيه «المرايا المشتعلة» و«الضوء»، عام ١٠٢١م.

صناعة الصابون والعطور

اهتم العلماء العرب بعلوم لم تكن معروفة من قبل، مثل علوم الصحة العامة والصحة الوقائية التي اكتشفوا فيها أن مبدأ الوقاية خير من العلاج، هو الوسيلة لإنقاذهم من كثير من أمراض فتاكة لم يكن لها علاج معروف في ذلك الوقت، فاخترعوا مواد كيميائية عديدة لها نشاط قاتل للبكتيريا استخدموها في التعقيم والتطهير. وانتشرت مواد (مثل الكحل) بصورة كبيرة في المجتمع، كما انتشرت أيضا صناعة الصابون التي قدم «الرازي» فيها وصفات متعددة.

وكان الصابون يطلق عليه «الصابون العربي»، وكانت المصانع تنتج صابونا سائلا، وصابونا جافا، منه الملون والمعطر والشفاف.

وفي القرن العاشر الميلادي (حوالي عام ٩٨٠م) رصدت إحدى المخطوطات أن سعر الصابون هو ثلاثة دراهم، كما ازدهرت أيضا صناعة العطور بعد ازدهار عمليات المعالجات الكيميائية الخاصة، مثل التقطير على يد «جابر بن حيان» و«الرازي». واستطاع العلماء العرب إقامة صناعات متميزة للعطور نتيجة لوجود نشاط تجاري مع أنحاء العالم. ومن الصناعات العطرية التي ازدهرت في تلك الفترة صناعة «عطر الياسمين»، كما استطاعوا أيضا تصنيع الشامبو وصبغات الشعر.

وطوّر العرب طرق التقطير لاستخلاص العطور والزيوت الفوّاحة المتطايرة من النباتات والورود، بنيت عليها صناعات مثل صناعة العطور والمشروبات الحقيقية «مثل الشربات» ومستخلصات العطور. كما أنهم طوروا عملية تنقية الماء لاستخدامه في الرحلات الطويلة: حيث لا توجد مصادر ماء عبر الصحراء: وذلك للتغلب على فساد الماء نتيجة لتخزينه في القرب لفترات طويلة. واستخدموا طرق التقطير في تحضير مركزات العصائر التي يمكن عند الحاجة تخفيف جزء صغير منها بالماء، أو حفظه لمدد طويلة بإذابته في الماء دون أن يفسد.

إسهامات الحضارة العربية والإسلامية في علوم الفلك

د. أحمد فؤاد باشا
أستاذ الفيزياء بجامعة القاهرة

واكب تقدم علم الفلك في عصر النهضة الإسلامية انتشار المراصد في جميع أنحاء الدولة الإسلامية، وكان أول مرصد بناه المسلمون هو مرصد الشماسية ببغداد، وقام ببنائه العباسيون عام ٢١٤هـ (٨٢٩م)، وأنشأ الفاطميون المرصد الحاكمي على جبل المقطم، وقد اشتهر بأجهزته الدقيقة وبتفوق المشتغلين فيه. وكانت هناك مراصد أخرى عديدة في الشام وأصبهان ومراغة بأذربيجان وسمرقند ومصر والأندلس وغيرها.

وإلى جانب المراصد الفلكية تمكن العلماء من اختراع وتطوير العديد من الأجهزة والآلات التي تستخدم في عمليات الرصد، مثل المزولة الشمسية والساعة المائية لتحديد الوقت ليلا أو نهارا، ومثل الإسطرلاب الذي شاع استخدامه في أشكال مختلفة لقياس الارتفاع ومعرفة الوقت وتحديد مواقع النجوم وتحركاتها، وكان منه الكروي والمستوي والخطي بحسب ما إذا كان يمثل الكرة السماوية ذاتها أو يمثل مسقطها على سطح مستوى، أو مسقط هذا السطح على خط مستقيم، وكانت هناك آلات أخرى للرصد منها: ذات السمت والارتفاع. والأرباع أو الربعيات (ربع الإسطرلاب، ربع الدائرة، ربع الزرقالة، ربع التام، الربع المجيب، الربع الشمالي...إلخ) وبيت الإبرة (البوصلة)، والبندول أو الرقاص الذي اكتشفه ابن يونس المصري، واستخدمه في مرصده لقياس الفترات الزمنية التي يستغرقها رصد النجوم، كما استخدمه في الساعات الدقاقة، وذلك قبل جاليليو بنحو ستة قرون.

ويذكر البيروني أنه ألف رسائل مهمة في الإسطرلاب بأنواعه المختلفة، وضع في إحداها نظرية بسيطة لقياس محيط الأرض بدقة لا تختلف كثيرا عن القيمة المعروفة حاليا.

ويمكن تصنيف موضوعات فروع الفلك التي أضاف إليها علماء الحضارة العربية الإسلامية إسهامات مهمة إلى قسمين كبيرين هما: علم الفلك النظري، وعلم الفلك التطبيقي، وسنعرض للحديث عنهما بإيجاز فيما يلي:

علم الفلك النظري:

يعنى هذا العلم بالهيئة التي يوجد عليها الكون كما يتصوره العلماء، وبدراسة الحركات الظاهرية للأجرام السماوية في إطار نموذج يساعد على تفسير هذه الحركات. وكان القدماء يطلقون على النجوم الثابتة (نسبيا) في السماء كما تراها العين اسم «الكواكب الثابتة»، لتمييزها عن الكواكب السبعة السيارة حول الأرض وهي (طبقا للنظام الذي وضعه بطليموس): الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل، أي إن الأرض في هذا النموذج البطلمي كانت تعتبر مركز الكون، وإن الحركة الكوكبية دائرية منتظمة، وكان يطلق على الكواكب الخمسة الأخيرة اسم «الكواكب المتحيرة»، نظرا لأنها تتحير في السماء بين النجوم من حين لآخر، وتكون حركاتها في اتجاه واحد فتسمى الحرة المستقيمة، ثم لا تلبث أن تغير اتجاه الحركة عائدة إلى الجهة المضادة، وذلك هو «الرجوع»، ولم يكن معروفا لدى القدماء ما نعرفه الآن من حركة الأرض والكواكب حول الشمس (وهو نظام مركزية الشمس المنسوب لكوبرنيكوس في القرن السادس عشر الميلادي)، وأن الكواكب أجرام معتمة تستمد ضوءها من الشمس.

والأساس النظري لهذه الدراسات هو حساب المثلثات الكروية، باعتباره الوسيلة الرياضية الرئيسية لحل مسائل الفلك الكروي. وكانت نظرية بطليموس صالحة تماما لمعظم الأغراض الحسابية، يقينا بالنسبة الى النجوم الثابتة، وبتعديلات معينة بالنسبة إلى الشمس والقمر والكواكب، وفي محاولة لتفسير الحركات غير المنتظمة للكواكب وضع بطليموس إنشاءات هندسية لحركات افتراضية على ما يسمى فلك التدوير Epicyclic motion، والفلك الخارج عن المركز Eccentric motion، والفلك الحامل (الناقل)

• منشورات مكتبة الإسكندرية.. من واقع المخطوطات العلمية بمكتبة الأزهر

Deferant، والفلك المعدل للمسير Equant، لكن بعض تلك التعديلات كانت محل اعتراض من جانب علماء المسلمين، استنادا الى أسس فلسفية أو عملية أرصادية، أو إليهما معا، وأسهم المسلمون من جانبهم في إضافات مهمة إلى علم الفلك النظري. وذلك باقتراح تعديلات على النظام البطلمي فحدد الحسن بن الهيثم (ت ١٠٤٠م) في كتابه «الشكوك على بطليموس» ستة عشر اعتراضا على النظرية البطلمية.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي قدم نصير الدين الطوسي (ت ١٢٧٤م) إصلاحا أشمل، واقترح آلية تعرف باسم «مزدوجة الطوسي» Al-Tusis Couple لتفسير التناقضات الواضحة بين تراكيب بطليموس النظرية وبين نتائج الأرصاد العملية، واقترح فلكيون آخرون من مدرسة مراغة إضافات مهمة، وكان الأبرز من بينهم «مؤيدالدين المرضي الدمشقي» (ت ١٢٦٦م) وابن الشاطر (ت ١٢٧٥م)، ومهدت كل هذه الإنجازات لنظرية كوبرنيكوس الخاص بمركزية الشمس، وأسفرت مقارنات الباحثين بين النصوص والرسوم الواردة في مؤلفات كل من كوبرنيكوس وفلكيي مرصد مراغة، عن أن الشبه بلغ (باستثناء مركزية الشمس عند كوبرنيكوس) حدا دعا البعض إلى القول- دون تجاوز الحقيقة- بأن كوبرنيكوس هو أشهر أتباع مدرسة مراغة، إن لم يكن آخرهم، ودعاهم أيضا إلى التساؤل، ليس عما إذا كان كوبرنيكوس قد تعلم نظرية مراغة، وإنما متى تعلمها وكيف؟

علم الفلك التطبيقي

طور علماء الحضارة الإسلامية آلاتهم الرصدية، ودونوا ملاحظاتهم في مؤلفات قيمة، لا تزال تحتفظ بقيمتها المعرفية والمنهجية حتى اليوم، على سبيل المثال ينتمي عبدالرحمن الصوفي إلى مدرسة الباحثين الفلكيين التي نشأت في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي في بلاد فارس بمدينة شيراز، تحت رعاية الحكام البويهيين، ومن أشهره مؤلفاته كتاب «صور الكواكب الثمانية والأربعين»، وقام فيه بمراجعة النجوم التي وردت في كتاب المجسطي لبطليموس بدقة متناهية امتدحها «شيليرب» shellerp بقوله: لقد أعطانا الصوفي وصفا عن السماء المرصعة بالنجوم بصورة أحسن مما توافر من قبل، وقد بقي هذا الوصف لتسعة قرون دون أن يوجد له نظير.

وفي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي صنف ابن يونس كتاب «الزيج الحاكمي الكبير» الذي أفاد منه العالم الفرنسي الشهير لابلاس في تحديد ميل دائرة البروج والاختلافات بين المشتري وزحل، كذلك استعمل الفلكي الأميركي المعروف سيمون نيوكومب simon Newcomb ملاحظات ابن يونس عن الكسوف والخسوف في بحوثه عن حركات القمر.

كذلك عرف علماء الحضارة الإسلامية أن القمر يختلف في سيره بين سنة وأخرى، واكتشف البوزجاني معادلة لتقويم مواقع القمر، سميت بمعادلة السرعة، وناقش البيروني في كتاب «القانون المسعودي» موضوعات مهمة: منها تعيين الجهات الأصلية بسبع طرق، وتقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام بدون مسطرة وفرجار، وتعيين الوقت ليلا أو نهارا، ومعرفة فصول السنة عن طريق الأرصاد، وقياس طول السنة بدقة متناهية، وتتجلى عبقرية البيروني فيما كتبه عن حركة أوج الشمس، وهي أبعد المواقع السنوية بين الشمس والأرض، ويكمن سر هذه العبقرية في أن نقطة الأوج التي كتب عنها تتحرك بمقدار درجة واحدة كل حوالي ثلاثمائة سنة، وقد حددها بناء على أربعة أرصاد بواسطة الحساب التفاضلي.

ولفت الحسن بن الهيثم الأنظار إلى دراسة الأثر الذي يظهر في وجه القمر، كما كان الفيلسوف ابن رشد أول من رأى كلف الشمس عمليا عندما عرف بالحساب الفلكي وقت عبور كوكب عطارد على قرص الشمس، فرصده ورآه بقعة سوداء على قرصها في الوقت الذي حدده، وللبناني أرصاد عن الكسوف والخسوف اعتمد عليها العلماء المحدثون سنة ١٩٤٧م في تحديد تزايد عجلة تحرك القمر خلال قرن من الزمن.

من ناحية أخرى يعتبر علم الميقات جزءا أساسيا من الممارسة الفلكية لدى المسلمين، فلقد فرض الإسلام على اتباعه فروضا تستلزم دراسة الكون ومعرفة الزمن والأوقات لتحديد مواقيت الصلاة وظهور الهلال ومواعيد الأعياد وتأدية المناسك والعبادات، وتحديد اتجاه القبلة ومواقع البلدان، ومع بداية القرن الثالث عشر الميلادي ظهر نظام «الموقت» كفلكي محترم مسؤول بالدرجة الأولى عن تنظيم

مخطوطات الفلك

بلغ عدد المخطوطات في مجال علوم الفلك والميقات بمكتبة الأزهر الشريف حوالي ٤٣٤ ما بين مخطوط ورسالة، وبلغ عدد المؤلفين المعروفين ١٣٦ ما بين مؤلف وشارح وجامع، والمخطوطات في معظمها باللغة العربية، اللهم إلا مخطوطين باللغة التركية، ومخطوطة واحدة باللغة الفارسية.

مقتطفات من كتاب إسهامات الحضارة العربية والإسلامية في علوم الفلك.. منشورات مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٦.

أوقات الصلاة، وصنف الفلكي شهاب الدين الصوفي المقدسي (أو المقسي) جداول لبيان الوقت منذ الشروق، كدالة لارتفاع الشمس وخط طولها لخط عرض مدينة القاهرة، وقد زيدت وطورت في القرن الرابع عشر الميلادي إلى مجموعة هائلة من الجداول في مائتي ورقة مخطوطة تحتوي على أكثر من ثلاثين ألف مدخل (تدوين)، وفي القرن الرابع عشر الميلادي أنجز في سورية أهم عمل في علم المواقيت الفلكية، فقد عاد المزي بعد دراسته في مصر إلى سورية، ووضع مجموعة جداول للزاوية الساعية وجداول لمواقيت الصلاة في مدينة دمشق على غرار مدينة القاهرة.

ووضع ابن الشاطر جداول لمواقيت الصلاة في مكان عند خط عرض ٣٤ درجة، ووصف ابن يونس طريقة دقيقة لتحديد القبلة، وجدها كارل شوي لافتة للنظر من حيث إنها تعطينا بلغة العصر تعريفا لمعادلة جيب الزاوية وجيب التمام في حساب المثلثات الكروية، وقدم شمس الدين الخليلي أهم الإسهامات في علم الميقات عندما أعاد حسابات جداول المزي للعاملين الجديدين (الارتفاع المحلي وميل فلك البروج) اللذين استنتجهما ابن الشاطر، وظلت جداوله للمواقيت بالنسبة إلى الشمس وإلى تحديد أوقات الصلاة في دمشق مستخدمة هناك حتى القرن التاسع عشر الميلادي.

وكان أحد الأغراض الرئيسية للساعات المائية أن تساعد على إعلان الأوقات المحددة للصلاة عندما تكون السماء مظلمة أو ملبدة بالغيوم، فقد كان الميقات الفلكي داخلا في بنية الساعات المائية، نظرا لأن سرعات تشغيلها كانت تعدل يوما للتوافق مع طولي النهار والليل، ولا تزال الأجزاء الخارجية لهذا النوع من الساعات المصممة في القرن الرابع عشر الميلادي موجودة في إحدى الغرف العليا في مسجد القرويين بمدينة فاس بالمغرب، وكان يعلن عن أوقات الصلاة أثناء النهار برفع علم على قمة المئذنة، وفي أثناء الليل بإشعال النار في موقد عند قمة المئذنة لكي يعلم الموجودون خارج المدينة أوقات الصلاة.

أما اتجاه القبلة من مكان معين فهو عبارة عن دالة مثلثية لخط العرض المحلي وخط عرض مكة المكرمة، والفرق بين خطي طول الموقع ومكة، وكان اشتقاق معادلة اتجاه القبلة بدلالة هذه الكميات إحدى المسائل الأكثر تعقيدا في علم الفلك الكروي الإسلامي، وكانت أيضا من أهم المسائل الدينية، وقد استطاع فلكيو الحضارة الإسلامية استنباط معادلات رياضية مكافئة للصيغة المستخدمة حاليا، وقد حسب اتجاه القبلة بالدرجات وبالدقائق باختلاف في حدود ١-٢ دقيقة فقط.

وليس أدل على انتشار علم الفلك العربي وتأثيره في أوروبا من تلك الأسماء والمصطلحات التي اقتبسها الأوروبيون عن العرب ولا تزال سائدة ومستخدمة في الكتابات الفلكية العربية والأجنبية مثل:

النظير	Nadir	السمت	Azimuth	الهنعة	Alhena
المناخ	Almanac	البلدة	Albalda	العضادة	Alidade
الأثير	Ether	الدبران		الهالة	Halo

وهكذا نجد أن علم الفلك بقسميه: النظري والتطبيقي قد تطور على أيدي علماء الحضارة الإسلامية باستخدام المنهج التجريبي الذي يستند إلى الأرصاد والحساب في تفسير الظواهر الفلكية وتعليل حركات الكواكب والنجوم. ولقد كان للنظريات والأزياج التي وضعها أولئك العلماء أكبر الأثر في إثراء النتائج التي جمعها تيخو براهي Tycho Brahe واستخدمها من بعده كبلر في صياغة قوانينه المشهورة عن حركة الكواكب، وترتب على ذلك كله استنتاج نيوتن لقانون الجاذبية المعروف، وتطور علم الميكانيكا الكلاسيكية إلى الميكانيكا النسبية والميكانيكا السماوية، وتقدم أبحاث الفضاء التي يزهو عالمنا المعاصر بنتائجها، ولقد شهد مؤرخ العلم المعاصر جورج سارتون بأن بحوث العرب الفلكية هي التي مهدت الطريق للنهضة الكبرى التي ازدهرت بكبلر وكوبرينكوس. وتأتي هذه الشهادة منسجمة مع حقيقة أن العلم تراث مشترك للإنسان وأن تاريخ الاكتشافات العلمية كتاريخ الحضارة البشرية يمر في دورات ومراحل لكل منها أهميتها وأثرها في تطور الفكر البشري.

النبي ﷺ وذوو الاحتياجات الخاصة

محمد فتحي النادي
باحث في الفكر الإسلامي

إن من إكرام الله للإنسان أن خلقه بيديه، فقال مخاطبًا إبليس عندما رفض الإذعان لأمره بالسجود لآدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص: ٧٥).

وجمل ربنا صورة الإنسان وشكله عن سائر المخلوقات، وأحسن هيأته، فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ (التين: ٤).

ومن كمال طلاقة قدرة ربنا- سبحانه- أنه لم يخلق البشر على هيئة وشكل واحد.. فالخلق ليس عملاً آليًا، ولكنه إبداع وتصوير راجع لمشيئة الله سبحانه-﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۝٦﴾ (آل عمران:٦).

فالله إذا خلق إنسانا سويا كامل الخلقة والأعضاء، فمن مطلق مشيئته وقدرته أن يخلق إنسانًا مخدجًا، وما ذلك إلا ابتلاءً للإنسان.

فالله لم يمنع إلا ليعطي، ولم يحرم إلا ليهب، فالله يعوض من ابتلاهم بالعجز والمرض والآفات بالجزاء الأوفى في الآخرة، ولا يحرمهم من أنسهم به في الدنيا؛ «أما علمت أنك لو عدته وجدتني عنده؟» (١).

ولم يكن النقص الذي يصيب الإنسان من آفة أو عجز أو إعاقة لخلل في قدرة الله، أو لعيب في الخالق- حاشاه جل جلاله- فالله تعالى منح سيدنا عيسى المسيح معجزة إبراء المرضى؛ فكان عليه السلام يستطيع أن يشفي من ولد أعمى وهو الأكمه، ولكنها طلاقة القدرة والمشيئة، وسنة الابتلاء والاختبار التي كتبها الله على بني آدم.

وبعض النفوس البشرية تنفر وتتشاءم من ذوي الآفات والأمراض، وتتجنب مخالطتهم أو الحديث معهم، وهناك من يسخر منهم ويجعلهم مادة دسمة للتندر والتفكه في المجالس وفي غيرها، وهم بذلك لا يعيبون الصنعة بقدر ما يعيبون الصانع، فبدلًا من أن يتعجبوا من قدرة ربهم، أو يسألونه المعافاة مما ابتلى به غيرهم، فإنهم يتندرون على أشخاص لا دخل لهم فيما هم فيه، ولم يختاروا أن يكونوا كذلك.

لقد تسامى الإسلام ونبيه في التعامل مع هؤلاء الأشخاص وبشروهم بالخير إن صبروا، واستخدموهم وقدموهم ولم يهملوهم أو يؤخروهم، على النحو الذي سنبينه فيما سيأتي.

ويمثل المعوقون (ذوو الاحتياجات الخاصة) ١٠٪ من سكان العالم، وترتفع النسبة في العالم العربي إلى ١٢٪ (٢).

ويصادف يوم ٣ ديسمبر من كل عام اليوم العالمي لذوي الاحتياجات

الخاصة، وهو يوم قد خصص من قبل الأمم المتحدة منذ عام ١٩٩٢ لدعم ذوي الاحتياجات الخاصة (٣).

أنواع الإعاقات

تحديدنا لأنواع الإعاقات هو الذي سيساعدنا على تلمس الأنماط التي تعامل معها رسول الله ﷺ، وإبراز هذه الشخصيات وتسليط الضوء عليها.

وقد ذهب المختصون إلى أن أنواع الإعاقات، ويمكن إبرازها في الآتي:

- إعاقة تخاطب جزئية.
- إعاقة تخاطب كلية.
- صمم.
- ضعف السمع.
- الاضطرابات الانفعالية والوجدانية.
- صعوبات التعلم.
- المشكلات الصحية الخاصة، والصرع.
- التخلف العقلي البسيط.
- التخلف العقلي الشديد.
- إعاقة حركية.
- كف البصر(٤).

وهذه الإعاقات قد يولد بها الإنسان، وتكون ملازمة له طول حياته، مثل الذي يولد مقعدًا، أو كفيفًا، أو أخرس، أو أصم.. إلخ.

وقد تحدث له هذه الإعاقات نتيجة حادثة تلم به، أو مرض يصيبه.

الإسلام يدعو لمخالطة ذوي الاحتياجات الخاصة

ذكرنا أن هناك نفوسًا بشرية تأنف من مخالطة المعاقين ذوي الاحتياجات الخاصة، وتجعل بينها وبينهم حاجزا نفسيا، فأراد الإسلام أن يرفع من قدر النفس الإنسانية، حتى وإن ظهرت في أعين الناس ناقصة، فالعمى أو العرج أو غيرهما ليس قادحًا في شرف النفس، وليس سبيلًا لضعتها.

«وكان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي ﷺ لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض، فقال بعضهم: إنما كان بهم التقذر والتقزز»(٥). فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ..﴾ (النور: ٦١).

الإسلام يرفع الجهاد عن أصحاب الأعذار

الله- جل جلاله- قد خفف عن أصحاب الأمراض والآفات أمورًا كثيرة، ويأتي على رأسها الجهاد، والذي وصفه رسول الله ﷺ بأنه «ذروة سنام الإسلام»(٦)؛ فالجهاد شاق على الأصحاء، فما بالك بالضعفاء ذوي الأعذار؟

إن الله لم يجمع عليه مشقتين: مشقة المرض أو الإعاقة، ومشقة الجهاد.. وقد أنزل الله قرآنًا يرفع الحرج عن أصحاب الأعذار فقال- جل جلاله-: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ..﴾ (الفتح: ١٧).

ورغم رفع الحرج من الله عن عباده الضعفاء فإننا نجد نفوسًا عظيمة تسامت على ضعفها وألمها وإعاقتها، فجاهدت في سبيل الله، ولم تأخذ بالرخصة، بل أخذت بالعزيمة على ما سنذكره لاحقًا.

حجة وعذر يوم القيامة

أخبر رسول الله ﷺ أن هناك أشخاصًا تكون لهم حجة قوية يحتجون بها يوم القيامة، ومن هؤلاء المعاقون الذين ابتلاهم الله في الدنيا بالإعاقة والعجز، وقد وقع التخصيص من بين أصحاب الإعاقة على الأصم الأبكم، والمجنون؛ لأن تواصلهم مع البيئة المحيطة فيه انقطاع؛ فإن كانت بيئاتهم غير مسلمة ولم يتوصلوا إلى الإسلام، جعل الله اختبارهم في الآخرة، فبدلًا من أن تكون الدنيا هي دار الاختبار والآخرة هي دار الجزاء، يجعل الله الآخرة هي دار الاختبار والجزاء.

فقد أخرج ابن أبي عاصم في «السنة»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة كلهم يدلي على الله يوم القيامة بحجة وعذر: رجل مات في الفترة، ورجل أدركه الإسلام هرمًا، ورجل أصم أبكم، ورجل معتوه..»(٧).

الرسول ﷺ يستعيذ من الآفات

المعافاة في الجسد نعمة عظيمة نغفل عنها، وننسى شكرها، ونتذكرها عندما تلم بنا الأمراض.

والجسد هو الآلة التي يستعين بها الإنسان على مشاق الحياة، فإذا تعطل الجسد أصبح الإنسان عالة على غيره، وإذا وجدنا من يحملنا مرة، فهل نجد من يتحملنا مرات ومرات؟

والشعور بالعجز ليس مرارة يجدها المرء في حلقه مرة وتنتهي، بل هي مرارة يعيشها، ومرارات تنغص عليه حياته.

لذا نجد أن رسول الله ﷺ قد استعاذ من الأمراض، فكان يقول: «.. وأعوذ بك من: الصمم، والبكم، والجنون، والبرص، والجذام، وسيئ الأسقام»(٨).

النصرة بالضعفاء

في أوقات الحروب والأزمات يكون الضعفاء والمرضى وذوو الحاجات عالة وعبئًا على الجنود والجيوش، ولكن رسول الإسلام ﷺ أعلى من قيمتهم، وجعلهم سببًا في النصر الذي قد ينزل على المؤمنين، فقال ﷺ: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟»(٩).

الجنة الجزاء الأوفى

إذا ابتلى ربنا- جل وعلا- إنسانًا وحرمه من نور عينه، فإنه قد خبأ له ثوابًا عظيمًا، وأجرًا جزيلًا، إن هو صبر واحتسب، ورضي بقضاء الله له، ولم يقنط أو يجزع، أو يعترض على قضاء الله.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال ربكم عز وجل: من أذهبت كريمتيه، ثم صبر واحتسب

كان ثوابه الجنة»(١٠).

نماذج من تعامل رسول الله ﷺ مع ذوي الاحتياجات الخاصة

لقد ترك لنا رسول الله ﷺ نموذجًا فريدًا في التعامل مع ذوي الحاجات الخاصة، وسنة نسير عليها، وهديًا نهتدي به.

ونحاول أن نسلط الضوء على بعض النماذج، والتي يتضح من خلالها تعامله ﷺ مع ذوي الحاجات الخاصة.

الرسول ﷺ والأعمى

اشتهر بعماه، ولكن الله خلد ذكره في العالمين، وأنزل فيه قرآنًا يتلى إلى يوم الدين، وكانت علاقته برسول الله ﷺ علاقة متميزة، وفريدة من نوعها.. إنه عبدالله بن أم مكتوم.

الرجل الذي عاتب الله فيه نبيه محمدًا ﷺ، وكان خيرًا عند الله من صناديد قريش من الكافرين.. ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ (عبس: ١٠).

فالضعف ليس عيبًا أو نقيصة، والضعف والعجز ليس مما يؤخر عند الله، وليس الحسب والنسب والشرف بين الأقوام مما يقدم عند الله، فمقياس التقدم والتأخر عند الله هو الإيمان والتقوى، فمن أقبل على الله أقبل الله عليه.

وقد كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه هذا الدرس الذي علمه الله إياه، فكان «بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه، ويقول: مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي، ويقول: هل من حاجة؟»(١١).

وكان ابن أم مكتوم- رغم عماه- ثاني اثنين هاجرا إلى المدينة المنورة مع مصعب بن عمير، وكان يعلم القوم القرآن، أخرج البخاري أن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا مصعب ابن عمير وابن أم مكتوم وكانا يقرئان الناس(١٢).

وقد جعله رسول الله ﷺ مؤذنًا خاصا له مع بلال بن رباح، ويبدو أنه كان حسن الصوت، فعن ابن عمر قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذنان: بلال وابن أم مكتوم الأعمى(١٣).

وبسبب ابن أم مكتوم نزل عذر لأصحاب الأعذار في القرآن، فعن البراء قال: لما نزلت: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (النساء: ٩٥) قال النبي ﷺ: «ادعوا فلانًا(١٤). فجاءه ومعه الدواة واللوح أو الكتف فقال: اكتب: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم فقال: يا رسول الله، أنا ضرير! فنزلت مكانها: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١٥).

ورغم نزول العذر له وبسببه، فإنه «كان بعد ذلك يغزو فيقول: ادفعوا إلي اللواء؛ فإني أعمى لا أستطيع أن أفر، وأقيموني بين الصفين»(١٦)، و«قتل شهيدًا بالقادسية»(١٧).

وقد استلمح رسول الله ﷺ في ابن أم مكتوم ملامح القيادة والعلم فكان يستخلفه على المدينة عندما يخرج للغزو، «فقد استخلفه على الإمامة في المدينة في ثلاث عشرة غزوة من غزواته»(١٨).

وقد كان رسول الله ﷺ يستفيد من عمى ابن أم مكتوم؛ حيث جعل فاطمة بنت قيس تعتد عنده، فتكون في سعة من أمرها؛ لأنه لن يرى منها شيئًا، فقد أخرج مسلم أن رسول الله ﷺ قال لها: «اذهبي إلى ابن أم مكتوم فكوني عنده؛ فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده»(١٩).

الرسول ﷺ والأعرج

رسول الله ﷺ تلطفًا بأحوال أهل الأعذار، وتقديرًا لأحوالهم لم يكن ليفرض عليهم الجهاد، كيف وقد رفع الله عنهم الحرج؟ ولكن ما الحال إذا رغب أصحاب الأعذار في الجهاد، هل يمنعهم رسول الله ﷺ؟

لم يقف رسول الله ﷺ في وجه من أحب أن يأخذ بالعزيمة، ولكنه يعرض عليه الرخصة أولًا، وأن الله -تعالى- قبل عذرهم.

وممن قبل رسول الله ﷺ عزيمتهم عمرو بن الجموح، هذا الرجل الذي كان أعرج شديد العرج، وقد قال له بنوه في أحد: «إن الله -سبحانه وتعالى- قد جعل لك رخصة، فلو قعدت فنحن نكفيك؛ فقد وضع الله عنك الجهاد».

فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بني هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك، والله إني لأرجو أن استشهد، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة.

فقال له رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد، وقال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه، لعل الله يرزقه الشهادة، فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيدًا»(٢٠).

وقد كان عمرو هذا سيد قبيلته، وشيخًا من شيوخ الأنصار، فترك السيادة طمعًا في ثواب الله وجنته، وتسامى على كبر سنه ووهن عظمه قربة لله تعالى، ولم يكن ليهن في المعركة بعد كل ما سبق من أحداث بينه وبين بنيه، وبينه وبين رسول الله ﷺ، فقد حمل على المشركين هو وابنه حتى انكشف المشركون وانهزموا.

ولقد قال فيه رسول الله ﷺ: «كأني أنظر إلى عمرو بن الجموح يخوض الجنة بعرجته»(٢١).

الرسول ﷺ ومن في عقله شيء

المجتمع لا يخلو من أناس ابتلاهم الله بشيء في عقولهم، سواء أكان جنونا بالكلية، أم قصورا ذهنيا.. وهؤلاء يحتاجون إلى تعامل من نوع خاص، وصبر طويل وجميل عليهم.

ومن هذه الحالات امرأة أنصارية أصيبت في عقلها، وكانت تأتي رسول الله ﷺ طالبة منه قضاء بعض حاجاتها، فلم يكن يتبرم، أو يتأخر، بل يبش في وجهها، ويذهب معها في

المكان الذي تريد؛ حتى يقضي لها حاجتها.

فقد أخرج مسلم عن أنس، أن امرأةً كان في عقلها شيء فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة. فقال: «يا أم فلان، انظري أي السكك شئت؛ حتى أقضي لك حاجتك». فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها(٢٢).

الرسول ﷺ والمصروع

العقل من أعظم الميزات التي حبا الله بها الإنسان، والعقل هو المسيطر على حركة الجسم وأحاسيسه، وهو مركز الفكر والذاكرة والسلوك، إذا حدث خلل فيه فإنه يندرج بالضرورة على هذا الجسد الحامل له.

ومرض الصرع من الأمراض الشائعة نسبيًا؛ إذ تتراوح نسبة انتشاره في المجتمع ما بين (٥-٧) حالة في كل ١٠٠٠ فرد.

وهذا المرض قد يصيب الإنسان في أي مرحلة من مراحل العمر، من الولادة وحتى الشيخوخة(٢٣).

والصرع يصاحبه تشنجات واضطرابات عصبية تظهر على الجسد، ويكون شكل المصروع وهيئته في أسوأ الأشكال والهيئات.

وقد أتى رسول الله ﷺ امرأة قد أصابها الصرع، جاءته طالبة دعاءه لها بالشفاء، فما كان منه ﷺ إلا أن خيرها بين أن تكون من أصحاب الجنة إن صبرت، وبين أن يدعو الله لها بالشفاء، فاختارت الصبر والجنة، ولكنها أنثى وجسمها عورة، فحياؤها يمنعها من أن تتكشف بين الناس وهي في نوبة الصرع؛ حيث لا تتحكم في نفسها، فطلبت منه ﷺ أن يدعو الله لها بألا تتكشف، فدعا لها(٢٤).

فكانت امرأة من أهل الجنة تعيش وتمشي بين الناس.

الرسول ﷺ والأصم

الإنسان الأصم هو إنسان معزول عن الناس، يعيش بينهم لكن له عالم آخر يعيش فيه.

والإنسان ثقيل السمع يجد صعوبة في التواصل مع الناس، وقد يتهكم عليه الآخرون لعدم قدرته على سماعهم، أو مخالفة الكلام بحيث يغيرون كلامهم في الموقف الواحد اعتمادًا على ثقل سمعه.

وثقيل السمع يرفع صوته ظنا منه أنهم لا يسمعونه إلا إذا رفع صوته، وإن لم يصاحبه هذا الظن، فهو يرفعه لا إراديا.

وكان ثابت بن قيس رضي الله عنه من أصحاب رسول الله ﷺ ممن ثقل سمعهم، لكن الله حباه بالبلاغة والفصاحة، فكان خطيب الأنصار، وخطيب رسول الله ﷺ، وقد قدمه رسول الله لموهبته.

قال الذهبي: «كان جهير الصوت، خطيبًا، بليغًا.. خطب عند مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فقال: نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا، فما لنا؟ قال: الجنة. قالوا: رضينا»(٢٥).

وقد كانت له مواقف مع رسول الله ﷺ تدل على حب الرسول له، والشهادة له بالفضل، فقال: «نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس»(٢٦).

خاتمة

نستنتج مما سبق:

- رحمة النبي ﷺ بأصحاب الأعذار وشفقته عليهم.
- استعمال بعض أصحاب الأعذار في تعليم الناس أمور الدين.
- ثقته في بعضهم بأن يكون مكانه ﷺ في إمامة المسلمين إبان غزواته.
- استفادته ﷺ من قدرات بعضهم، فحسن الصوت يجعله للأذان والإمامة، والمفوه بالكلام يجعله خطيبًا له ﷺ.
- دمجهم في المجتمع، وكسر حاجز العزلة عنهم.
- عدم الوقوف ضد رغباتهم عند أخذهم بالعزائم في طاعة الله سبحانه وتعالى.
- الدعاء لهم، وزف البشرى لهم بالجنان.
- إن وجد سبيلًا إلى معالجتهم فعل ذلك، ولم يتأخر.

الهوامش:

(١) جزء من حديث قدسي أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»، (٦/ ٥٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ.

(٢) موقع ذوي الاحتياجات الخاصة.

(٣) موقع الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

(٤) منتدى سولا للاحتياجات الخاصة.

(٥) تفسير الطبري، (٢١٩/١٩).

(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ح(٢٢١٠٤)، وقد صححه الأرنؤوط بطرقه وشواهده.

(٧) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة»، (١٧٦/١)، وقد صححه الألباني في «ظلال الجنة»، ح(٤٠٤).

(٨) أخرجه ابن حبان في «صحيحه»، ح(١٠٢٣)، وقد صحح إسناده الأرنؤوط.

(٩) أخرجه البخاري في «الجهاد»، باب: «من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب ...»، ح(٢٨٩٦).

(١٠) أخرجه أحمد في «المسند»، ح(١٤٠٥٣)، وقال الأرنؤوط في تعليقه على «المسند»: «إسناده قوي».

(١١) تفسير القرطبي، (٢١٣/١٩).

(١٢) أخرجه البخاري في «مناقب الأنصار»، باب: «مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة»، ح(٣٩٢٥).

(١٣) أخرجه مسلم في «الصلاة»، باب: «استحباب اتخاذ مؤذنين للمسجد الواحد»، ح(٣٨٠).

(١٤) في رواية أخرى ذكرت أنه زيد بن ثابت، والذي كان من كتبة الوحي.

(١٥) أخرجه البخاري في «التفسير»، باب: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله»، ح(٤٥٩٤).

(١٦) الطبقات الكبرى، (٢١٠/٤).

(١٧) الاستيعاب، (٣٧٢/١)، وقال الواقدي: رجع ابن أم مكتوم من القادسية إلى المدينة، فمات، ولم يسمع له بذكر بعد عمر رضي الله عنه.

(١٨) أخرجه مسلم في «الطلاق»، باب: «المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها»، ح(١٤٨٠).

(١٩) البيهقي: السنن الكبرى، (٢٤/٩).

(٢٠)شرف المصطفى، (٤٨٠/٢).

(٢١) أخرجه مسلم في «الفضائل»، باب: «قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به»، ح(٢٣٢٦).

(٢٢) انظر: لينا فارس: الصرع ملاحظات عامة، موقع مجلة الابتسامة، ومقالة: الصرع.. تعريف الصرع.. أسبابه.. أشكاله، موقع منتديات ستوب.

(٢٤) انظر الحديث الذي أخرجه البخاري في «المرضى»، باب: «فضل من يصرع من الريح»، ح(٥٦٥٢).

(٢٥) سير أعلام النبلاء، (٣٠٩/١).

(٢٦) أخرجه أحمد في «مسند أبي هريرة رضي الله عنه»، ح(٩٤٢١)، وقد قوى إسناده الأرنؤوط في تعليقه على «المسند».

د. سامي بن إبراهيم السويلم

التكافؤ الاقتصادي بين الربا والتورق (١-٢)

لم يتوعد القرآن ذنبا من الذنوب مثل توعده للربا، حتى قال الإمام مالك رحمه الله: «إني تصفحت كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فلم أر شيئا أشر من الربا، لأن الله أذن فيه بالحرب»(١)، وفي الوقت نفسه لم يبتل الناس اليوم بمخالطة كبيرة من الكبائر مثل الربا. فقد انتشر بانتشار النظام المصرفي حتى وصل الجميع، مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم. فمن سلم منه لم يسلم من غباره.

ولقد نشأت البنوك الإسلامية، أول ما نشأت، لترفع عن الأمة مصيبة الربا وتزيل عنها آثاره وتبعاته. واجتهد القائمون عليها في إيجاد بدائل تلبي احتياجات النشاط الاقتصادي وفق القواعد والضوابط الشرعية. وكما هو شأن أي كائن، فقد تطورت هذه البنوك وتطور معها التمويل الذي تقدمه لعملائها. ويبدو أن منافسة البنوك التقليدية كان لها أثر ملموس في هذا التطور، فصار التمويل الذي تقدمه البنوك الإسلامية قريبا جدا من التمويل التقليدي، وبدأت الفروق والحواجز بين النوعين تختفي وتتلاشى تدريجيا، حتى وجد ما يسميه الناس وتسميه وسائل الإعلام: «القرض الإسلامي». ويعنون بذلك حصول العميل من البنك على مبلغ نقدي حاضر، على أن يسدد مبلغا أكبر منه على أقساط مؤجلة، (وفقا للشريعة الإسلامية). وهكذا، حتى الربا صار يقدم للناس بطريقة إسلامية! ولاريب أن هذه التطورات تستدعي مراجعات جادة ووقفات صادقة لتقويم الاتجاه وتمحيص الممارسات ونقد الذات، نصيحة لله ولرسوله ﷺ، ولأئمة المسلمين وعامتهم، ومن هنا جاء هذا الموضوع ليلقي الضوء على الجوانب الاقتصادية لصيغ التمويل التي تقدمها المصارف والنوافذ الإسلامية، وأهمها التورق، والتورق المنظم، ويقارن بينها وبين الربا.

وسيتركز الموضوع في محاور:

الأول: حقيقة الربا وحكمة تحريمه.

الثاني: التكافؤ الاقتصادي بين التورق والربا.

الثالث: التورق المنظم وأبعاده الاقتصادية.

حكمة تحريم الربا

ليس تحريم الربا أمرا خاصا بالمسلمين، بل هو محرم كذلك عند اليهود وعند النصارى. وإذا نظرنا إلى التشريعات الوضعية المعاصرة في أكثر دول العالم، وجدناها تضع قيودا على الفائدة الربوية، ولا تبيحها مطلقا. على سبيل المثال تمنع مجموعة من الدول الأوروبية الفائدة المركبة. كما تضع عدة ولايات أميركية سقفا أعلى للفائدة يمنع القانون من الإقراض بفائدة أعلى منه. وهذه التشريعات علمانية، كما هو معلوم، ولا تستند من

حيث المبدأ إلى التعاليم الدينية. ما الذي يجعل هذه التشريعات تضع هذه القيود إذن؟

«السبب في ذلك»، كما يقول السنهوري رحمه الله، «كراهة تقليدية للربا، لا في مصر فحسب، ولا في البلاد الإسلامية وحدها، بل في أكثر تشريعات العالم»(٢).

إذا أردنا أن نلقي نظرة أدق لمصدر هذه الكراهة، وجدنا أن الربا أو الفائدة هي الآلية التي يمكن للدّين من خلالها أن ينمو ويتضاعف تلقائيا. ووفقا لما كتبه بعض الغربيين: إن الفائدة في الحقيقة تعمل عمل السرطان في النسيج الاجتماعي. ولو فرض أن بنسا واحدا وظف وقت ميلاد المسيح بمعدل فائدة ٤٪، لكان محصلة ذلك في عام ١٧٥٠م هو ما يكفي لشراء كرة من الذهب يعادل وزنها الكرة الأرضية. ولكانت المحصلة في ١٩٩٠م ما يكفي لشراء ٨١٩٠ كرة من الذهب على هذا النحو.

إن هذا المثال يبرهن على أن الاستمرار في دفع الفائدة والفائدة المركبة مستحيل رياضيا وعمليا. إن التناقض بين الضرورة الاقتصادية وبين الاستحالة الرياضية أدى إلى العديد من الصراعات والحروب والثورات عبر التاريخ(٣). وما لم تلجم الفائدة ويكبح جماحها، فإن النمو التلقائي للدين سيؤدي في النهاية إلى تعذر الوفاء به؛ إلا باستنزاف جميع ممتلكات المدين وثرواته، فردا كان أو دولة. وفي كثير من الحالات، لا مفر من هذا الاستنزاف الربوي للثروات الاقتصادية إلا بالحروب والاستيلاء على ثروات الأمم والشعوب الأخرى، والواقع والتاريخ شاهد على ذلك(٤)؛ فلتجنب هذه الكوارث لابد من تنظيم وتقييد الفائدة، كما هو الحال في معظم التشريعات القانونية، لكن ليكون التنظيم مثمرا ومحققا للغرض منه، لابد أن يكون مبنيا على أسس عقلانية، ومتفقا مع المنطق الاقتصادي.

ولقد قدم الإسلام أفضل منهج محكم لمعالجة الفائدة، فمنعها من أساسها؛ البسيطة والمركبة، القليلة والكثيرة، إذ لا يوجد فرق حقيقي مؤثر بين هذه الأوصاف، فنتيجتها من حيث نمو الدين وتضاعفه واحدة، ولذلك كان الحكم فيها جميعا واحدا، وهذا المعنى لتحريم الربا هو الذي نزلت به أول آية في تحريم الربا(٥)، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾(آل عمران:١٣٠). فقوله تعالى ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ تصريح بما تؤول إليه الفائدة الربوية من مضاعفة الدين، الذي لا يخفى على عاقل ما يستتبعه من الظلم والأضرار الاقتصادية والاجتماعية؛ فالنظام الربوي من شأنه ومن طبيعته أن الدين يتضاعف فيه تلقائيا أضعافا مضاعفة، ولا يوجد في النظام من حيث هو أي قيد يمنع من ذلك. ولما كان هذا هو مآل النظام، كان من حكمة التشريع منعه من البداية، تجنبا للتناقض التشريعي من جهة، ورعاية لحوافز الانضباط لدى الأفراد، من جهة أخرى، وتحريم ربا النسيئة يقوم على المنطق نفسه وراء تحريم الخمر(٦). فبالرغم من أن الخمر لا يسكر منها إلا الكثير، فإن الشرع الحكيم منع القليل والكثير، لأنه لا يوجد ضابط حقيقي يميز بين القليل والكثير. ولذلك قال ﷺ: «ما أسكر منه الفرق، فملء الكف منه حرام»(٧). وجميع القوانين الأرضية التي تحاول ضبط استهلاك الكحول بشتى أنواع التنظيمات، فشلت في معالجتها والحد منها، كما نعلم جميعا؛ فمحاولة السماح بالقليل والمنع من الكثير محاولة غير ناجحة في الأمرين، لأن الخمر والربا مما يدعو قليله إلى كثيره، كما يقول الفقهاء، أو مثل كرة الثلج بلغة المعاصرين. وما كان كذلك فمن المتعذر السيطرة على القليل دون الوقوع في الكثير، فلا مفر من المنع مطلقا حسما للمشكلة من أصلها.

موقف التشريع من الدين:

ويؤكد ما سبق أن من مقاصد التشريع في المعاملات المالية: كراهة المديونية وشغل الذمة أصلا، ولذلك كان النبي ﷺ كثيرا ما يتعوذ من المأثم والمغرم، والمغرم: الدين، وكان ﷺ لا يصلي على من مات وعليه دين، ويقول: «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه». وجعل الدين مانعا من دخول الجنة فقال: «من فارق الروح جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: الكبر والغلول والدين». والدين تقييد لحرية الإنسان في تصرفاته، ولذلك قال بعض السلف: رق الحر الدين(٨). هذا مع كون هذه الديون نشأت مقابل منافع حقيقية. فكيف بالدين الذي لا ينتفع المدين مقابله بشيء؟

فلسفة التمويل في الإسلام

إن التمويل في الاقتصاد الإسلامي خادم للنشاط الاقتصادي والمبادلات المالية النافعة، وليس العكس كما هو الحال في الاقتصاد الربوي. إن التمويل، بأي صورة كان، لا يمكن الوفاء به ودفع تكاليفه في نهاية الأمر إلا من خلال النشاط الاقتصادي المنتج؛ فالمفترض إنما يمكنه السداد من خلال ما يساهم به في الناتج المحلي، والدخل المتحقق من ذلك هو الذي يوفر له المال اللازم للوفاء بالدين، وإذا كانت العبرة في النهاية هي في النشاط الاقتصادي المنتج، فإن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط التمويل بالتبادل الاقتصادي، ولذلك لا نجد في الشريعة الإسلامية «عقد تمويل» مجرد، عدا الربا المحرم بالنص والإجماع، فجميع العقود المشروعة التي تسمح بالتمويل هي عقود مبادلات اقتصادية؛ لأنه لا فائدة من التمويل في الحقيقة إلا من خلال إيجاد قيمة اقتصادية نافعة. فقصر التمويل على المبادلات الاقتصادية يمنع التمويل من أن يكون نزيفا في جسم الاقتصاد لمصلحة قلة قليلة تتحكم في الثروات والمقدرات

على حساب عامة الناس.

ظلم الدائن وظلم المدين

ثبت عن النبي ﷺ أنه لعن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال: «هم سواء»، وأنه قال: «الآخذ والمعطي سواء في الربا»(٩). فلم يفرق ﷺ بين المقرض والمقترض، مع أن المقرض ظالم، والمقترض مظلوم. وكون المقترض محتاجا لا يعني أنه معذور في اقتراضه بالربا، بل هو والمرابي سواء في استحقاق اللعنة التي جاء بها الحديث. وذلك لأن المقترض هو الذي سمح بهذا الظلم، وشجع المقرض على أن يتسلط عليه. ولا يجوز للمسلم أن يسمح لغيره بأن يظلمه، لأن هذا إعانة للظالم على ظلمه. وتأمل كيف وصف النبي ﷺ المقترض بأنه مؤكل للربا. فهذا الوصف يبين أن الربا جريمة مشتركة بين المقرض والمقترض، وليس خاصا بالمقرض فحسب.

مقصود الدائن ومقصود المدين: مقصود المقترض في عقد الربا هو الحصول على النقد، أو ما يسمى عند الاقتصاديين بطلب السيولة. أما المقرض فمقصوده هو الربح ونماء المال، وقصد السيولة لا حرج فيه شرعا، ولهذا شرع عقد السلم؛ إنما المحرم هو تحصيل السيولة من خلال قبض ١٠٠ مقابل ١١٠في الذمة، لأنه ظلم بنص القرآن، وكذلك قصد الربح ونماء المال، لا حرج فيهب شرعا، بل هو مطلوب. لكن المحرم هو الربح من خلال ظلم الآخرين. أما إذا كان الربح من خلال البيع والشراء الذي يحقق منفعة المشتري، فالربح حينئذ حلال مشروع؛ فالشرع لا يمنع المقاصد والأهداف الاقتصادية النافعة، كالسيولة والربح واجتناب المخاطرة. إنما يحرم الظلم. ثم إن الشرع لم يجعل معيار الظلم راجعا إلى اجتهادات البشر، بل أنزل الحكم الصريح الذي يحدد تماما ما هو الظلم الذي يجب اجتنابه ويحرم الوقوع فيه.

سد أبواب الربا

والشرع حينما حرم الربا، لم يحرمه على المُرْبي فحسب، بل حرمه على الطرفين: الدائن والمدين، لأن الربا نتيجة تراضيهما، ولذلك قال ﷺ: «الآخذ والمعطي سواء في الربا». وهذا يعني أنه لا يجوز للمربي أن يسعى للربا، كما لا يجوز للمدين أن يسعى إليه. بل يجب على كل منهما تجنبه من جهته، ولهذا سد الشرع الحكيم منافذ الربا من الطرفين. فمن جهة المربي منع النبي ﷺ من ربح ما لم يضمن وبيع ما ليس عنده، ومن الكالئ بالكالئ(١٠)؛ لأن كل واحد من هذه التصرفات يفضي إلى الربا من جهة الدائن. كما سد الشرع منافذ الربا من جهة المدين بقاعدة الخراج بالضمان، وبالتحذير من الدين والتشديد فيه، بالنهي عن العينة وذمها، والتورق يدخل في مفهوم العينة عند جمهور الفقهاء(١١).

التورق

يراد بهذا المصطلح أن يشتري المرء السلعة بثمن مؤجل، ثم يبيعها بثمن نقدي حاضر من غير بائعها. وأبرز ما يستند إليه من يجيز هذه المعاملة هو أنها لا تخرج عن كونها بيعا وشراء، وقد أحل الله البيع وحرم الربا. وبناء على ذلك؛ فإن تقويم هذه المعاملة من الناحية الاقتصادية يعتمد على الفروق الحقيقية بين البيع وبين الربا، وهل توجد هذه الفروق في التورق أو لا.

القيمة الاقتصادية للتورق

إذا أردنا أن نقوِّم التورق سنجد بكل وضوح أن منفعة التبادل التي تجبر الزيادة للأجل منفية؛ فالمتورق لا يريد السلعة، ومعنى ذلك أنه لا ينتفع بها بحال، لا بالاستهلاك ولا بالاستثمار، وإنما هي ذريعة لتحصيل النقد؛ فإذا انتفت منفعة السلعة، بقيت الزيادة للأجل التي تحملها المتورق دون مقابل، ومن ثم انتفى الفرق بين البيع وبين الربا الذي أثبته القرآن. بل إن التورق يصبح أسوأ من الربا؛ لأنه يتضمن تكاليف البيع والشراء والقبض والحيازة، وهذه لا توجد في الربا، وهذا ما أدركه الإمام ابن تيمية رحمه الله حين قال: «المعنى الذي لأجله حرم الربا موجود فيها بعينه، مع زيادة الكلفة بشراء السلعة وبيعها والخسارة فيها؛ فالشريعة لا تحرم الضرر الأدنى وتبيح ما هو أعلى منه»(١٢).

وهذا المعيار ينطبق على جميع

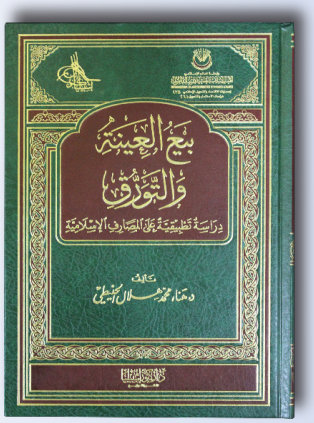

في هذا الكتاب:

- الحديث عن الحيل وأقسامها وأحكامها في الشريعة
- بيع العينة: أحكامه وتطبيقاته
- التورق: أحكامه وتطبيقاته
- التورق المصرفي المنظم: حكمه وصوره
- أثر التوسع في التورق على مستقبل المصارف الإسلامية
- أثر التورق في غرق المجتمعات الإسلامية في المديونيات

الحيل الربوية التي تتخذ من البيع ستارا وذريعة لتحصيل النقد مقابل زيادة في الذمة، كالعينة الثنائية وغيرها. فهذه الحيل تمنع من تحقيق منفعة التبادل الحقيقي، ومن ثم لا يوجد فيها ما يجبر الزيادة في الثمن مقابل الأجل، بل تكون نتيجتها دينا في الذمة أكثر من النقد المقبوض، وهذه حقيقة الربا كما سبق. ولهذا السبب لا يستطيع من يجيز هذه الحيل أن يرد على شبهة المشركين، وأن يبين الفرق بين البيع والربا، بل الغالب أنهم يرون أن الفرق بينهما تعبدي غير معقول العلة، ولهذا السبب نجد كثيرا من الفقهاء يرون أن تحريم العينة جاء على خلاف القياس. أي أن القياس والعقل يقتضي جواز العينة، لكن النص جاء بتحريمها(١٣). وهذا المنطق يعني أنه لا يوجد فرق حقيقي واقتصادي بين البيع والربا، بل هو فرق تعبدي محض. وهذه نتيجة غير مقبولة قطعا، لأن الشريعة أنزلها أحكم الحاكمين، وجاءت لتحقيق مصالح العباد، كما سبق.

وظيفة التمويل في الاقتصاد

مقصد الشرع من ربط التمويل بالتبادل هو أن يكون التمويل تابعا للمبادلات الاقتصادية، أما التورق وسائر صور العينة فهي على النقيض من ذلك، تجعل المبادلات تابعة للتمويل، وهذا مع مناقضته لحكمة التشريع، فهو مناقض للمنطق الاقتصادي؛ لأن تكلفة التمويل لا يمكن الوفاء بها إلا من خلال النشاط الاقتصادي الفعلي، والمفترض أن هذا النشاط يتم من خلال المبادلات والمعاملات المشروعة؛ فإذا انعكس الوضع وصار النشاط الاقتصادي خادما للتمويل، انعكس الهدف من النشاط الاقتصادي أصلا، فبدلا من أن يكون سببا بتحقيق الرفاه والرخاء، صار مسخرا لسداد تكاليف التمويل وخدمة الديون؛ فيصبح التمويل نزيفا في جسم الاقتصاد لمصلحة أصحاب المال، تماما كما هو الحال في النظام الربوي.

الفرق بين التاجر والمتورق

يحتج البعض بأن المتورق شأنه شأن التاجر، فكما أن التاجر يشتري ويبيع لتحصيل النقد، فكذلك المتورق ولا فرق. وهذا الموقف يعكس الغفلة عن طبيعة النشاط الاقتصادي الذي يهدف إليه كل من التاجر والمتورق؛ فالتاجر يقصد من الشراء والبيع الربح، أي أن يكون ثمن البيع أعلى من ثمن الشراء، وهذه حقيقة التجارة، لكن المتورق يقصد العكس بالضبط: فهو يشتري بثمن آجل مرتفع ليبيع بثمن نقدي أقل؛ أي أن المتورق هدفه الخسارة، فكيف يقارن بالتاجر الذي يهدف للربح؟ والتاجر يبيع ليربح، سواء أكان الثمن حاضرا أم مؤجلا، فلا يقال إن هدفه النقد، بل هدفه الربح، أما المتورق فهو يبيع ليحصل على النقد الحاضر، ولو عرض عليه ثمن مؤجل أعلى من الثمن الذي اشترى به السلعة لرفض بيعها به؛ لأنه يبحث عن السيولة، وليس باحثا عن الربح، ولا يمكن الحصول على السيولة إلا بتكلفة تعادل خسارته في بيع السلعة.

تكلفة السيولة

يجيب البعض عما سبق بأن خسارة المتورق في بيع السلعة هي مقابل السيولة، فليست خسارة حقيقية، والأجل له قسط من الثمن كما هو معلوم، فما المانع من تحمل هذه التكلفة مقابل السيولة؟ ولبالغ الأسف فإن الذي تَقَوّل هذا القول غفل عن أن هذا التعليل هو عين التعليل الذي يحتج به من يدافع عن الفائدة الربوية؛ فالفائدة في نظر المدافعين عنها هي ثمن السيولة الحاضرة، فإذا كانت هذه التكلفة مقبولة شرعا، لزم من ذلك جواز الربا، ولذلك يرى هؤلاء أن تحريم الربا هو أيضا أمر تعبدي غير معقول المعنى، وهذا تصور باطل قطعا لا يمكن أن يقوله من يعرف حقيقة الربا وأضراره الاقتصادية.

وهناك فرق جوهري بين تكلفة السيولة وبين اعتبار الزمن في الثمن الذي ذكره الفقهاء، فتكلفة السيولة يراد بها الزيادة في الدين مقابل نقد حاضر؛ فإذا اقترض الشخص (١٠٠نقدا) مقابل (١٢٠ في الذمة)، كانت تكلفة السيولة فائدة تعادل (٢٠٪)، ولكن هذه الفائدة زيادة في الدين لا يقابلها ما ينتفع به المدين، كما سبق، وتؤدي إلى استفحال المديونية والاستيلاء على ثروة المدين، ولهذا حرمها الشرع لأنها من الظلم، أما اعتبار الأجل في الثمن الذي ذكره الفقهاء فهو زيادة الثمن في البيع، وليس في مبادلة نقد بنقد.

وقد سبق أن زيادة الثمن للأجل في البيع تجبرها منفعة البيع، وهذه المنفعة منتفية في القرض، ولهذا منعت في الثاني، وأجيزت في الأول؛ لكن الغفلة عن هذا الفرق المهم أوقعت في هذا المزلق، والشرع لم يهدر قيمة السيولة ولم ينكر أهميتها، ولذلك شرع بيع السلم. أما الربا فهو وإن حقق السيولة مؤقتا، لكنه يحققها من خلال الظلم الواقع على المدين، وشغل ذمته دون مقابل، ويكون مآل ذلك هو تركز الثروة لدى الدائنين، ومن ثم تقلص السيولة من الاقتصاد. فالربا يناقض أصل الهدف الذي وجد له الاقتراض ابتداء، وهو توفير السيولة.

الهوامش:

(١) الجامع لأحكام القرآن،٣/٣٦٤.
(٢) الوسيط شرح القانون المدني، ٢/٨٢٢.
(٣) باختصار عن: money changers.p ١٠٤.
(٤) انظر: تفسير آيات الربا، سيد قطب، ص١٦، ٤٠، ومقال: «الجذور الاقتصادية للحرب على العراق» للكاتب.
(٥) انظر تفسير المنار، ٣/١١٤.
(٦) انظر: بيان الدليل في بطلان التحليل، لابن تيمية، ص٨٤-٨٥، مصرف التنمية الإسلامي، رفيق المصري، ص١٣١-١٣٤.
(٧) رواه أحمد. صحيح الجامع (٥٥٣١).
(٨) انظر بحث الكاتب: «موقف الشريعة الإسلامية من الدين».
(٩) رواهما مسلم وأحمد. صحيح الجامع (٢٧٥١)، (٥٠٩٠).
(١٠) انظر بحث: «عقد الكالئ بالكالئ» للكاتب.
(١١) انظر بحث الكاتب: «التورق والتورق المنظم: دراسة تأصيلية».
(١٢) إعلام الموقعين ٥/٨٦-٨٧.
(١٣) انظر: الأم ٣/٣٨-٣٩، الإنصاف ٤/٣٣٥، تكملة المجموع شرح المهذب١٠/١٤٥.

عقد الضمان في الفقه الإسلامي

د. صالح سالم النهام
دكتوراه في الشريعة الإسلامية

لا شك أن من عقود التوثيقات أو التأمينات عقد الضمان، ومثله عقد الحوالة، وأن بين هذين العقدين وجه شبه واختلاف؛ فأما وجه الشبه: فإنهما يجريان في الديون، وأما وجه الاختلاف: فإن عقد الضمان كما أنه يجري في الديون، فإنه يجري أيضا في: ضمان النفس أو العين. وأن حكم الضمان: الجواز والندب؛ وذلك لحفظ الحقوق.. والضامن والكفيل والزعيم؛ بمعنى واحد عند جمهور الفقهاء، لقوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾(يوسف:٧٢)، وقد قال ابن عباس: الزعيم، هو: الكفيل.

التعريف بالعقد

العقد لغة: مصدر عقد الشيء يعقده عقدا وتعاقدا، فانعقد وتعقد، إذا شده، فانشد، فهو نقيض الحل، وهو في الأصل للحبل ونحوه من المحسوسات، ثم أطلق في أنواع العقود من البيوع والمواثيق وغيرها.

العقد اصطلاحا: هو مرتبط ارتباطا وثيقا بمعناه اللغوي، وله تعريف خاص وعام، أما الخاص: فهو ارتباط إيجاب بقبول على وجه مشروع يثبت أثره في محله. وأما العام: فهو ما ألزم به المرء نفسه، ولا يشترط في هذا التعريف وجود طرفين في العقد، وقد ذكر صاحب الفروق: أن تعريف العقد: كل تصرف ينشأ عنه حكم شرعي.

التعريف بالضمان

الضمان لغة: الالتزام، وقيل: هو من الضِمن؛ لأن الذمة من ضِمْنِ البدن.

الضمان اصطلاحا: يعتبر الفقهاء أن عقد الضمان وعقد الكفالة لفظان مترادفان يراد بهما الالتزام بحق ثابت في ذمة غيره، وهو ضمان الدين، أو بإحضار من هو عليه، وهو ضمان النفس أو الوجه، أو بتسليم عين مضمونة، وهو ضمان العين، فالضمان إذن: ضم ذمة الضامن إلى ذمة المضمون عنه في المطالبة بنفس أو دين أو عين.

أركان الضمان

الركن الأول: الضامن أو الكفيل، ويشترط فيه ما يلي:

١- أن يكون عاقلا بالغا.

٢- ألّا يكون محجورا عليه لسفه، ولا يصح منه أن يضمن غيره.

٣- ألّا تكون امرأة متزوجة إذا أرادت أن تضمن في مقدار يزيد على ثلث مالها بغير إذن زوجها.

٤- ألّا يكون مريضا مرض موت، فلا يجوز له أن يضمن بأكثر من ثلث ماله.

٥- ألّا يكون الضامن عليه دين يستغرق كل ماله.

٦- ألّا يكون مكرها على الضمان.

الركن الثاني: المضمون له، وهو صاحب الحق، ويشترط فيه ما يلي:

١- أن يكون معروفا للضامن؛ لتفاوت الناس في المطالبة شدة ولينا، فلا يصح ضمان المجهول.

٢ - لا يشترط رضا المضمون له؛ لأن الضامن لا يضره؛ إذ هو التزام يزيد دينه تأكيدا.

الركن الثالث: المضمون عنه، وهو المدين، ويشترط فيه ما يلي:

أن يكون معلوما، فلا يصح ضمان المجهول إذا كان الضمان في المستقبل، فإذا قال شخص لآخر: ضمنت لك ما تبيعه للناس بالدين، فإن الضمان لا يصح.

الركن الرابع: المضمون به، وهو الدين أو العين أو النفس، ويشترط فيه ما يلي:

١- أن يكون الدين لازما أو آيلا إلى اللزوم، كالثمن في زمن الخيار آيلا للزوم، وكالقرض، وثمن المبيع في مدة الخيار، ولا يصح الضمان بالدين غير اللازم، كدين الكتابة؛ لأن المكاتب له أن ينقض العقد ويمتنع عن الأداء.

٢- أن يكون الدين معلوما قدرا وجنسا، كأن يقول الضامن: ضمنت لك ما على زيد من دينه، وقدره ألف دينار، وإلا لا يصح الضمان.

٣- يشترط لصحة ضمان العين، أن تكون مضمونة على من هي في يده، كالعين المغصوبة، والعين المستعارة، عند جمهور العلماء، وضمان العين وضمان الأعيان أن تكون مضمونة بردها إن كانت قائمة، أو رد قيمتها عند تلفها.

٤- يشترط لصحة ضمان النفس أن يكون على المضمون ببدنه حق لآدمي، أو عقوبة، وألا يكون حدا أو قصاصا.

الركن الخامس: الصيغة، وهي كل ما يفيد التعهد والضمان، كقول الضامن: كفلت أو تحملت، وأنا بذلك المال زعيم، أو حميل، أو غريم، أو دين فلان عليّ، أو إحضار فلان عليّ، أو نحو ذلك.

دليل مشروعية الضمان

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: توفي رجل فغسلناه وكفناه وحنطناه، ثم أتينا به رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقلنا: تصلي عليه؟ فخطا خطوة، ثم قال: «أعليه دين؟» قلنا: ديناران، فانصرف، فتحملهما أبوقتادة، فأتيناه، فقال: أبوقتادة: الديناران عليّ، فقال رسول الله ﷺ: «قد أوفى اللهُ حقّ الغريم، وبرئ منهما الميت؟» قال: نعم، فصلى عليه، ثم قال بعد ذلك بيومين: «ما فعل الديناران؟» قلت: إنما مات أمس، قال: فعاد إليه من الغد فقال: تضمنتها يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «الآن بردت جلدته»أخرجه أحمد في مسنده بإسناد حسن: (١٤٥٩٠)، وصححه الحاكم في المستدرك: (٢٣٤٦)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب واللفظ له: (٢٧٩١).

فقوله «حق الغريم»: أي حقّ عليك الحق، وثبت عليك الغُرْمُ، وكنت غريما.

المعنى العام للحديث

كان رسول الله في أول الإسلام قبل أن يصلي على مسلم يسأل، هل عليه دين؟ فإن قالوا نعم: لم يصل عليه، إلا إذا قام أحد من المسلمين يضمن هذا الدين، فإذا ضمنه أحد، صلى عليه رسول الله ﷺ، ولم يكن يسأل عن شيء من عمل المتوفى، وإنما كان يسأل عن دينه.

الأحكام التي تؤخذ من الحديث

● جواز تحمل الواجب من غير الواجب عليه، كتحمل أبي قتادة دين الميت، ولابد من أداء الدين لكي ينفع الميت، وأنه ينفعه ذلك لشدة أمر الدَّين؛ لأن رسول الله ترك الصلاة لمن عليه دين؛ لأن صلاة رسول الله ﷺ شفاعة، وشفاعته مقبولة، والدَّين لا يسقط إلا بالتأدية.

● رفع العذاب عن الميت، لابد من الأداء، ويكون بالقضاء عنه، ولهذا قيل: تتم براءة المدين من وقت السداد لا من وقت الضمان، ولذلك سارع رسول الله ﷺ إلى سؤال أبي قتادة عن القضاء، فقال: قد قضيتهما يا رسول الله، فقال رسول الله: «الآن بردت جلدته».

● يستحب للإمام أو لولي أمر المسلمين أن يحض على السداد كل من ضمن دين ميت على الإسراع في القضاء، ويستحب كذلك لسائر المسلمين؛ لأنه من أعمال الخير، لحديث: «ما من مسلم فك رهان أخيه إلا فك الله رهانه يوم القيامة» (أخرجه البيهقي: (١١٧٣١).

● أن الضمان والكفالة عن الميت صحيحة، ويلزم الضامن والكفيل ما ضمن به، سواء كان الميت غنيا، أو فقيرا، ولا رجوع في مال الميت، وبهذا قال: الجمهور، إلا أن المالكية قد أجازوا الرجوع، إن كان له مال، والحنفية اشترطوا لصحة الضمان والكفالة أن يترك الميت وفاء دينه.

● بعد الفتح قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه دين فعليّ قضاؤه» أخرجه مسلم:(١٦١٩)، وعلى ذلك قام رسول الله ﷺ بقضاء دين كل ميت سواء من مال رسول الله ﷺ أو من مال المصالح، والحديث نسخ حديث الباب، وتحمل رسول الله ﷺ الديون بعد عام الفتح.. وعن سليمان قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نفدي سبايا المسلمين، ونعطي سائلهم، ثم قال رسول الله ﷺ: «من ترك مالا فلورثته، ومن ترك دينا فعليّ وعلى الولاة من بعدي في بيت مال المسلمين»(أخرجه الطبراني في الكبير:(٥٩٧٤).

وقول النبي ﷺ «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم»؛ يعني: في كل شيء؛ لأني الخليفة الأكبر الممد لكل موجود، فحكمي عليهم أنفذ من حكمهم على أنفسهم، وهذا قاله لما نزلت الآية، فمن توفي -بالبناء للمجهول-؛ أي: مات من المؤمنين فترك عليه دينا فعلي قضاؤه، مما يفيء الله به من غنيمة وصدقة، وهذا ناسخ لتركه الصلاة على من مات وعليه دين(١).

أقوال العلماء في الحكمة من ترك النبي ﷺ الصلاة على المدين:

١- ذكر أهل العلم أنه: إنما ترك النبي ﷺ الصلاة على المدين الذي لم يترك وفاء؛ زجرا للناس عن المماطلة، والتساهل في الاستدانة(٢).

٢- وضح الإمام ابن حجر الأمر، فقال في شرحه لصحيح البخاري: يقول العلماء: كأن الذي فعله ﷺ من ترك الصلاة على من عليه دين؛ ليحرض الناس على قضاء الديون في حياتهم، والتوصل إلى البراءة منها، لئلا تفوتهم صلاة النبي ﷺ، وهل كانت صلاته على من عليه دين محرمة أو جائزة؟ وفي هذا وجهان: قال النووي: الصواب الجزم بجوازه مع وجود الضامن، كما في حديث مسلم.

٣- حكى القرطبي: أنه ربما كان يمتنع من الصلاة على من استدان دينا غير جائز، وأما من استدان لأمر هو جائز فما كان يمتنع... ثم يضيف ابن حجر قائلا: وفي صلاته ﷺ على من عليه دين بعد أن فتح الله عليه الفتوح إشعار بأنه كان يقضيه من مال المصالح، وقيل: بل كان يقضيه من خالص نفسه(٣).

٤- قال القاضي عياض: تأول ترك الصلاة بأنه تداينه في غير مباح، وقيل: فيمن تداين عالما أن ذمته لا تفي بدينه، وقيل: هذا كان في بدء الإسلام، ثم نسخ حين فتحت الفتوحات، وصار لكل من المسلمين حق في بيت المال، وفرض لهم فيه سهم الغارمين، ويدل عليه الحديث، وقيل: فعله تأديبا للمدينين؛ ليقلوا من الدين، ويجتهدوا في خلاص ما تداينوا، خوف أن تذهب أموال الناس(٤).

٥- قال ابن بطال: قوله: «من ترك دينا فعلي» ناسخ لترك الصلاة على من مات وعليه دين، وقوله: «فعلي قضاؤه»؛ أي: مما يفيء الله عليه من الغنائم والصدقات(٥).

كما يقول الحافظ المنذري: قد صح عن النبي ﷺ أنه كان لا يصلي على المدين، ثم نسخ ذلك(٦).

الهوامش:

١- انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، للإمام المناوي:(ص:٧٦٦).
٢- انظر: الناسخ والمنسوخ من الحديث، أبوحفص عمر بن شاهين، تحقيق: د.محمد إبراهيم الحفناوي، هامش: (ص:٣١٤).
٣- انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرين: (٤/ ٥٥٨).
٤-انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، تحقيق: عادل عبدالموجود وعلي معوض: (٦/ ٢٥١٤).
٥- انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرين: (٤/ ٥٥٨).
٦- انظر: صحيح الترغيب والترهيب، الألباني: (٢/ ١٦٨).

لتحيا الحياة

صبحة بغورة
كاتبة جزائرية

من الطبيعي جدا أن يحب كل إنسان لنفسه كل الخير، وأن يحب أيضا كل ما يجلب له الخير، وأن يحرص كذلك أشد الحرص على امتلاك ما يحقق له السعادة وأسباب الهناء، وأن يتعلق بيديه وأسنانه بما يأمل من ورائه ضمان الأمن والسلامة، بل ويهرول في كل اتجاه- -غير مبال بحر الصيف وبرد ورياح الشتاء- وراء ما يحقق له الراحة والرفاهية.

ولا يخامرني أدنى شك في أن ذات الإنسان عزيزة وغالية على النفس، فالسلامة من الإصابات مثلا سبب كاف للتراجع عن المخاطرة والمغامرة.. فقد لا يخلو الأمر من الجروح الدامية، التي وإن لم تكن غائرة فإنها ستترك على الأقل آثارا وندوبا، قد لا يكون مرغوبا فيها لدى من ينظرون طويلا إلى أنفسهم في المرآة، أو قد تكون الإصابات كسورا لا تعيد كفاءة العضو المكسور إلى سابق عهده.. فلا ذراع يقوى على ما تشتهيه النفس، ولا السير في أرض الله الواسعة سيكون مريحا، إذ ستتحول الخطوة الرشيقة أو المشي في خيلاء إلى صورة، كمن يرسم في الأرض نقطة وفاصلة، عافاكم الله من كل مكروه.

إن حب الإنسان لذاته ليس عيبا، ومن مظاهر ذلك المسارعة للوقاية من الأمراض، والعلاج من ما يصيبه منها بكل الوسائل وبجميع الطرق، وأعرف الكثيرين ممن يخفون حقيقة مرضهم أو حالتهم الصحية اعتزازا وترفعا.. فتراهم يهونون أمر علتهم لتجنب نظرات الشفقة وعبارات المواساة، وطبيعي أن يكره الإنسان أن يساء إليه، سواء إلى شخصه أو إلى ذاته أو سمعته وكرامته أو حتى مهنته، والعاقل من يتجنب مواضع الذل، ويتفادى كل ما يشينه.

وبرغم كل ما سبق فإني لا أفهم لماذا يصر الناس على الحلف والقسم ببعض أعضاء الذات الإنسانية كي يظهروا صادقين في قولهم؟ فيعبرون عن وفائهم لعهودهم والتزاماتهم بالقول «على عيني»، كما لا يتردد أحدهم بتكبير مقام شخص ما بالقول «على راسي من فوق»، وقد يتوعد آخر نفسه بالعقاب إن كان من الكاذبين «أقطع يدي»، «أو انشا الله اتعمى» أو «يتقطع لساني لو..»، «هاي ودني لو ربح»!!،

أعلم أن هذه التعبيرات جزافية، لكن ماذا لو وضعتنا الظروف موضع اختيار حقيقي، أي ماذا لو لم تسر الأمور كما كنا نظن أو نتوقع، هل يجرؤ أحدهم فعلا على تنفيذ ما توعد به نفسه؟ حقا لا أصدق ذلك، فلماذا إذن تستعمل هذه العبارات التهويلية؟

إن محاولة تفسير ذلك يضعنا أمام فرضية «عدم الثقة في النفس»، وهذا الشعور هو نتاج اهتزاز الشخصية والإحساس بالدونية، حيث يستشعر الإنسان دائما أنه محل شك الآخرين، لا يصدقه أحد، ولا يعبأ به إنسان، وتصرفاته غير موثوق بها.. أو أنه كاذب فعلا، ولذا يحيط كذبه بهالة من الحلف والوعود ليكون محل تصديق.. والغريب أن الأمر قد يتعلق بمسائل بسيطة أو في غاية السذاجة والسطحية، لا تتطلب كل هذه العبارات التي أراها بحق تشين المتحدث بها، وتقلل من شأنه، وتحط من وقاره واحترامه في نظر الآخرين.

من أخطر القضايا التي تدفعني لطرحها في هذا المقام قضية «تدمير الذات»، ليس بالقول وإنما بالفعل، ومع سبق الإصرار على المضي في طريق الموت، وأقصد قضية تناول المخدرات، التي لا يعني تناولها سوى اختصار سنوات الحياة نحو الهلاك المشين، شيخوخة مبكرة، هلاك الأنسجة، دمار الخلايا، تفكك المفاصل، تراخي العضلات، وعزة النفس في الحضيض، وفوق كل ذلك استعداد نفسي كامل للتنازل عن كل شيء.

مقابل لحظة غياب عن الوعي، والخروج من واقع الحياة إلى عوالم من الأوهام والخيالات والمرايا الكاذبة.. هل الاشتياق للمتع معناه تعريض ذات الإنسان وصحته للموت الحتمي والبطيء؟ كيف نفسر إرادة الخروج من دائرة السعادة الحقيقية، التي عمادها الصحة الجيدة والسلامة الجسدية، إلى سجن المخدرات وأسر الإدمان الهدام، الذي قضبانه حاجز حقيقي بينه وبين الحياة؟!

بل يذهب بعض ضعاف النفوس، عديمي الإرادة والشكيمة، إلى ما هو أبعد من كل ذلك، إنهم يعلنون عدم رغبتهم في الاستمرار في الحياة، والتخلي عن أداء الرسالة بالانتحار، إنهم يضعون حدا لمسيرتهم في الدنيا لمجرد أن بعض المشاكل اعترضتهم، واستعصى حلها بعض الوقت، ليس هناك مشكلة دون حل.. لا، بل عشرات الحلول، فالتعقل والصبر يهديان إلى الكثير، وفوق ذلك الإيمان والتصديق بأن بعد العسر يسرا .

الفطرة: خرائط المفهوم.. وبناء المستقبل

د.هبة رءوف عزت
باحثة أكاديمية

يعد مفهوم «الفطرة» من المفاهيم الأصيلة في التراث الإسلامي، لجهة استخدامه في عدد كبير من النصوص الشرعية من كتاب وسنة، أو لجهة استعماله في نصوص التراث الإسلامي في سياق الحجاج والاستدلال والإثبات.

إن المتتبع لمدلولات هذا الجذر الثلاثي «ف ط ر» ليلحظ بوضوح أثر التطور الدلالي الذي طرأ على أصل مدلوله، ومدى تأثره بالمعاني المستمدة من نصوص الشرع ثم التراث الإسلامي.

فالفطر: بالفتح، الشق، وقد قيده بعض اللغويين بالشق الأول، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ (سورة الملك: ٣)، وقوله ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ (سورة الانفطار:١) أي انشقت، والفطرة: الابتداء والاختراع والخلق، ففطر الله الخلق: خلقهم وبدأهم.

لقول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول أبوهريرة واقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾» (صحيح مسلم: كتاب القدر).

و ابتداء الخلق في التصور الإسلامي مقترن بنهاية الإنسان ومآله، ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢﴾(يس:٢٢).

كما نجد أن الفطرة تقترن في التصور الاسلامي بالوحدانية والدين، فالدين فطرة، والشهادة الأولى التي أخذها الله من ذرية بني آدم مغروسة فيها، لكن الوعي بها يتأثر بالبيئة والتنشئة والمجتمع، وهنا تصبح الفطرة قرينة التصور الإسلامي للبراءة الأولى للنفس عند الميلاد في مقابل فكرة الخطيئة الأولى في الخطاب المسيحي تاريخيا من جهة، وقرينة توحيد الله أصلا في فطرة الإنسان بشهادة التوحيد التي كانت في الأزل.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ (الروم: ٣٠).

كما تلفتنا الآيات القرآنية لاقتران الفطرة الإنسانية بخلق السموات والأرض، فالله هو الفاطر وسنن الأنفس والآفاق تتقاطع:

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ (الأنعام: ٧) ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الأنعام: ١٤).

وتبدو الفطرة التي فطر الله الناس عليها مصدرا للهداية وبوصلة للحق أودعها الله في قلوب العباد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾ (الزخرف: ٢٧)، ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦﴾ (الأنبياء: ٥٦)

بل تبدو مستعصية -حين يكون الإيمان هو النور الذي يحمل الإنسان في مسيرة الحياة- على أن تتقبل البغي أو ترضى بالطغيان، فنتأمل قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢﴾ (طه: ٧٢) ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١﴾ (هود: ٥١) ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الإسراء: ٥١).

والنظر في الفطرة جامع ومانع،

جامع للذكر والأنثى، لكنه يميزهما عن الجان والملائكة، ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾.

والفطرة مكون من رباعية مفاهيمية للأمانة والخلافة الإنسانية التي يحاسب الله عنها العباد يوم القيامة، والتي يكشفها النظر في كتاب الله، تلك الرباعية هي: الفطرة، والعقل، والوحي، ثم السنن التي يدركها الإنسان بالسير والنظر.

وعلى ذلك، فإن الفكر الإسلامي يحتاج لإعادة النظر في مفهوم «سنن الفطرة» الذي اقتصر على ما يتعلق بالجسد من عناية وحق للبدن، ليخرج بفهم الفطرة لأفق فهم آيات النفس الإنسانية في تفردها.. وفي اجتماعها وعمرانها.

وهنا يلعب القصص القرآني دورا مهما، ويصبح البحث في مفردات: الإنسان- الأمة- القوم- المدينة- بني آدم- الناس- البشرية.. وما يتعلق بها من خصائص يتناولها القرآن شديدة الصلة بالبحث في الفطرة.

ويتقاطع هذا البحث في الفطرة مع جدل عريض احتل مساحة معتبرة في الفكر الإنساني عن الطبيعة البشرية، وما ارتبط بذلك من نظريات الدولة وطبيعة المجتمع، فمن ذهب إلى أن الطبيعة البشرية تقوم على الصلاح والخيرية، قدم نظريات للمجتمع تقوم على إطلاق حركته وتأكيد دوره وفاعليته في مقابل سلطة محدودة الحجم والأدوار، ومن ذهب إلى أن نوازع الشر هي الغالبة، منح سلطة أكبر للحكومة في مواجهة الفرد والمجتمع، واعتبر الدولة هي التي تحفظ المصالح والمقاصد. نجد ذلك في الفكر اليوناني في اعتبار المدينة شرط اكتمال الإنسانية، فالفطرة الفردية لا تقيم حضارة ولا تحفظ إنسانية، في حين جادل ابن طفيل ومن بعده ابن سينا في أولية الفردية، والانفراد في نقاشهم حول نموذج الإنسان المنفرد في حي بن يقظان. هذا الجدل نفسه هو ما صاغ نظريات الخلافة والعمران في التاريخ الفكري، فمن رأى الوازع السلطاني هو ضمان تطبيق الشرع، توسع في سلطان الحاكم وتحفظ على الخروج عليه، ومن وجد أن الأمة هي الحافظة، والوازع الديني هو الأسبق كبعض المعتزلة، قدم من الأفكار ما يقدم الجماعة على السلطان، وهكذا.

ويبدو مفهوم الفطرة أيضا متقاطعا مع مفهوم الإنسانية والبشرية الأوسع، وجل النظريات التي تحدثت عن القانون الطبيعي والمواطنة العالمية من المدرسة الرواقية التي بزغت بعد سقوط دولة أثينا مرورا بفكر الفارابي عن المعمورة الفاضلة وصولا لأفكار الكوزموبوليتانية والعولمة الحديثة تدور حول مشترك إنساني، ومفهوم الفطرة هنا يسهم في هذا النقاش باعتبار مصدره الديني واستصحابه معاني ومعالم التوحيد.

وإن شئنا العودة إلى ابن خلدون مرة أخرى في مقولته العميقة: «اعلم أن حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال».

فإننا سنحتاج مفهوم الفطرة في الكشف عما يصيب النفس الإنسانية حال التأنس والتوحش، وكيف يمكن استنقاذ الفطرة حين يسود التوحش كي يمكن رد الإنسان -الفرد والجماعة- إلى التأنس مرة أخرى.. وإحياء الفطرة السوية لتعلو فوق النزعات اللاإنسانية في وقت النزاعات، وإدراك أن قواعد الشرع المنظمة لذلك غايتها ليس فقط حفظ المقاصد الكلية، بل كذلك حفظ الفطرة الإنسانية من السقوط وقت الحروب والتنازع، وبذلك يدخل المفهوم في فهم فقه الجهاد، وفي فهم مقومات وأصول الدعوة لهذا الدين.

لقد كتبت الدكتورة عائشة عبدالرحمن نصا فريدا بعنوان: مقال عن الإنسان، وكثر حديث الشيخ محمد الغزالي في خطبه وكتاباته عن «الرهان على الفطرة»، ونجد الكثير من ذلك مبثوثا في دستور الأخلاق لدى المسلمين في كتابات عبدالله دراز ثم في كتابات فريد الأنصاري، لكن تحرير تلك الرؤية من الكتابات التي تحمل اسمها ليتحول لمفهوم نظري وتوليدي فاعل في شتى القضايا المطروحة اليوم على العقل المسلم سيكون نقلة نوعية ليس فقط في تحليل القضايا الراهنة، بل في إعادة قراءة الفقه ووعي الفقهاء بهذا المفهوم في مساراتهم الاجتهادية وموازين المصالح والمفاسد.

لقد آن الأوان لمفهوم الفطرة- ذلك المفهوم الذي يربط شهادة الأزل بمسار التوحيد والهداية والرشد في هذه الدنيا، ويؤسس لمعايير المحاسبة في الآخرة- أن يغدو المفهوم القاطرة للفكر الإسلامي ومساهماته في الجدل الراهن بشأن قضايا الإنسان، كما يمكن أن يكون القاعدة الصلبة للمشروع الإسلامي والدعوة الإسلامية في مرحلة التجديد الراهنة نحو أفق مستقبلي للإسلام ورسالته كرحمة للعالمين.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (١٧)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

الرأي المُحْصد عند ذوي اللب والحُنْكة، أن اللغة - أي لغة - هي خلاصة العبقرية التي تعبر عن نظرة المتكلمين للواقع المعيش في أدق تجلياته بما يضمن الإحاطة بكل أشياء الحياة؛ مع رفع اللبس وإزالة الخلط والاشتباه. وتعد اللغة العربية الفصحى - بلا امتراء - الغرة الشادخة في هذا الشأن، ليس فقط بالنسبة إلى الأمة العربية، التي توحِّدها الأبعاد الحضارية والثقافية والعاطفية والاجتماعية، ولكن بالنسبة أيضا إلى الأمة الإسلامية؛ لأنها اللغة الوحيدة التي تضيف لدنيا المسلمين حبل الاتصال والتواصل مع رب العالمين في أثناء الصلاة عبر تلاوة القرآن الكريم، لذلك فإن اللغة العربية الفصحى بقواعدها الصرفية والنحوية والإملائية، وببلاغتها البعيدة المصعد في انتقاء واستفراء العبارات وتنضيد الألفاظ، ضمانا لحسن مظهرها وبديع رصفها وجودة تنسيقها «لا تعدو كونها تحديدات نسبية إيجابية، لاغرو تقرب من القرآن، ولكن لا تقنِّنه، لأن القرآن العظيم مطلق، والمطلق لا يُقنن من خارجه... فالقرآن يقول عن كل شيء بما في ذلك اللغة، وعلى اللغة التفهم بالرد إليه، وليس إلى ذاتها»(١). إذا تقرر أن لغة القرآن العظيم منجم البراعة الذي عرَّب ألسنة المسلمين مشرقا ومغربا، شمالا وجنوبا؛ اهتداءً

بأنواره المتلألئة، وحكمه الخالدة، وبراهينه القاطعة، وعباراته الرائقة الشائقة، وألفاظه الدقيقة المستفرهة؛ فهي الباب المنتهج، والطريق المهيع، والروض الأريض، والماء العذب الرقراق الذي ينتفع به كل مسلم، بينما تبقى لغةُ الكتابِ البلغاء، والشعراء المفلقين مُجَرَّد لوْنٍ من ألوان الأطعمة والأشربة، كلما صادفت استحسانا وإعجابا من فئة، وجدت فيها فئة أخرى ذوقا مخالفا رغم حرصهم على البيان والتبيين والفهم والإفهام. ولذلك قال ابن وهب الكاتب في كتابه «البرهان في وجوه البيان»: للغة العربية التي نزل بها القرآن، وجاء بها عن رسول الله ﷺ البيان، وجوه وأحكام ومعان وأقسام، متى لم يقف عليها من يريد تفهم معانيها، واستنباط ما يدل عليه لفظها، لم يبلغ مراده، ولم يصل إلى بغيته. فمنها ما هو عام للسان العرب وغيرهم، ومنها ما هو خاص له دون غيره(٢). من أجل ذلك فإن اللغويين العرب القدامى والمحدثين، رغم أنهم تفرقوا إلى ثلاث طوائف: إحداها تثبت الترادف في اللغة، لأن الشيء الواحد عندهم يسمى بأسماء مختلفة، مثل الأسماء الآتية التي يطلقونها على الذئب وهي: السِّرحان، والأطلس، والسِّيد، والعَمَلَّس، والشَيْذَمَان، والنهشل، والأوْس، وغيرها مما يرهق تتبعه ويتعب. بينما ترى الفرقة الأخرى أن الترادف الذي يتطابق فيه المعنيان من دون تفاوت شيءٍ قليلٌ في اللغة، ولذلك سموا هذا النوع من الألفاظ شبه الترادف مثل: أسماء وصفات الحجر والعسل والسيف والمطر، ناهيك عن الكلمات المبدلة بعضها من بعض مثل: «هطل وهتن وهتل» و«غلط وغلت».أما الفرقة الأخيرة فترى أن الترادف في اللغة معدوم، لا يمكن أن يعبر بلفظ واحد عن لفظ آخر يؤدي معناه تاما. وعلى الرغم من الاختلاف بين اللغويين العرب؛ فإنهم انتهوا أكتعين إلى أن الترادف غير موجود البتة في القرآن الكريم، لأنه تاج الفصحى وعمدة البيان والمنهل العذب الذي تذعن له الحُلوم، لا تبتغي عنه حولا، ولا تجد عنه مصرفا. لذلك فإن المنشئين الألفاف الذين جعلوا القرآن دَبْر آذانهم ونبذوه وراء ظهورهم، إنما استزلتهم الآراء الملهوجة التي يشيعها الأغتام اتباعا لأهوائهم وطعنا في الدين، وفي قدرة لغتنا العربية الفصحى على التعبير عن أدق الأشياء. تأمل هذه الدقة في التعبير بين كلمتي «الخشية والخوف» التي يعتقد كثير من قرائنا أنهما مترادفتان، حيث جمعهما القرآن في آية واحدة كما تجمع حبات الجلبان في سنيفها. قال تعالى من سورة الرعد آية ٢٣ ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، حيث إن الخشية صفة لا تكون إلا لعظمة المخشي منه، تقول العرب شجرة خَشِيَّة أي يابسة جَفتْ فيها أمواه الحياة، بينما الخوف درجة أقل، ولذلك قالوا: ضرع أخْيَف وأخوف إذا جف فيه اللبن. كما أن لفظتي: «الإتقان والإحكام»، من الألفاظ القرآنية التي يظن كثير من الشداة أنهما مترادفتان متساويتان في الدلالة، غير أنهما عند إنعام النظر في توظيف القرآن الكريم لهما متمايزتان على هذه الشاكلة: «الإتقان» من التَّقَن وهو الطين اللازب أسفل البئر أو الوادي، ترتق به الشقوق حتى تكتمل سلامة الشيء، ولذلك قال تعالى: من سورة النمل آية ٩٠: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾، بينما تعني لفظة: «الإحكام» الإيجاد التام من دون أمتٍ ولا عوَجٍ، ولذلك قال تعالى من سورة هود، آية ١: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ حيث نسب الإحكام للقرآن العظيم، لأنه أنزل محكما سليما من المغامز والمعايب. وقل الشيء ذاته بالنسبة إلى الألفاظ الآتية التي يظن الذين ليس لهم من البلاغة إلا ادعاؤها، ولا من الفصاحة إلا التحلي باسمها، أنها ألفاظ مترادفة مثل: «الختم والطبع» حيث إن «الختم» مرحلة أولى لانسداد الحواس عن إدراك وسماع الحق، بينما «الطبع» يزيد على الختم، كأن الحواس لا تسمع الحق ولا يصل إليها بعد أن أخلدت إلى الباطل، إنه بمثابة طبع السكة الذي يصبح فعلا لازما لها على الدوام. وكذلك «تمنى ورجا»، إذ التمني لا يستعمل إلا مع الرغائب التي يستحيل تحقيقها، ولذلك قال الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوما
لأخبره بما فعل المشيب

وكذلك «التلاوة والقراءة»، لأن التلاوة تقتضي الإتباع في تلفظ الكلمات، بينما القراءة لا توجب ذلك. وعلى هذا الحذو الألفاظ الآتية «الجوع والسغب» و«العطش والظمأ» و«المطر والغيث» و«الشكر والحمد» و«السر والنجوى» و«الحَرْد والقصد»، وهلم على ذلك مما يرهق تتبعه ويتعب. تأسيسا على هذه الدقة في العبارة القرآنية فإن عبارة «تلا الرجل اسمه» لا يقولها إلا مائق جهول بأسرار الفصحى، مفتقد للحس اللغوي العربي البليغ.

هذا ذَرْوٌ من آلاء عربية القرآن الكريم، وحتْرٌ من لمعاته التي لا يلقيها على السِّيف، وضعت زُفَرَهَا في الزِّفْر أهَيِّجُ بها المُزوَرِّينَ الناكبين عن سنن الفصاحة، أجعلها صوًى ومنارات تهديهم إلى أسرار البراعة القرآنية الذي فيه ذكرنا وعزتنا، ولكن أكثر الناس لا يفقهون!

الهوامش:

١ ـ مفهوم الترتيل في القرآن الكريم: النظرية والمنهج. د.أحمد عبادي. ص ١١٠. ط ١ . دار أبي رقراق. الرباط ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

٢ ـ نقد النثر. قدامة بن جعفر. ص ٤٤. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان . ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

الاعتذاريات النبوية بين عصرين من الشعر

محمد أبوالسعود الخياري
ناقد أدبي

يقف الاعتذار خلقا شامخا مميزا للعربي قبل الإسلام وبعده، يدل على ما يتمتع به صاحبه من شجاعة أدبية وتقدير الآخرين.. وإن كان انتشاره في الشعر العربي- لاسيما الجاهلي- ضعيفا؛ بسبب ما اكتنف الشخصية العربية من تعصب للقبيلة، واعتزاز بالنفس، كانا يحولان دون الاعتذار أو الاعتراف بالخطأ، بالإضافة إلى النظر إلى الاعتذار على أنه دليل ذلة وضعف شخصية، فأتى غرض الاعتذار في الشعر العربي قليلا عند مقارنته بغرض كالفخر.

ولاشك في أن الإسلام- بما حمل من مكارم الأخلاق، وبدعوته إلى الحفاظ على العلاقات الطيبة بين المسلمين، وبتأكيده على أن قوة الشخصية ليست في الانتصار لها كما الفهم الجاهلي، ولكن في الانتصار عليها- قد وضع أسس الفهم الذي يمهد ويشجع على ثقافة التسامح والاعتذار.

وفي اللغة تأتي مادة «عذر» في لسان العرب لتفيد معنى «العذر أو الحجة التي يعتذر بها، والجمع أعذار، يقال اعتذر فلان اعتذارا وعذرة ومعذرة من دينه فعذرته، وعذر يعذره فيما صنع عذرا وعذرة وعذرى ومعذرة، والاسم المعذرة»(١).

ويفهم من التعريف اللغوي أن المرء يشعر بذنب تجاه فعل صدر عنه، وتكون محاولة الاعتذار أو الاعتذار نفسه محاولة لتطهير النفس، والاستغفار من الذنب، وذلك بالتماس الحجة والمعذرة.

ونطالع في الذكر الحكيم تشجيعا على الاعتذار والاعتراف بالخطأ والذنب، وهي مفاهيم لمعنى التوبة التي جعلها الله تعالى من كنوز الحسنات التي تكون سببا في تبديل حال صاحبها من أهل المعصية إلى أهل الطاعة، ويكون تبديل السيئات حسنات هو المكافأة السخية، يقول تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ (الفرقان: ٧٠).

وجاء التوجيه النبوي الكريم للحث على فضيلة الاعتذار، بل والتحذير من رفض هذا الاعتذار وعدم قبوله:

روى الطبراني عن عائشة- رضي الله عنها- أن النبي ﷺ قال: «عفوا تعف نساؤكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم، ومن اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يقبل عذره لم يرد على الحوض».

النابغة رائد شعر الاعتذار

النابغة الذبياني من شعراء الجاهلية المعروفين، وإليه يرجع غرض الاعتذار في الشعر العربي، فهو رائده ومؤسسه، وكانت بداية ظهور شعر الاعتذار معه بكتابة قصيدته المعروفة التي مطلعها:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني
وتلك التي أهتم منها وأنصب

والتي كتبها للنعمان بن المنذر؛ معتذرا له وطالبا عفوه، وكان النابغة قد قضى فترة من حياته نديما للنعمان في بلاط المناذرة ومعه المنخل اليشكري.

حتى كانت قصيدة «المتجردة» زوج النعمان التي دخلت مجلسه فسقط لباس رأسها، فطلب النعمان من النابغة أن يصفها وكانت على قدر من الجمال، فقال قصيدة، من أبياتها:

أمن آل مية رائح أو مغتد
عجلان ذا زاد وغير مزود

فعلق المنخل اليشكري متهما صديقه تهمة مهلكة، حيث رماه بأنه على علاقة بـ«المتجردة» زوجة النعمان؛ لأن ما جاء به من أوصاف لها في القصيدة لا يمكن أن تكون وليدة الخيال، وهو ما عبر عنه المنخل بقوله: «والله ما قالها إلا مجرب».

فغضب النعمان، وأهدر دم النابغة الذبياني، فهرب الأخير إلى الغساسنة، ومن هناك بدأ بإرسال اعتذارياته للنعمان، وفي الوقت نفسه قدم غرضا جديدا في الشعر العربي هو شعر الاعتذار.

الاعتذاريات النبوية من الخاص إلى العام

في عصر صدر الإسلام ظهرت قصيدة كعب بن زهير التي كانت سعيدة الحظ بما صاحبها من ظروف، وبما نالته من جائزة تعد الجائزة الأكبر في التاريخ التي نالها عمل أدبي.. لقد نال كعب بن زهير بن أبي سلمى البردة النبوية بعدما قال قصيدته المعروفة:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم إثرها لم يفد مكبول

وكعب هو ابن زهير بن أبي سلمى صاحب المعلقة المعروفة التي مطلعها:

أمـــن أم أوفـــى دمـنـــة لـــم تكلم

بـحـــومـــانـــة الـــــدراج فـالـمـتـثـلـم

عاش في الجاهلية و أدرك الإسلام، ولذا فهو شاعر مخضرم.

مناسبة القصيدة

أرسل كعب أخاه بجيرا إلى النبي ﷺ في المدينة لاستطلاع الدين الجديد، بعدما استقر أمر الإسلام في المدينة، وذلك عام ٦٢٨م، ولكن بجيرا لم يستطلع الأمر فقط، بل دخل في الإسلام واستقر في المدينة، وهو ما أغضب كعبا ودعاه لكتابة أبيات من الهجاء تنال من أخيه، وتعرض بالنبي ﷺ يقول فيها:

ألا أبـلـغـا عـنـي بـجـيـرا رسـالـــة

فهل لك في ما قلت ويحك هل لكا

سـقـاك بـهـا الـمـأمـون كـأسـا رويـــة

فـأنـهـلـك الـمـأمـون مـنـهـا وعـلـكا

فـفـارقـت أسـبـاب الـهـدى واتبعته

عـلـى أي شـيء ويـب غـيـرك، دلـكا

عـلـى مـذهـب لـم تـلـف أمـا ولا أبا

عـلـيـه ولـم تـعـرف عـلـيـه أخـا لـكـا

فـإن أنـت لـم تـفـعـل فـلـسـت بآسف

ولا قـائـل إمـا عـثـرت: لـعـا لـكـا

وأرسل كعب تلك الأبيات إلى بجير الذي تلقاها وأطلع عليها النبي ﷺ، فأهدر النبي ﷺ دم كعب. وأرسل بجير إلى أخيه يخبره بما حدث، ويدعوه مرة أخرى إلى الدخول في الإسلام، لكن الأمر استغرق عند كعب عامين، حتى أتى إلى النبي ﷺ في مسجده وجلس بين يديه، ووضع يده في يده والنبي ﷺ لا يعرفه، وقال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير أتاك تائبا مسلما فهل أنت قابل منه؟ أجابه: نعم. قال: فأنا كعب، فوثب رجل من الأنصار قائلا: دعني يا نبي الله أضرب عنقه، فنهاه النبي ﷺ.

وأنشد كعب قصيدته الاعتذارية المعروفة التي مطلعها:

بـانـت سـعـاد فـقـلـبـي الـيـوم متبول

مـهـنـد إثـرهـا لـم يـفـد مـكـبـول

وقيل: إن النبي ﷺ خلع عليه بردته حين وصل إلى قوله:

إن الـرسـول لـسـيـف يـسـتـضـاء به

مـهـنـد مـن سـيـوف الـلـه مسلول

وتقع قصيدة كعب بن زهير في نحو ٦٠ بيتا، التزم بالتقاليد الفنية للقصيدة العربية منذ العصر الجاهلي، وتنوعت أغراضها من المقدمة الغزلية إلى الاعتذار ثم المديح، وبينهما وصف الشاعر حالته من الخوف والتوتر.

في المقطع الأول: مقدمة غزلية طويلة يتناول فيها الشاعر محبوبة هاجرت مع أهلها، ويتناول صفاتها الخارجية، وهو الأمر الذي اتسع له صدر النبي ﷺ باعتباره عادة فنية راسخة عند الشعراء طوال العصر الجاهلي، وكعب شاعر مخضرم عاش في الجاهلية أكثر مما عاش في الإسلام.. يقول فيها:

ومـا سـعـاد غـداة الـبـين إذ رحـلـوا

إلا أغـن غـضـيـض الـطـرف مكحول

ففي صوتها غنة وفي عينيها اكتحال، ويختم مقدمته بالشكوى من إخلاف مواعيدها، يقول:

كـانـت مـواعـيـد عـرقـوب لـهـا مثلا

ومـا مـواعـيـدهـا إلا الأبـاطـيـل

المقطع الثاني: عبر فيه الشاعر عن حالة الفزع، وتنكر أصحابه له حتى إنه لم يجد إلا أن يواجه الخوف بالإيمان، والشك باليقين. يقول:

تـسـعـى الـوشـاة جـنـابـيـهـا وقولهم

إنـك يـا ابـن أبـي سـلـمـى لمقتول

ويحسم أمره مؤكدا أن الخوف من الموت لا فائدة منه:

كـل ابـن أنـثـى وإن طـالـت سلامته

يـومًـا عـلـى آلـة حـدبـاء محمول

المقطع الثالث: يتوجه فيه إلى النبي ﷺ معتذرا، ومعبرا عن تفاؤله بقبول هذا الاعتذار:

وقـد أتـيـت رسـول الـلـه مـعـتـذرًا

والـعـذر عـنـد رسـول الـلـه مقبول

المقطع الرابع: خصصه الشاعر لمدح النبي ﷺ، وكذلك لمدح المهاجرين معه. يقول في مدح النبي ﷺ:

إن الـرسـول لـنـور يـسـتـضـاء به

مـهـنـد مـن سـيـوف الـلـه مسلول

وهو يمتدح المهاجرين واصفا إياهم بالقوة والشجاعة ومطاردة الجبناء:

شـم الـعـرانـيـن أبـطـال لبوسهم

مـن نـسـج داود فـي الـهـيـجـا سرابيل

اعتذارية مصطفى عكرمة

وبعد نحو عشرين قرنا من قصيدة كعب تأتي قصيدة الشاعر السوري مصطفى عكرمة (من مواليد اللاذقية ١٩٤٣م) بعنوان «عذرا رسول الله» والتي صدرت في ديوان حمل الاسم نفسه(٢).

وتقع القصيدة في نحو سبعة وتسعين بيتا، يقول مطلعها:

حـبـك الـسـعـد والمـنـى والأمـــان

يـا رسـولا عـزت بـك الأكـوان

والقصيدة من بحر الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن فاعلات مستفعلن فاعلاتن)، وهو بحر مميز بخفة الحركات، ما يعطي السهولة في التعامل مع قصائده.. وقسمها عكرمة إلى خمسة مقاطع؛ تناولت تباعا أغراضا مختلفة، حاول الشاعر خلالها أن يسطر لقارئه لوحة بانورامية لما يمكن أن نسميه: الأصل والصورة، فهو يقارن بين الحال التي رسمها لنا الدين الحنيف، وبين حال المسلمين التي ذهبت بعيدا عن طريق النور.

المقطع الأول: للمديح النبوي في نحو خمسة وعشرين بيتا، وقد حاول عكرمة التعبير عن مناقب النبي ﷺ، سواء من حيث طبيعة رسالته الخاتمة، مثل قوله:

أعـظـم الـخـلـق كـان خـلـقـك يـا من

خـاتـم الـرسـل شـاءك الـرحـمـن

وحاول الشاعر استعراض صور من سيرة النبي ﷺ فقال:

أجمعوا حقدهم عليك جهارا

بكل الأذى عليك استعانوا

وسوى الحب ما لديك سلاح

وعلى الحب كنت منهم تدان

المقطع الثاني: جعله الشاعر شكوى يبثها للنبي ﷺ لما آلت إليه أحوال الناس من بعد هديه، وكيف عم الظلم، واغترب الحق.. يقول:

أيقظ الشر بعد عدلك قوم

قادهم في ضلالهم شيطان

فإذا الكون في صراع فناء

ليس في عقل مسعريه اتزان

بل هو يشير إلى تجرؤ الغرب على النبي ﷺ:

وعليك الجهال صبت حقودا

دونها في سعيرها النيران

المقطع الثالث: يتصل بالثاني في استعراض انحرافات الإنسان المعاصر، لكن الشاعر يصدره باعتذاره الشخصي، إن لم يطاوعه الشعر أو تسعفه الأوزان:

يا رسول الهدى إليك اعتذاري

إن عصتني في مدحك الأوزان

المقطع الرابع: يجسد الاعتذار الجمعي؛ فالشاعر يعتذر نيابة عن أمته وقومه، وهم بتفريطهم في كنوز النبوة قد صاروا أذلة:

سيدي سيدي حنانك إني لم

يعد لي من ذل قومي لسان

أهملوا شرعك الحنيف فضلوا

فإذا هم لضعفهم قطعان

ويستعرض الشاعر ألوانا من هوان الأمة؛ فهو يحكي مأساة العراق ممزق الأوصال، ويعرج على غزة فيبسط الحديث حولها، ويصف أهلها بالأبطال البواسل:

أهلها الأهل في الثبات جبال

وبقلب الأعداء هم بركان

ما ثناهم عن الجهاد حصار

لا ولا فل عزمهم عدوان

المقطع الخامس: ختم به الشاعر مصطفى عكرمة قصيدته متضرعا إلى الله تعالى بإنقاذ الأمة من حالها البائس، بنصرة جيل من أهلها مازالوا على الحق قائمين، فجاء دعاؤه لله- عز وجل- للتمكين لهم:

رب إن الإسلام ملء قلوب

هو فيها الإباء والعنفوان

رب سدد على الصراط خطاها

وأغثها بالنصر يا رحمن

وكما بدأ الشاعر بمديح النبي ﷺ يختم بتأكيد هذا الحب:

فلك الحب يا محمد يا من

حبك الحب للنجاة ضمان

تطور شعر الاعتذاريات النبوية إذن بشكل واضح، وما بين قصيدة البردة (٦٣٠م) وقصيدة عذرا رسول الله (صدرت عام ٢٠٠٩م) جوانب كثيرة من الفكر والفن تكرست خلال ١٣٧٩ عاما، تقلبت خلالها عصور متفاوتة من الشعر، وأجيال متنوعة من الشعراء.

١- كان كعب بن زهير مضطرا للمقدمة الغزلية الحسية، ولم يرده النبي ﷺ بل استمع إليه في المسجد. أما مصطفى عكرمة فقد جاء بعد مراحل كثيرة من تطور القصيدة، وتحرر الشعر من المقدمات الغزلية أو الطللية.. وإن تميزت القصائد النبوية بمقدمة من المديح النبوي الرقيق، وقد استعرض عكرمة في المقدمة محطات من سيرة النبوة.

٢- كان اعتذار كعب عن سبب شخصي، جراء ما بدر منه، فكان طالبا الصفح والعفو، أما اعتذار عكرمة فكان نيابة عن الأمة المحمدية عن تفريطها وتأخرها، وهو الأمر الذي اعتبره الشاعر يمس فضيلة الوفاء.

٣- حاول كل شاعر أن ينثر الحكمة في قصيدته، والموقف المشترك بينهما- وهو خطاب النبوة- يشجع على هذا.. فمن حكمة كعب:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يومًا على آلةٍ حدباء محمول

ومن حكمة عكرمة:

راجم الشمس لن يضير سناها لا ولن يحجب الشموس دخان

٤- أتاح الفارق الزمني الشاسع لصالح عكرمة أن يتحدث عن أمور كثيرة من تاريخ الإسلام، لم تتح لكعب بالتأكيد.. منها الحديث عن الفتوح الإسلامية، وموقف بعض المسيئين لرسول الله ﷺ من أهل الغرب. يقول عكرمة:

هكذا الغرب رد فضل فتوح لن ترى مثل عدلها الأزمان

٥- اهتمت قصيدة كعب بالصحابة الكرام، وأشادت بالمهاجرين ودورهم، في حين اهتم عكرمة بالنظرة الثائية ما بين ازدهار الماضي ومآسي الحاضر.

وأخيرا تكشف النظرة للقصيدتين عن الوضع الإسلامي الآني وما فيه من آلام صورتها قصيدة عكرمة، ووضع الإسلام في بداياته وما كان فيه من بشريات جاءت واضحة في قصيدة كعب، وذلك على الرغم من أن الإسلام وقت القصيدة الكعبية لم يكن قد تجاوز المدينة المنورة.

الهوامش:

١- انظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (عذر).

٢- انظر ديوان «عذرا رسول الله»، طبعة منتدى الأدب الإسلامي، المركز العالمي للوسطية، الكويت سنة ٢٠٠٩م.

البحث عن وطن

طارق نصار
شاعر مصري

إلـــهـــي إلـــيـــك أقـــــود خـــطـــاي ... وأســـكـــب دمـــعـــي عـــلـــى ذي الـخـطـايـا
فـمـن بـطـن أمـــي خـرجـت ضـعـيـفـا ... ومـــن ذلـــك الـضـعـف كـانـت قـوايـا
تـهـدهـدنـي كـي يـطـول سـكـونـي ... تـلاطـفـنـي كـي أكـف بـكـايـا
فـكـم عـلـمـتـنـي بـنـاء الـكـلام ... ومـضـغ الـطـعـام وحـسـن الـسـجـايـا
وكـم خـبـطـت فـي الأمـــور يـداي ... وكـم عـثـرت فـي المسير خُطايا
وكـم أدبـتـنـي الـخـطـوب فـأبـكـي ... فـتـمـسـح دمـعـي بـسـرد الـحـكـايـا
نـشـأت ابـن أمـــيَ، وابـــن الـحـيـاة ... أحـيـل عـن المـوت وجـه المطايا
نـشـأنـا صـغـارا كـبـارا بـأرض ... تـرانـا جـنـاة ونـحـن الـضـحـايـا
فـقـلـت ســآوي إلـى حـضـن أنـثـى ... تـلـمـلـم مـا بـعـثـرتـه يـدايـا
وتـأخـذ مـا حـررتـه دمـائـي ... فـتـصـنـع مـنـه مـئـات الـشـظـايـا
شـظـايـا بـنـيـن بـنـات وجـيـلا ... يـفـجـر فـيـنـا مـئـات الـقـضـايـا
قـضـايـا الـشـعـوب الـتـي حـررت ... وأحـلامـهـم لا تـــزال سـبـايـا
سـأحـفـر فـي الأرض دربـــا عـنـيـدا ... قـــواه ثـلاثـون عـامـا رزايـا
وفـــي الأرض أزرع حـــب الإلـــه ... لـيـقـتـات مـنـه جـمـيـع الـبـرايـا
فـكـل صـبـي نـمـا مـن غـراسـي ... أراه عـلـى الـبـعـد صـار أخـايـا
سـفـيـنـة نـــوح حـــوت بـعـض نـفـسـي ... وأعـطـت إلـى أمـهـاتـي الـبـقـايـا
فـكـم سـافـرت فـي الـظـهـور عـظـامـي ... وكـم رحـلـتْ فـي الـبـطـون دمـايـا
إلـى أن بـدا لـشـراع الـسـنـين ... وربـانـهـا أن هـنـا شـاطـئـايـا
ولـــدتُ وعـالـمـنـا فـي فـرار ... عـجـيـب مـن المـوت نـحـو المـنـايـا
نـفـى خـارج الـقـلـب نـبـض الأمـان ... وأسـكـن جـلاده فـي الـحـنـايـا
سـل الـلاجـئـيـن وراء بـلادي ... هـم المـرسـلـون إلـيـنـا هـدايـا
سـل الآكـلـيـن تـراب الـرغـيـف ... عـصـا المـسـتـبـد تـسـوق الـرعـايـا
سـل الـعـازفـيـن لحـون الـنـشـاز ... يـغـنـون فـوق لحـوم الـعـرايـا
سـل الآخـذيـن بـثـأر الـشـهـيـد ... سـل الـسـاجـديـن بـهـذي الـزوايـا
سـل الـنـيـل عـنـا وعـمـا تـبـقـى ... يـجـبـك الـفـرات: الـوجـوه الخـزايـا
يـحـرك مـركـز هـذا الـوجـود ... حـقـيـقـتـنـا فـانـظـروا فـي المـرايـا
سـأهـجـر مـا أفـسـدتـه الـقـرون ... إلـى عـالـم شـاده سـاعـدايـا
سـأهـرب مـن ذبـذبـات الأثـيـر ... الـتـي سـئـمـت صـوتـهـا أذنـايـا
وآوي إلـى صـوت تـرتـيـل فـا ... تحـة يـسـتـريـح بـهـا خـافـقـايـا
سـأهـرب مـن شـاشـة لـم تُـذقـنـي ... الـبـشـاشـة إلا بـفـاه الـدنـايـا
وآوي إلـى شـاشـة الـكـون تحـت ... الـظـلال وفـوق شـفـاه الـثـنـايـا
إلـى الـبـدر مـزدهـيـا فـي دجـايـا ... إلـى الـشـمـس لـؤلـؤة فـي سـمـايـا
لـتـصـبـح لـي الأرض مـلـكـا فـسـيـحـا ... ومـا مـلـكـت مـنـه شـيـئـا يـدايـا
إلـهـي بمـصـبـاح هـذا الـوجـود ... أجـر عـائـذا مـن ظـلام الـطـوايـا
أنـر بـالـكـتـاب الـسـمـاوي عـصـرا ... بـأحـكـامـه جـلـدت كـتـفـايـا
فـمـا لـي فـي الـكـون رب سـواك ... وكـم لـك فـي الـعـالـمـيـن سـوايـا
وفـي الـغـد لـي أمـنـيـات سـتـحـيـا ... وتـمـشـي مـعـي فـي الـدروب خـفـايـا
غـدا سـتـسـيـر الـعـوالـم خـلـفـي ... وتـمـشـي الـثـريـا هـنـا فـي ثـرايـا
سـيـحـفـظ عـنـي الـتـلامـيـذ حـلـمـا ... حـلـمـت بـه زمـنـا فـي صـبـايـا
سـتـبـدأ مـن ثـلـج «مـوُسـكـو» سـفـيـنـي ... إلـى فـتـح«رومـا» تـقـود الـسـرايـا
لـيـذكـر مـيـثـاق آدم شـعـب ... تـعـطـن تحـت حـريـر الـحـشـايـا
نـمـا غـافـلاً عـن وجـود الإلـه ... فـمـزق أقـدس مـا فـي الـوصـايـا
سـأبـنـي لـهـم مـوطـنـا مـن تـراثـي ... كـمـا لـي بـنـى مـوطـنـا والـدايـا

من جمال النظم القرآني في سورة الإخلاص

د. أحمد إسماعيل عبد الكريم
دكتوراه الألسن - جامعة عين شمس

سورة الإخلاص من السور التي أنزلت على رسولنا الكريم ﷺ مرسخة لعقيدة التوحيد، موضحة تفرد الله -عز وجل- ووحدانيته، وأنه لا مثيل له ولا نظير، وقد تضمنت الرد على مغالطات أهل الديانات السابقة من اليهود والنصارى وغيرهما، وقد جاءت السورة في غاية الإيجاز والإعجاز، على مستوى اللفظة والعبارة، والصياغة والتركيب.

موضوع السورة:

تناولت هذه السورة التوحيد بأسلوب وجيز واضح، وأن الله -عز وجل- كتب على نفسه التوحد في الصفات والأسماء، وأنه واحد لا شريك له ولا كفؤ له ولا ند له ولا نظير، وهذه الأحدية التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها للعالمين: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾(الإخلاص:١) هي عقيدة للضمير، وتفسير للوجود ومنهج للحياة، وقد تضمنت السورة أعرض الخطوط الرئيسة في حقيقة الإسلام، فليس هو كما يعتقد النصارى بالتثليث، ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة، ولا كما يعتقد غيرهم من اليهود وأصحاب المذاهب الأخرى الضالة. جاء في التسهيل: «واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معان، كلها صحيحة في حقه تعالى، الأول: أنه واحد لا ثاني معه، فهو نفي للعد، والثاني: أنه واحد لا نظير له ولا شريك، والثالث: أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعض، والمراد بالسورة نفي الشريك ردا على المشركين، وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته تعالى، وذلك كثير جدا، وأوضحها أربعة براهين: الأول قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾(النحل١٧). وهذا دليل الخلق والإيجاد، فإذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات لم يصح أن يكون واحد منها شريكا له، والثاني: قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(الأنبياء:٢٢). وهو دليل الإحكام والإبداع، والثالث: قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾(الإسراء:٤٢). وهو دليل القهر والغلبة، الرابع: قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (المؤمنون: ٩١). وهو دليل التنازع والاستعلاء.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾(الإخلاص:٢) أي: هو سبحانه المقصود في الحوائج، على الدوام يحتاج إليه الخلق، وهو مستغن عن العالمين،

وفي هذا التفاتة لهم أن يتدبروا ما يفعلون لما يعبدون، وأن يتأملوا جيدا في حقيقة ما حولهم من آيات كونية تتنافى مع ما يفعلون، قال الألوسي: الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد -أي يلجأ- إليه الناس في حوائجهم وأمورهم وهي تشعر بعلية الألوهية، لأنه تعالى هو السيد المصمود إليه من كل مخلوق لا يستغني عنه، وذكر أبو حيان قول الشاعر في معنى الصمد:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد
بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقيل في تفسير الكلبي: إنه الذي لا يأكل ولا يشرب، وقيل: إنه الذي لا جوف له، والصمدية تتضمن حاجة الخلق إلى الله سبحانه، وعدم استغنائهم عنه، لقدرته -عز وجل- على الفاعلية، والإرادة وأهليته للربوبية، ومسؤوليته تجاه خلقه. ﴿لَمْ يَلِدْ﴾(الإخلاص:٣). وهذا القول فيه رد على كل من ادعى أن لله ولدا، وإفحام لكل من يزعم بذلك، فهو سبحانه منزه عن النقائص، وليس كمثله شيء، ليس هو سبحانه كالخلائق يتناسل أو يفعل ما تفعله الكائنات التي خلقها وأبدع صنعها، قال المفسرون: في الآية رد على كل من جعل لله ولدا، كاليهود في قول الله تعالى على لسانهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾(التوبة:٣٠). والنصارى في قول الله تعالى على لسانهم: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (التوبة٣٠). وكمشركي العرب في زعمهم أن «الملائكة بنات الله»، فرد الله -تعالى- على الجميع بأنه ليس له ولد، لأن الولد لابد أن يكون من جنس والده، والله تعالى أزلي قديم ليس كمثله شيء، ولأن الولد لا يكون إلا لمن له زوج، وركبت فيه الشهوات من ملذات الدنيا وزينتها، يقول سبحانه في آية أخرى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾(الأنعام:١٠١). ومن كانت فيه هذه الصفات لا يختلف عن أي كائن حي آخر، فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ (الإخلاص:٣). قول صريح في أنه تعالى غير متولد من غيره، وتبطل هذه الآية مذهب النصارى القائل بأن عيسى إله، لأنه يلازمه افتقاره في وجوده إلى غيره، وذلك ينافي صفة الإلهية، لأن الإله لا يحتاج لغيره، ولا ينفعه صلاح الخلائق ولا يضره فسادهم، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، فهو الذي قيض أمره في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة:١١٧)، وقد نفت الآية عنه -سبحانه- إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأول الذي لا ابتداء له، الآخر بلا انتهاء سبحانه، يقول المرحوم سيد قطب في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (الإخلاص:٣)،: «حقيقة الله ثابتة أبدية أزلية، لا تعتورها حال بعد حال، صفتها الكمال المطلق في جميع الأحوال، والولادة انبثاق وامتداد، ووجود زائد بعد نقص أو عدم، وهو على الله محال، ثم هي تقتضي زوجية، تقوم على التماثل، وهذه كذلك محال، ومن ثم فإن صفة أحد تتضمن نفي الوالد والولد».

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:٤)، أي: وليس له -جل وعلا- مثيل ولا نظير ولا شبيه، لا في ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله، قال ابن كثير: «هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه؟ تعالى وتقدس وتنزه، وفي الحديث القدسي يقول الله سبحانه: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد»، ويقول المرحوم سيد قطب: «أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ، لا في حقيقة الوجود، ولا في حقيقة الفاعلية، ولا في أي صفة من الصفات الذاتية، وهذا كذلك يتحقق بأنه أحد، ولكن هذا توكيد وتفصيل».

وقد جاءت السورة في غاية الإيجاز والإعجاز، وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزهت الله عز وجل عن صفات العجز والنقص ويحتم علينا السياق اللغوي والتركيبي أن ندخل في البنية التركيبية والسياقية لنص السورة الكريمة، حيث ارتبطت الجمل في السورة بأقوى علاقات الارتباط، وهي علاقة الإسناد، ولم توجد معها علاقة أخرى تزاحمها باستثناء الجملة الأخيرة فقد انعكست فيها العلاقات بتقدم الجار والمجرور «له» على متعلقه «كفوا» وتقدم الخبر «كفوا» على المبتدأ «أحد» فأصبح اتجاه العلاقتين عكسيا وكأن السورة تعود في نهايتها لتشير إلى البداية حسيا ومعنويا من خلال ألفاظها وعلاقاتها بأن الله واحد لا شريك له.

وهكذا أرست السورة لعقيدة التوحيد في وصفها لوحدانية الله عز وجل، نافية كل الصور العالقة في أذهان أهل الكفر والضلال.

أجوبة لطيفة عن أربع سؤالات شريفة

للعلامة الشيخ: غنام بن محمد بن غنام النجدي الحنبلي (ت ١٢٣٧هـ)

تحقيق: صالح بن عبدالفتاح بن عبدالخالق
باحث بقسم المخطوطات بدار الكتب المصرية

هذه رسالة في أصول الفقه الحنبلي تتضمن التعليق على أربع مسائل حول قضايا التقليد والتلفيق، وجواز ترجيح بعض المذاهب، وانقطاع الاجتهاد من عدمه، وهي على مذهب الحنابلة، أجاب عنها أحد المتأخرين من علماء المذهب، وهو الشيخ غنام بن محمد بن غنام النجدي، الحنبلي، المتوفى سنة (١٢٣٧هـ)، وهو فقيه حنبلي، فرضي، نجدي الأصل والمولد، نشأ في الزبير (بالعراق)، وأقام وتوفي بدمشق، وله تقارير وأبحاث كثيرة على هوامش شرح المنتهى في الفقه الحنبلي، وغير ذلك(١).

وقد اعتمدت في تحقيقها على نسخة خطية فريدة كتبت بخط المؤلف، محفوظة ضمن مجموع بالخزانة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية، تحت رقم (٤٩/مصطلح حديث تيمور)، وتقع في صفحتين من ص (٤٨٢- ٤٨٣)، وعليها وقف عبدالسلام الشطي الحنبلي.

بسم الله الرحمن الرحيم

سؤال يشتمل على أربع مسائل تؤخذ من كلام أبي الحسن السندي، عليه الرحمة من الرؤوف المبدي.

إحداهن: لزوم تقليد من يظنه موافقًا الحق، وترك تقليد من يظنه مخالفًا للحق، وهذا في العامّيّ، وأما من له أهلية فالأخذ في حقه أوجب وآكد.

الثانية: أن الاجتهاد لم ينقطع.

الثالثة: جواز ترجيح بعض المذاهب.

الرابعة: جواز التلفيق.

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فالأولى جائزة، بل قد يجب، فإنه قال في مختصر التحرير وشرحه(٢):

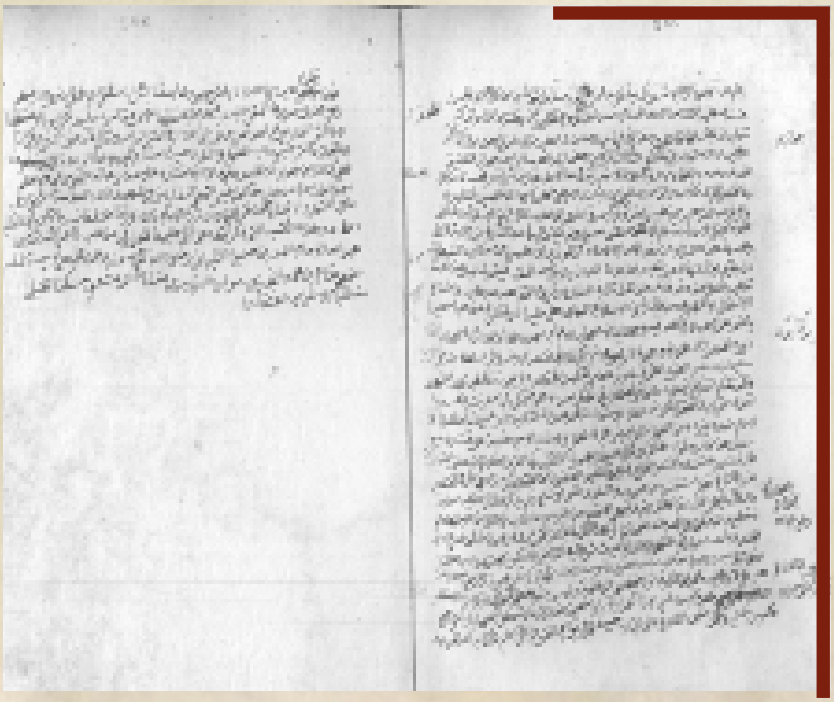

«ويلزمه- أي: العامي- إن بان له الأرجح منهما- أي: المذهبين- تقليده، ولا يلزمه التمذهب بمذهب يأخذ برخصه وعزائمه في أشهر الوجهين، قال شيخ الإسلام: إن خالفه لقوة دليل، أو زيادة علم، أو تقوى، فقد أحسن، ولم يقدح في عدالته بلا نزاع، وقال: بل يجب في هذه الحال، وأنه نص الإمام أحمد. وذكر الوزير ابن هُبيرة: من مكائد الشيطان: أن يقيم أوثانًا في المعنى تعبد من دون الله، أن يتبين- أي: له- الحق، فيقول: ليس

هذا مذهبنا، تقليدًا لمعظَّم عنده قد قدمه على الحق».

قال في الإقناع(٣): «ولزوم التمذهب بمذهب وامتناع الانتقال: الأشهر عدمه».

قال شيخ الإسلام(٤): «العامي هل عليه أن يلتزم مذهبًا معينًا، يأخذ بعزائمه ورخصه؟ فيه وجهان لأصحاب الإمام أحمد، وهما وجهان لأصحاب الشافعي، والجمهور من هؤلاء وهؤلاء، لا يوجبون ذلك».

قال في مختصر الروضة وشرحه للعلامة نجم الدين سليمان بن عبدالقوي الطوفي(٥): «يجوز للعامي تقليد المجتهد، ولا يجوز ذلك لمجتهد اجتهد وظن الحكم اتفاقا فيهما، أما من لم يجتهد في الحكم بعد، وهو متمكن من معرفته بنفسه بالقوة القريبة من الفعل؛ لكونه أهلا للاجتهاد، فلا يجوز له تقليد غيره أيضا مطلقًا، لا لأعلم منه ولا غيره، لا من الصحابة ولا غيرهم، لا لعمل ولا لفتيا، لا مع ضيق الوقت ولا مع سعته. هذا فائدة قوله: مطلقا».

وقال أيضًا(٦): «يجوز التقليد في الفروع خلافًا لبعض القدرية».

قال في المنتهى، والإقناع، ومختصر التحرير: «ويجوز تقليد المفضول من المجتهدين- زاد في شرح المختصر: «عن الأكثر»- لأنهم استفتوا من الصحابة والسلف وأفتوا، أو شاع ولم ينكروا، وقال عليه الصلاة والسلام:

«أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»، وفيهم الأفضل من غيره»(٧).

وأما الثانية

فكما قال أن الاجتهاد لم ينقطع، وأنه ممكن، بل يجب عند أصحابنا، ولهذا قال في مختصر التحرير: «ولا يجوز خلو عصر عنه- أي: المجتهد»(٨).

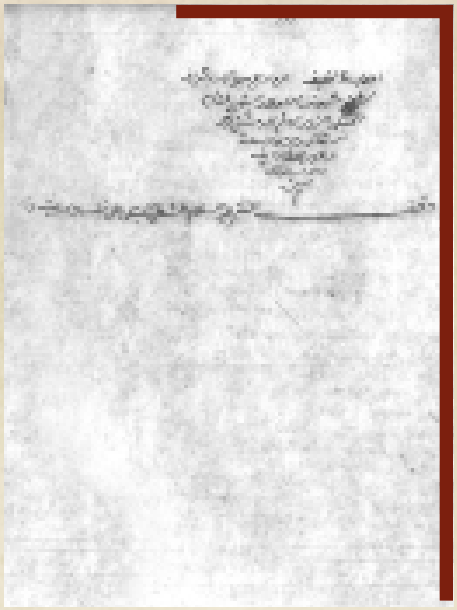

ويشهد له عبارتا المنتهى، والإقناع، وغيرهما، حيث شرطا في القاضي أن يكون مجتهدًا، أي: مطلقًا؛ لأنهما قالا بعد: «ولو في مذهب إمامه للضرورة»(٩).

وأما الثالثة

فكما ذكر أنه يجوز ترجيح بعض المذاهب بالدليل.

قال في شرح مختصر الروضة(١٠): «وحكي عن الباقلاني إنكار الترجيح، وليس بشيء- يعني أن قول الباقلاني هذا ليس بشيء- لأن العمل بالأرجح متعين عقلًا وشرعًا، وقد عمل الصحابة بالترجيح مجمعين عليه. وقد نص الشارع على اعتباره حيث قال: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله...» الحديث، فهذا تقديم للأئمة في الصلاة بالترجيح، ولما بعث السرايا، استقرأهم القرآن، فوجد فيهم رجلًا يحفظ سورة البقرة، ليس فيهم من يحفظها غيره، فأمَّره عليهم، ترجيحًا له بحفظها.

ولما كثر القتلى يوم أحد، أمر بدفن الجماعة في القبر الواحد، وقال: «قدموا أكثرهم قرآنًا»، وبالجملة فالترجيح دأب العقل والشرع حيث احتاج إليه».

وأما الرابعة

فهي كما قال من جواز التلفيق على ما قاله، واختاره علامة زمانه الشيخ مرعي(١١)، ولم أعلم أحدًا من أئمة مذهبنا خالفه غير الشيخ السفاريني، ويشهد لما قاله العلامة الشيخ مرعي ما في المنتهى، والإقناع، وغيرهما، من قولهم: «وإن ترك الإمام ركنًا، أو شرطًا مختلفًا فيه بلا تأويل ولا تقليد أعاد»(١٢).

وهذه الكتب التي ذكرتها هي التي عليها العمل في مذهب ناصر السنة أبي عبدالله الإمام أحمد بن حنبل الشيباني رضي الله عنه، وعن جميع الأئمة.

الهوامش

١- انظر: «الأعلام»، للزركلي (٥/ ١٢١- ١٢٢).

٢- انظر: «شرح الكوكب المنير» لابن النجار، طبعة العبيكان (٤/ ٥٧٣، ٥٧٤- ٥٧٥- ٥٧٦).

٣- «الإقناع» للحجاوي، طبعة دار المعرفة (٤/ ٣٧٦).

٤- «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٢٢٢).

٥- «شرح مختصر الروضة» للطوفي، طبعة الرسالة (٣/ ٦٢٩).

٦- المصدر نفسه (٣/ ٦٥٢)، وفيه: «يجوز التقليد في الفروع إجماعًا أي بالإجماع خلافًا لبعض القدرية».

٧- انظر: «منتهى الإرادات» للفتوحي- مع حاشية النجدي- طبعة مؤسسة الرسالة (٥/٢٦٠)، و«الإقناع» للحجاوي، طبعة دار المعرفة (٤/٣٧٦)، و«شرح الكوكب المنير» لابن النجار، طبعة العبيكان (٤/٥٧١، ٥٧٢).

٨- «شرح الكوكب المنير» لابن النجار (٤/٥٦٤).

٩- انظر: «منتهى الإرادات» للفتوحي- مع حاشية النجدي- طبعة مؤسسة الرسالة (٥/٢٦٨)، و«الإقناع» للحجاوي، طبعة دار المعرفة (٤/٣٦٨).

١٠- «شرح مختصر الروضة» للطوفي، طبعة الرسالة (٣/٦٧٩- ٦٨٠).

١١- للشيخ مرعي الحنبلي- رحمه الله تعالى- رسالة حول التلفيق، ومنها نسخة بخط الشيخ غنام النجدي مؤلف هذه الرسالة محفوظة ضمن مجموع رقم (٤٩/مصطلح حديث تيمور)، من ص (٤٨٧- ٤٨٨)، بدار الكتب المصرية.

١٢- انظر: «منتهى الإرادات» للفتوحي- مع حاشية النجدي- طبعة مؤسسة الرسالة (١/٣٠١)، و«الإقناع» للحجاوي، طبعة دار المعرفة (١/١٦٨).

معاني «القعود» في القرآن الكريم ودلالاتها التربوية

د. مصطفى رجب
باحث دراسات إسلامية

القرآن الكريم يحث على السعي والعمل والجهاد، ففي آيات كثيرة نرى تحفيزا للناس على السعي في الأرض، وتأمل آثار نعمة الله، وتتبع آياته في خلقه البديع، وفي آيات كثيرة نرى تشجيعا للناس على السير في الأرض، وتأمل عواقب الأمم السابقة الطاغية المتكبرة من خلال ما بقي من آثار ومعالم، وفي آيات أخر نرى دعوات للمسارعة في الخيرات، والتنافس في الطاعات، والتسابق إلى نيل رضوان الله تعالى، والفوز برحمته في الدنيا وفي الآخرة بالعمل الصالح الدؤوب.

وكل المعاني السابقة تبرز لنا أهمية «الحركة»،والنشاط،والهمة،والسعي، في حياة المؤمن الحق. وهذا يتفق مع متطلبات الصحة النفسية للإنسان، فإن الحركة الدائمة، والسعي الدؤوب من مؤشرات «الإيجابية» في الحياة، والإنسان الإيجابي عند علماء النفس والتربية، هو الإنسان السوي الصحيح نفسيا الذي يتفجر إحساسه بالسعادة الحقيقية، من سلوكاته مع الآخرين أخذا وعطاء، وحفزا، وتعاونا، وتفاعلا مستمرا من أجل حياة أفضل، وأفضل ما تكون الحياة حين تتوافق معالمها مع المنهج الذي ارتضاه الله تعالى لخلقه.

وعلى النقيض من كل ما سبق، تأتي «السلبية» كطاقة مدمرة، يلجأ إليها البائسون اليائسون من مرضى النفوس، يتدثرون بها ليواروا سوءة تخاذلهم وضعفهم النفسي، وخواء تفكيرهم، وخور هممهم.

وقد ورد لفظ «القعود» في القرآن الكريم ومشتقاته بعدة صور تعكس لنا أحوال القاعد، وبؤس تفكيره، وأنانيته، وإيثاره الدنيا الفانية على الآخرة الباقية.

وبحر الدلالة اللغوية لمادة (ق.ع.د) واسع عميق، فقد قالت العرب للرجل العاجز الذي لا يكتسب ما يعيش به: هو «قعدة ضجعة» (أي: دائم القعود والاضطجاع، لا يسعى لكسب معايشه)، وقالوا لمن يحب كثرة القعود في بيته: هو «قعَدي» بفتح العين. وقعد عن الأمر، أي تركه. وبعكسها قالوا: قعد للأمر: أي اهتم به.

وفي إطار هذه الدلالات لمعاني القعود نقرأ في القرآن الكريم وصف بعض المنافقين الذين حاولوا تخذيل إخوانهم من المجاهدين وتشجيعهم على رفض الخروج للجهاد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ (آل عمران: ١٦٨).

ويأتي حكم الله تعالى واضحا قاطعا في ذم القعود عن الجهاد ممن يمتلك القدرة، ولكنه يمتلك مع القدرة نفسا ضعيفة، وإرادة خائرة، ولا عذر بدنيّا عنده يعوقه عن فريضة الجهاد.

يقول تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ (النساء: ٩٥).

ويقص علينا القرآن الكريم من قصص بني إسرائيل، كيف استناموا إلى الكسل والخنوع، وقعد بهم خوفهم مواجهةَ الأعداء عن نصرة نبيهم موسى عليه السلام، يقول تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (المائدة: ٢٤).

وقد وصف القرآن الكريم أحوال المنافقين في المدينة المنورة أثناء غزوات رسول الله ﷺ، وصورهم القرآن الكريم في أحوال شتى تعكس جبنهم، وكيدهم للدين، وإيثارهم للحياة الدنيا، ومن ذلك أنهم:

(١) كسالى، لا يبادرون إلى الجهاد، ولا يرحبون ببذل المال والنفس في سبيل نصرة دين الله، فاستحقوا بهذا غضب الله تعالى عليهم، فوبخهم سبحانه وتعالى بأسلوب يكشف لنا أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد، وأن أعذارهم التي تقدموا بها- لإعفائهم من الخروج- باطلة، فإن العذر الحقيقي المقبول هو المانع الشرعي الذي يظهر بعد أن يكون الإنسان قد شرع في التهيؤ، وسعى في أسباب الخروج، ثم فاجأه مانع شرعي لم يكن يتوقعه، فهذا هو الذي يعذر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (التوبة: ٤٦).

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (التوبة: ٤٧). أي: لو خرجوا معكم ما زادوكم إلا نقصا، ولأوضعوا خلالكم، أي: سعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم، لأنهم حريصون على فتنتكم وإذكاء روح العداوة بينكم، وفيكم أناس ضعفاء العقول سماعون لهم، أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم.

(٢) وهم مترددون، لأنهم حين رأوا المغانم التي فاز بها إخوانهم الذين بادروا إلى الجهاد، والخروج مع رسول الله ﷺ، راجعوا مواقفهم وترجحت لديهم مصلحتهم المفضلة دائما، وهي الثروة والمغانم، فجاءوا يعتذرون ويطلبون المشاركة، فكان الأليق بهم رفض مطلبهم وتذكيرهم

بتخاذلهم الأول. قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (التوبة: ٨٣).

(٣) وهم كاذبون، فقد طلبوا الإذن لهم بالتخلف عن الجهاد، مع قدرتهم عليه، ومع كثرة أموالهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (التوبة: ٨٦).

وبالإضافة إلى المعاني السابقة للقعود المرتبطة بالتهرب من الجهاد، والنكوص عن نصرة الدين، فقد وردت دلالات لغوية أخرى لمادة «قعد» في القرآن الكريم، تشير في معظمها إلى صفات مذمومة.. منها القعود مع الظالمين لمحاربة دين الله، كما يظهر ذلك من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ (النساء: ١٤٠) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (الأنعام: ٦٨).

ومن تلك الصفات المذمومة أيضا ورود «القعود» بمعنى التربص والتآمر، كما ورد في وصف إبليس عليه اللعنة وعلى لسانه في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ (الأعراف: ١٦).

ويرتبط القعود بالحسرة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ (الإسراء: ٢٩).

أما كونه ملوما فلأنه يلوم نفسه، وأصحابه أيضا يلومونه على تضييع المال وتضييع فرص كسبه وتحصيله، مما يترتب عليه إبقاء الأهل والولد في الضر والمحنة، وأما كونه محسورا فمأخوذ من قول العرب للبعير: هو محسور إذا انقطع سيره، وحسرت الدابة إذا سيرها حتى ينقطع سيرها، فالمحسور- بهذا المعنى- هو المتعب المضنى الذي انكشفت عنه القوة، ولم تبق به قدرة على شيء، وكذلك هو مأخوذ من قول العرب: حسرتُ البعير أي أضنيته وأتعبته بالسير، حتى لم تبق به قدرة عليه. والجمل لا يقطع الطريق ويصل إلى الغاية إلا إذا حافظ صاحبه على ما فيه من قوة، فسار به سيرا وسطا، أما إذا أجهده واستنزف قوته، فإنه يسقط كليلا محسورا: فلا قطع طريقه، ولا وصل منزله، ولا أبقى جمله.

وكذلك الإنسان في طريق هذه الحياة محتاج إلى قوة المال، فإذا أنفقه بحكمة نفع به وانتفع، وبلغ غاية حياته هادئا راضيا، وإذا بسط يده فيه كل البسط أتى عليه فانقطع النفع والانتفاع، ولم يبلغ غاية حياته إلا بتعب ومشقة.

ويظهر من هذا أن قوله ﴿مَلُومًا﴾ يرجع للمقتر والمسرف. وقوله: ﴿مَّحْسُورًا﴾ يرجع للمسرف فقط. ولكن لما كان المحسور هو الذي ذهبت قوته فلا قدرة له على شيء، فقد يمكن القول: إن البخيل أيضا مبغوض من الناس مخذول منهم، فلا يجد في ملماته معينا، ولا في نوائبه معزيا، فهو أيضا ضعيف الجانب لا قوة له. فالمسرف ضيع المال، والبخيل ضيع الإخوان، فكلاهما مكسور الظهر، عديم الظهير.

كما يرتبط القعود بالخذلان كما في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ (الإسراء: ٢٢).

فلفظ «القعود» المذكور في قوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ معناه: المكث، أي فتمكث في الناس مذموما مخذولا، وهذه اللفظة مستعملة في العربية والفارسية بهذا المعنى، فإذا سأل الرجل غيره: ما يصنع فلان في تلك البلدة؟ فيقول المجيب: هو قاعد بأسوأ حال. معناه: المكث، سواء أكان قائما أم جالسا. ومن شأن المذموم المخذول أن يقعد نادما متفكرا على ما فرط منه.

ولا يخفى على عاقل أن التمكن من تحصيل الخيرات يتطلب السعي في تحصيلها، والسعي إنما يتأتى بالقيام، والإنسان الكسلان العاجز عن تحصيل الخير لنفسه ولغيره يتملكه الخمول والإحباط فلا يسعى، بل يبقى جالسا قاعدا عن الطلب، فلما كان القيام على الرجلين كناية عن سرعة الحركة وحب السعي، صار أحد الأمور التي بها يتم الفوز بالخيرات، وكان القعود والجلوس علامة على عدم تلك المكنة والقدرة، لذلك ظهر في السياقات القرآنية المتعددة جعل القيام كناية عن القدرة على تحصيل الخيرات، والقعود كناية عن العجز والضعف.

وهكذا نرى أن القعود- بأصل معناه اللغوي، وفي ضوء السياق القرآني- يتضمن دلالات تربوية تدور كلها حول: السلبية والخنوع والجبن والكسل وضعف الوازع الديني والتربص والتآمر والحسرة والخذلان.

الأنشطة المدرسية بين اعتبارات التربية وضغوط الواقع

حمدي سعيد
كاتب مصري

لا يمكن فصل العمل عن الفكر، ولا الجسد عن الروح، فمعنى الثاني الفناء، ومعنى الأول الخواء، فالتفاعل بين المكونات هو ما يعطي معادلات التنوع والثراء في الحياة.

العملية التعليمية ليست فقط نظريات ولا أفكارًا ولا تطبيقات، إنما هي جماع كل ذلك في هذا المجتمع الذي ينخرط فيه أبناؤنا ليتعلموا ويتغيروا كما نأمل، ألا وهو مجتمع المدرسة، أي البيئة التي تنشئ أجيالا على مبادئ وقيم وسلوكيات تظل حاكمة طوال مسيرة حياتهم بعد ذلك.

وفي هذا العصر الذي تلهث فيه أنفاسنا وراء متابعة مستجدات العلوم والابتكارات الحديثة في كل مجال يكتسب الجانب العملي والتطبيقي للمعارف والعلوم أهمية تتزايد مع الأيام وتتحول التربية إلى عملية مستمرة متنامية متكاملة لا تقف عند حد ولا تنحاز لجانب فحسب من جوانب النمو لهؤلاء التلاميذ خلال مسيرتهم الدراسية، بل تسعى لأن تُعدهم إعدادا شاملا متكاملا، وتحرص على أن تكون ذات إسهام بارز في بناء شخصية متزنة متفقة والعصر ومتطلباته.

فالتعلم هو في الأساس عملية تغيير وتعديل بالطبع نحو الأفضل، وهو يمكّن الفرد ويساعده على تطوير شخصيته من جوانبها كافة، روحية وفكرية وبدنية وسلوكية ووجدانية بصورة متكاملة.

وتتضح خطورة الأمر مع ما يتعاظم في عالمنا العربي من حرص المدارس على المناهج الدراسية والمواد التعليمية التي يأتي أغلبها في صورة التلقين والحفظ فيما يتراجع الاهتمام بالأنشطة المدرسية رغم كونها إحدى أدوات التربية وآلياتها لتثقيف وتنمية التلاميذ، وعلى قدر توغل مفهوم النشاط التعليمي في القدم- منذ عرف الإنسان التعليم بشتى صوره- إلا أنه يشهد تراجعا مع السنين لصالح المناهج الدراسية، بل مع وجود إشكاليات أخرى، منها ما يتعلق بالمربي كعنصر للتربية، ومن ذلك النظرة السائدة في كثير من الدول العربية والتي يشوبها الكثير من التناقض، فهناك- من ناحية- شعور بأن التعليم هو المستقبل، ومن يدخل من بابه يخرج ومعه ضمانات المستقبل والرقي والحراك الاجتماعي والاقتصادي، وفي الوقت ذاته هناك النظرة الدونية لمن يمتهن مهنة التعليم (١).

وإذا أردنا تأصيل قضية الأنشطة المدرسية فيمكننا تأمل طبيعة التلاميذ، خاصة في المراحل الأولى من الدراسة، وكونهم يميلون للحركة واللعب، ويتضايقون من طول الجلوس، ويملون من الحديث من طرف واحد، لذا فإن من شأن الأنشطة المدرسية في هذه المراحل أن تجعل المدارس بيئات جاذبة ومحببة لهم، فنحن لا نفتأ نذكر حصة الرسم التي كنا ننطلق فيها لنعبر بالألوان عن ذواتنا، أو حصة الألعاب التي نفرغ فيها طاقتنا وتوقنا للحركة والنشاط، أو تلك المسرحية التي نطقنا فيها بجملتين وسط تصفيق الزملاء وسعادتهم، ونتذكر أيضا كيف كنا نعود نشطاء متحمسين لدروسنا الأخرى بعد هذا النشاط.

ومن هنا يجدر بنا التعريف بمصطلح اللعب «فاللعب هو نشاط يقبل عليه الأطفال بحماسة بالغة من تلقاء أنفسهم، ويمضون الساعات في ممارسته، وقد اعتبره التربويون أحد عوامل نمو الطفل.. من خلال اللعب يتم إيصال المفاهيم والمعلومات وتطوير المهارات»(٢).

وبالتالي فدور الأنشطة المدرسية يمكن تعظيمه وزيادته إذا تم وفق أهداف تربوية، وبأساليب صحيحة، وعن اقتناع من القائمين على تطبيقها بأنها مفيدة ومؤثرة إيجابا في حياة الأطفال والمجتمع من بعد حين يشبون، وهنا يكون الدور الأكبر للمربي ومن يعهد إليه بالتنفيذ، إذ «ليس هناك ميدان من ميادين النشاط الإنساني تلعب فيه الموهبة دورا حاسما كما في الميدان التربوي، فالمربي الموهوب فقط، أي الشخص الذي يمتلك نزعة للتربية، يكون قادرا على احترام وحماية معجزة إنسانية الطفل التي يعجز الوصف عن وصفها، إذ إن احترام الإنسان يعتبر بداية ونهاية عموم ميدان التربية»(٣).

فعملية التربية علميا أمر وثيق الصلة بتلك الأنشطة المدرسية، والأكاديميون والباحثون يؤكدون أن «التربية لا تنحصر في مجرد تزويد الفرد بمجموعة من المهارات والمعارف والمعلومات، وإلا أصبح أثرها محدودا، وتوقفت الحضارة الإنسانية عن النمو، إنما يمتد أثرها لجميع جوانب الفرد، بالإضافة إلى ما لديه من مهارات مختلفة في كل متكامل»(٤).

والأمر السابق يسير مع التلاميذ والطلاب لمدى طويل أو حسب ما يقول علم التربية إن «التربية عمل يستغرق العمر كله، منذ بدء التكليف إلى انتهاء الأجل، ومن الخطأ تصور أنها بناء يتطلب بضعة شهور أو بضع سنين يعقبه استجمام أو استرخاء»(٥).

ويجدر بنا هنا توضيح ما للنشاط المدرسي من فوائد عديدة نذكر منها أنه:

أولا: يساعد على تكوين عادات وسلوكيات حميدة مثل تقدير قيمة الوقت واحترام الآخر والقبول بالاختلاف.

ثانيا: يكسب الطفل مهارات جديدة مثل الحوار البناء والإصغاء بالإضافة إلى مهارات تخصصية في المجالات الفنية والأدبية والرياضية وغيرها.

ثالثا: يتيح فرصا لابتكار وسائل وأساليب لتبسيط المنهج الدراسي وتسهيل استيعابه والزيادة في تحصيله.

رابعا: يجعل الطفل ينمو نموا نفسيا وسلوكيا رشيدا، فالتلميذ الذي يمارس الأنشطة المدرسية لديه قدرة أكبر على العمل في جماعة والتعبير عن نفسه وتقبل الاختلاف.

نظرة واقعية

ربما الطرح المستنير لأهمية الأنشطة المدرسية نفسيا وتربويا وأثرها الإيجابي على العملية التعليمية يعده البعض غير واقعي في ظل الأوضاع التعليمية والاقتصادية للكثير من الدول العربية التي تعد نسب الأمية فيها هي الأعلى عالميا، ولا تكاد تستوعب مدارسها التلاميذ في سن الإلزام المدرسي، مما يجعل المطالبة بتوفير إمكانات وقدرات تتيح للتلاميذ ممارسة الأنشطة ضربًا من العبث والمبالغة في غير محلها.

فعلى سبيل المثال تصل الأمية عربيا إلى نسب تتراوح بين ٣٠و٤٠٪ من المواطنين، وتصل كثافة التلاميذ في عدد كبير من الفصول بمدارس القرى وبعض المدن إلى سبعين تلميذا في الفصل، ولا توجد قاعات لممارسة أنشطة الموسيقى أو المسرح، وفناء المدرسة يتم تحويله إلى فصول دراسية لتقليل الكثافة واستيعاب تلاميذ جدد.

هذا مع قصور مهارات المعلمين وكما يقول الأكاديميون «إن المعلم الذي لا يوصل إلى طلابه سوى مفردات المنهج المقرر، ويستخدم الأساليب التي تعلمها في معهد إعداد المعلمين يمكن أن نشبهه بموزع حبوب علاج يتم تركيبها بموجب وصفة، ومن ثمّ لا

يخطئ من يظن أن التربية أمر غير وثيق بالأنشطة المدرسية

يمكن أن يكون طبيبا حقيقيا»(٦).

كما لا يوجد بهيئات التدريس بهذه المدارس من يقوم بتدريس الموسيقى أو الفن التشكيلي أو المسرح، للنقص الحاد في هذه التخصصات من خريجي الجامعات، ومن ناحية أخرى فإن الأسرة تعد الأنشطة المدرسية مضيعة لوقت أبنائها وترفًا لا يقدرون عليه، ولا طائل من ورائها، وينصب كل همهم في المواد الدراسية التي يمتحن فيها الطالب في نهاية العام، فيلجأون للدروس الخصوصية، ويكرسون ساعات كثيرة للمذاكرة طمعا في تفوق الأبناء والالتحاق بكلية تؤهلهم لفرصة عمل مستقبلا في ظل بطالة عالمية وتدنٍ شديد في الدخول ومستوى المعيشة.

هذا عن الواقع المعاش بالمدارس والمنازل، أما عن الخطط القومية أو السياسية التعليمية فهي لا تجاوز أحبارًا على ورق، وبرامج لا تبرح مكاتب كبار المسؤولين الذين لا يرغبون في الدخول في صراع ثقافي مع مجتمع تأطرت فيه ثقافات نفعية مباشرة، ولا تتجاوز خطط تطوير التعليم التي تعد بين حين وآخر، والمؤتمرات التي تعقد لهذا الغرض، كونها حوارات أشبه بالمجالس العرفية غير الملزمة، بينما «تطوير التعليم من أجل بناء المستقبل يجب أن يبنى على تكوين قدراته في إطار يسمح بالتفاعل المستمر بين المنهج العلمي المعاصر والأصالة الثقافية»(٧).

فالملاحظة الدقيقة لتطوير التعليم توقفنا على أنه افتقد الفلسفة الواضحة والعقيدة المتبلورة في كثير من العهود، وتعد هذه الفلسفة بمنزلة ذلك الخيط الذي يربط بين حبات العقد، بدلا من أن تتبعثر أو تتناثر(٨).

لكن هذه المعوقات وهذه الصورة التي تغلب عليها التشاؤمية والإحباط، لا يجب أن تثني أولي العزم من رجال التربية وعلمائها عن المضي قدما في البحث والحث على إعطاء الأنشطة المدرسية مكانتها ومساحتها وأهميتها، والتفكير في حلول ومقترحات بديلة تتغلب على العوامل الاقتصادية في المدارس والمجتمعات النامية، وتحول المدارس لبيئات جاذبة، والمناهج لعلوم محببة يقبل عليها التلاميذ، وتتقبل أسرهم مشاركتهم في النشاطات مادامت تؤتي ثمارها في زيادة تحصيلهم وذكائهم، وتميزهم الإنساني والدراسي على النحو المأمول.

الهوامش

١. د. حسن علي الإبراهيم: الكويت والمستقبل- التنمية والتعليم وجها لوجه- مطبعة ذات السلاسل- ص١٧.

٢. نجلاء نصير بشور: «ألعاب الأطفال.. وسائل لنقل الثقافة أم للتغريب»، بحث بكتاب «ثقافة الطفل العربي بين التغريب والأصالة، ص٣١١، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية.

٣. جوهانز. أ. بين «التقييم والشكل»، ترجمة صبري محمد عبدالغني، ص-٧٥ مكتبة الأسرة.

٤- وزارة التربية والتعليم المصرية: «سياسة التعليم في مصر»، ص٧- القاهرة- ١٩٨٥م.

٥. محمد الغزالي: تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل- دار الشروق- ٢٠٠٧م.

٦. جوهانز، مصدر سابق.

٧. د. أحمد فتحي سرور: إستراتيجية تطوير التعليم في مصر- ص ٩٦- مطابع الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية- القاهرة- ١٩٨٧م.

٨. د. سعيد إسماعيل علي: التعليم في مصر- ص ٣٤١- كتاب الهلال- القاهرة- نوفمبر ١٩٩٥م.

نعمة الذرية بين المنحة والمحنة

رضى الحمراني
باحث مغربي

قال الله جل علاه: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾(الشورى: ٤٩-٥٠)، يذكر الله تعالى عباده في مطلع الآية الأولى من كلامه العزيز بأنه خالق السموات والأرض ومالكها، وهو المتصرف فيها كيف يشاء؛ يعطي لمن يشاء ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، لذلك حين تحدث عن الذرية التي يمنحها لعباده استعمل لفظة «يهب»، فالذرية بهذا المعنى هي هبة من الله سبحانه يهبها لمن يشاء، وليست حقّا لأحد، وقد جعل بني البشر سواء، الأنبياء والرسل وحتى عامة الناس، وهم في مسألة النسل على أربعة أقسام، فلوط وشعيب عليهما السلام مثلًا وهبهم الإناث فقط، أما إبراهيم عليه السلام فوهبه الذكور فحسب، ووهب جل علاه لنبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلّم الإناث والذكور، أما عيسى ويحيى فلم يولد لهما.. في مطابقة مع ما ذكره القرآن الكريم.

ثمّ ختم سبحانه حديثه عن الذرية بقوله ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾، ومعنى عليم في هذا السياق أن الله عز وجل عليم بما يصلح أحوال عباده، فمنهم من تتفجر قدراته التربوية بوجود أبناء ذكور، ومنهم من تتحسن أحواله بوجود ذرية أنثوية، ومنهم من يصلحه عدم الإنجاب، إذ لو كان له ولد لشغله عن ذكر الله من فرط حبه وعنايته به، أو قد يكون ذلك الولد الذي يتمناه ابنًا عاقًا يُحَوِّلُ حياته إلى جحيم.

١- نعمة الذرية الأنثوية

من الملاحظات الرئيسية في الآيتين المدروستين في هذا المقال، أن الله تعالى قدم الإناث على الذكور ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، والسر في ذلك أن العنصر النسوي في عصر الجاهلية كان هو الجنس المبغوض غير المرغوب فيه قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾(النحل: ٥٨-٥٩)، ولم ينته الأمر عند حد كراهية البنات بل تعدّاه إلى قتلهن ووأدهن كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾(التكوير : ٨-٩)، لأن البنت ضعيفة لا تقوى على العمل خارج البيت، ولا تشارك قومها في حروبهم المستمرة، وهي عرض ينبغي المحافظة عليه، ولبلوغ هذا الهدف يستدعي ذلك الكثير من الحرص والمراقبة والرعاية.

إن البنت حين تُشَدَّدُ الرقابة عليها من طرف أسرتها تشعر بأنها عِبء ثقيل وهَمٌّ كبير، وأن أباها وإخوتها يكرهونها، فتدفعها هذه الوضعية البئيسة لتنظر لنفسها على أنها إنسانة حقيرة غير مرغوب فيها، مما يجعلها مدفوعة للاعوجاج، وترغمها هذه النظرة السلبية على التخلي عن دورها النبيل في المجتمع، فالبنت التي هانت على أهلها ونشأت وشبَّت وترعرعت بينهم على أنها إنسانة مذمومة لأنها مصدر العار والخزي والذلة، من الطبيعي أن تتعامل مع ذاتها على أنها كائنة رخيصة لا تساوي شيئا، لذلك تجدها مستعدة للتفريط في كرامتها وتُؤثر فيها إغراءات الطامعين في تدنيس شرفها، فتستسلم بسهولة لغوايتهم ولو بكلمة، لأنها تربت في بيت أهلها على كراهية واحتقار ذاتها.

إن العكس في هذه الحالة صحيح، فالبنت حين يحبها أهلها و يكرمونها ويُعزونها تُكَوِّنُ صورة إيجابية عن نفسها باعتبارها إنسانة محبوبة ومرغوبا فيها، فتتعود على الكرامة وعزة النفس ولا تقبل الإغراء أو الغواية أو الإهانة من أحد، لأنها نشأت وتربَّت وشَبَّت على أنها غالية عند أهلها عزيزة لديهم، فلا يجرؤ أحد على التعدي عليها ولو بكلمة.

٢- نعمة الأبناء الذكور

إن الابن الذكر هو نعمة من الله تعالى مثله مثل البُنَيَّة الأنثى لا فرق بينهما إلا بالتقوى، عكس ما كان يُمارس في الجاهلية القديمة من تفضيل للذكر على الأنثى، وهو الأمر الذي مازال ساريا في جاهلية القرن الحادي والعشرين، حيث يتشدد الوالدان في مراقبة ابنتهما، في حين يتم التساهل مع الابن الذكر الذي لا يخضع لأي رقابة تذكر، بل حتى إن أخطأ لا يحاسب على أخطائه لأنه رجل، والرجل في ثقافتنا المعاصرة المتحضرة لا تناقش زلاته، بل يتم إلقاء كل المسؤولية على عاتق الأنثى بمفردها، فهل هذا تحضر أم رجعية؟ والحقيقة أن كليهما ينبغي أن يستفيد من الرعاية والمرافقة الحكيمة، وكلاهما ينبغي أن يحاسب على الأخطاء التي ارتكبها بدون تمييز.

لكن السؤال الذي يبقى مطروحا، هل وصل تفريط الآباء والأمهات في تربية أبنائهم إلى حد إغفالهم لمتطلباتهم

المعنوية التي تعد أهم من إشباع حاجاتهم المادية؟ إن المنهج التربوي السليم يقتضي من الوالدين عدم الاكتفاء بإشباع المتطلبات المادية لأبنائهم، بل ينبغي أيضا العناية بحاجاتهم الروحية، فأولادنا ذكورا وإناثا متعطشون لمجالستنا وتجاذب أطراف الحديث معنا ليشعروا أنهم محبوبون من طرفنا، وأنهم شباب يستحقون الاهتمام والتقدير، مع مراعاة المتطلبات الخاصة لكل جنس، فالبنات يحتجن للتعامل برفق ولين ومودة مع شيء من الصرامة، أما الأولاد فبالإضافة لاستفادتهم من هذه الأساليب الحضارية في التربية فيحتاجون أيضا لجرعة إضافية من الحزم والصرامة لضبط سلوكاتهم المندفعة، مع ضرورة التذكير بأن الصرامة تعني إبداء نوع من الحزم والجدية دون المبالغة في استعمالها، حتى لا تنقلب إلى نوع من العنف والقسوة، لأن الشيء إذا زاد عن حدّه انقلب إلى ضده، فجرعة قليلة من الملح تجعل الطعام لذيذا ومفيدا للصحة، لكن الإكثار منه يجعل الطعام ممقوتا ومضرا بسلامة الجسم.

٣- الابتلاء بالعقم

لقد سبقت الإشارة إلى أن الذرية هي هبة من الله سبحانه يهبها لمن يشاء، وليست حقّا لأحد، فليس كل من ملك أسباب إنجاب الذرية يرزق بها، فقد يتزوج الإنسان ولا ينتج عن زواجه أبناء، ويُبتلى الزوجان بالعقم، وقد نسب سبحانه وجود حالة العقم لدى أحد الزوجين أو كليهما لتدخله الرباني المباشر حين قال: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾(الشورى: ٥٠) وليس العقم نتيجة عيب في أحد الزوجين، أو دليل على أنهما كالأرض القاحلة التي لا تنبت زرعا، بل هو ابتلاء من الله لهما ليختبر إيمانهما: هل سيرضيان بما كتب عليهما من حرمان من الذرية و يلجآن للطرق الطبية الشرعية لعلاجه، إن استطاعا إلى ذلك سبيلا، أم أنهما سيسخطان على هذا الوضع ويلجآن للمشعوذين والدجالين ليمنحوهما الأمل المنشود لاكتساب الولد المفقود.

ينبغي للأزواج المصابين بالعقم أن يعلموا بأن الله تعالى إن ابتلاهم بالحرمان من الذرية، فقد ابتلى سبحانه عبادا له آخرين بالعمى وحرمهم من نعمة البصر، ومنع آخرين من نعمة الغنى وابتلاهم بالفقر، وامتحن زمرة من عباده بالحرمان من نعمة الصحة وابتلاهم بالأمراض الجسدية والنفسية...إلخ، وكل بني آدم مبتلى، والله تعالى عادل في امتحان عباده بألوان الآفات ليمحص ما في قلوبهم من رضا أو سخط بقضائه وقدره.

إن الانسان الذي يرضى بهبة العقم يعوضه الله تعالى بأولاد آخرين، سواء ممن يزورهم في مراكز الأطفال المتخلى عنهم، أو الأبناء الذين يربيهم على سبيل التبني مع الاحتفاظ بنسبهم الأصلي، حيث يرى منهم من البر ما قد لا يراه من أبنائه من صلبه لأنهم مثله، فكما أنه حُرِمَ من الأبناء فهم محرومون من الآباء، فيتمتع ببرهم دون تعب الحمل والولادة، وبدون مشقة الرضاعة ودون عناء كبير في تربية هؤلاء الأبناء، وهكذا يصبح المنع من نعمة الذرية هو عين العطاء، ففي واقعنا المعاصر قد ينجب الأبوان ابنا لكنه يكون عاقا لوالديه، كما هو الحال في سورة الكهف، حيث قتل سيدنا الخضر الابن العاق، فاستنكر سيدنا موسى عليه السلام ذلك، فأخبره بأن سبب القتل هو العقوق، وأنه عمل على قتله عسى الله أن يعوض والديه بولد خير منه، وليس بالضرورة أن يلداه من جديد، بل قد يتبنون أحد الأيتام، أو أحد الأطفال المتخلى عنهم، فيكون خيرا من هذا الابن من الصلب.

خاتمة

إن الخلاصة التي يمكن أن نستخرجها من موضوع إنجاب الأبناء أن الله تعالى هو المتصرف فيه بإرادته الحكيمة، فيقسمه بين عباده كيف يشاء، إذ يجعل الذرية نعمة لبعضهم، وابتلاء لبعضهم الآخر، حتى لا يفخر أحد على أحد، لأن الإنجاب لا يؤثر على منزلة العبد عند الله عز وجل، فحين يهب سبحانه الذكور أو الإناث أو يزاوج بينهما، فلا يعني هذا رضاه عن عبده، وحين يحرم بعض عباده من الذرية فلا يعني ذلك بالضرورة سخط الرحمن عليهم، إنما هي سنة الله في خلقه، يهب ويمنع، وإنما يتفاوت الناس في قربهم أو بعدهم عن خالقهم بمقدار رضاهم أو سخطهم على ما قدّر الله لهم في مسألة الذرية.

مذكرات الفتاة المسلمة

سعاد بعوش
خبيرة تربوية - الجزائر

وأنا أتأمل واقع الفتاة المسلمة اليوم، حبّا وأملا فيها وطلبا لرؤيتها في أحسن حال، وجدت توجها واضحا لدى قطاع واسع من الفتيات إلى كتابة المذكرات، وإقبالا على شراء الدفاتر المخصصة لها بشتى أشكالها وألوانها، وجعلها رفيقا دائما، إذ تحملها في الحقيبة إذا خرجت، وفي المحفظة إذا درست، وتحتفظ بها تحت الوسادة إذا نامت، بل هناك من تعدت ذلك إلى كتابة مذكراتها على يوميات الفيس بوك.. تتبادلها مع صديقاتها!

والكتابة عالم جميل على صعوبته، يجالس فيه الإنسان نفسه، ويستخرج أفكاره ويترجمها إلى كلمات وفقرات ومواضيع، تتجلى من خلالها طريقة تفكيره وتصوره ونظرته إلى الأمور، ومواقفه من شتى شؤون الحياة وجوانبها.. ونقل ذلك للآخرين.

وكتابة المذكرات اليومية من قبل الفتاة يجعلها تقضي لحظات هادئة مع ذاتها، فتستفرغ ما في داخلها من حسن وقبيح، وتعبر في هدوء عما يؤلمها أو يسعدها، فتتخلص من الكبت وتخزين الأحاسيس المختلفة، مما يعود عليها بالراحة والانشراح، ويجنبها القلق والحزن والاكتئاب، خاصة أن فترة الصبا والفتوة فترة جد حساسة مليئة بالمشاعر والأحاسيس المرهفة.. ولحظات الصمت والتأمل.

كما أن كتابة المذكرات قد تسهم في تنمية مهارات الكتابة لديها، وتمكينها من امتلاك ملكة الكتابة، وهو توجه له فضائله من حيث الأصل، فتسهم في إيجاد امرأة كاتبة، تشارك بكتاباتها في نشر العلم النافع، والأدب الطاهر، والتصور الصحيح، والأفكار الرشيدة بين الناس عامة وبين النساء خاصة، وتنصر دينها، وتكون من الفاعلات في مجتمعها، وذات أثر في أمتها، وقدوة صالحة لبنات جنسها، ويزداد رصيدها من الحسنات، فكلمة تكتبها بعلم وصدق وإخلاص قد تفعل الكثير في حياتها وبعد مماتها، وهل دعا الرسل إلى توحيد ربهم وعبادته إلا بالكلمة؟! هذا إن كان الخير والفضيلة طريقها.

وقد توجهها ملكة الكتابة إلى دخول عالم القراءة المفيد الواسع، والسياحة في رياض الكتب، والتوغل بين طياتها وفي سطورها، والاستفادة الجمة مما حوته كلماتها وحروفها.. وكفى بالقراءة فضلا أنها تسمح للإنسان أن يعرف أفكارا غير أفكاره، وعوالم أخرى غير عالمه، ويجد فيها نبراسا يضيء أمامه الطريق، وأنسا ممن يدعم توجهه ويشجعه عليه، ويزيد دربه وضوحا، واقتناعه باختياراته قوة ويثبته في غربته، ويعطي نفسه فرصة معرفة الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، والحقيقة من الخيال، فيتعلم مناقشة نفسه فيما تدفعه إليه وتأمره بفعله- إن كان خطأ أم صوابا- فيقومها ويقودها إلى السعادة والطمأنينة.

كما أن كتابة المذكرات تعطي الفتاة فرصة النظر بتمعن وتركيز فيما عملته في سويعات يومها وهي تسجله، أو قامت به في بعض المواقف التي تعرضت لها، أو الطريقة التي تقضي بها حياتها، والتصورات التي تنظر بها إلى الأمور، فأتمنى لو نظرت حقا كل فتاة مسلمة في أفعالها وأفكارها ومواقفها تلك وأسرارها، أصحيحة

ترضي الله ورسوله ﷺ ويبيض وجهها لأجلها يوم تكشف الأسرار وتبيض وجوه وتسود وجوه؟ أم مليئة بالهوى واتباع خطوات الشيطان؟

وتتساءل مع نفسها دون أن يسألها أحد: أين كتبت أعمال يومها ذاك، أفي ميزان الحسنات أم في الكفة الأخرى والعياذ بالله؟ أكتبها ملك اليمين أم ملك الشمال؟ ولا تحتقر في ذلك عملا أو تصرفا، ولو كان صغيرا، فالله عز وجل يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾(الزلزلة: ٧ - ٨).

وددت لو تكون صفحات تلك المذكرات مرصعة بالأشياء الجميلة.. من الهمة العالية، والأحلام الوردية، والآمال الرائعة، والطموحات العالية، والجد والاجتهاد في طلب العلم، وبناء شخصيتها البناء السوي القائم على هدي الإسلام، وقيادة النفس قيادة رشيدة نحو الخير، متوجة بالأمل والعمل والتفاؤل والتخطيط، والمحاولة تلو المحاولة حتى تحقق النجاح، وتكاد تكون خالية من سفاسف الأمور وأمراض القلوب والنفوس..ومن العجز والكسل والفتور الدائم، والتخبط والاضطراب والتيه والضياع.. تعلن عن مخاض لميلاد امرأة صالحة فاعلة تكون في أمة النساء شامة.

وددت لو كانت مذكرات الفتاة المسلمة عامرة بالإيمان والعمل الصالح، من طاعة لله جل وعلا، وحبه وشكره على نعمه، والقرب منه والتوكل عليه في الأعمال كلها، صغيرها وعظيمها، دائمة العودة والإنابة إليه..يلهج لسانها باستغفاره والتوبة إليه.. لأن الإيمان والعمل الصالح من صفات عباد الله الطالبين رضاه تعالى وتثبيته ودخول جنته. كما تكون في مذكراتها واضحة الرضا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا لتذوق طعم الإيمان.. كاملة الثقة أن درب أهل الإسلام وحدهم درب الفائزين والناجحين والمتميزين.. لأنهم أهل الاعتقاد الصحيح والتصور الواضح والموازنة الموفقة في حياتهم بين الدنيا والآخرة، ولأن هذه الحياة مؤقتة وستنتهي شاء من شاء وأبى من أبى.. لتبدأ الحياة الأخرى والفوز فيها لمن عرف ربه هنا واتقى.

وددت لو كانت مليئة بمعاني حب النبي ﷺ واتباعه، فخورة بالانتماء إلى أمته.. أمة الإسلام.. سعيدة لأنها من القلة الغرباء الذين أحبهم دون أن يراهم، عزيزة بعزة الإيمان.. فالعزة في هذا العالم كله لله ولرسوله وللمؤمنين.. كثيرة الصلاة عليه، تود لو يوفقها الخالق سبحانه لخدمة دينه والدعوة إليه، وهداية الخلق إلى رحاب السعادة الإيمانية التي ذاقت من قطوفها الدانية.

وددت لو كانت مزينة بأخلاق الإسلام.. الدين العظيم، وأخلاق سيد المرسلين ﷺ، من صدق ووفاء وأمانة، وكرم ونبل وحياء وغض بصر وتواضع، وخدمة للخلق وإحسان إليهم، وابتعاد عن كل خلق قبيح من خيانة وغدر وتكبر واسترجال، وسخرية من الآخرين وغيبة ونميمة.. لأن الأخلاق من أثقل الأعمال في الميزان، وهي أقصر الطرق إلى قلوب الخلق، وبها ينتشر الحب والتواد بين الناس، وهي زينة للفتاة وجمال لا تضاهيهما قيمة أخرى.

وددت لو كانت هذه المذكرات مميزة بكثرة الدعاء والابتهال، لأن الدعاء سلاح المؤمن وإحدى علامات الإيمان ومعرفة الله وحسن العلاقة معه، ودلالة على فهم أسرار الكون والحياة في ظل العقيدة الإسلامية، والدعاء من أقوى أسباب التوفيق والسداد، وصورة شفافة للاستسلام لله والتذلل له والخضوع وطلب معونته وحفظه ورعايته. ولأن حاجات المرء في الحياة كثيرة ومتنوعة، وهو ضعيف عن جلبها كلها أو تحقيق جلها. وأول هذه الحاجات الهداية ومعرفة الحق واتباعه والثبات عليه، ثم يأتي كل ما يشغل بال الفتاة من خواطر وآمال وأمنيات.. فحقيق بالفتاة المسلمة أن تتسلح بالدعاء والاستعانة بالله والتوكل عليه.. وتمكن نفسها من أسباب استجابة الدعاء من أكل الحلال ومعرفة الله في أيام الرخاء، وعدم الإصرار على الذنوب، والعمل الصالح بإخلاص، والخشوع لحظة الدعاء، والثقة في الله واليقين بالاستجابة.. فيا بشراها بعد ذلك بالتوفيق والهناء.

وددت لو كانت مذكراتها مليئة بالشوق لجنات الرحمن، جنات عدن التي تجري من تحتها الأنهار، لتستقوي بذلك الشوق على فتنة هذه الحياة وقوة تيار الفساد والانحراف فيها، تعقد في هدوء بداخلها المقارنات بين نعيم الجنة من صفات نسائها وأنهارها وأشجارها وطعامها وشرابها وتزاور أهلها وهناء عيشها، وخلوه من كل كدر وخلودها ورؤية خالقها.. وبين طيبات هذه الدنيا الفانية، خاصة ما كان منها محرما، لتشد أزر نفسها وتدفعها إلى التورع والارتقاء أمام كل غواية شيطان أو إنسان، أو حتى بعد كل زلة؛ لتعود من جديد إلى الصراط المستقيم.

وددت لو كانت مذكرات الفتاة المسلمة معطرة بنسائم الأخوة في الله الرائعة، بمصاحبة الفتيات المؤمنات صحبة إيمانية.. قائمة على التعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق والصبر.. فهن أنس في غربة الحياة، وعون على صعوبة ووحشة الطريق.. ويكفي أن الأجسام قد تفترق، لكن القلوب تظل سياحة في ظلال ذكرياتها، وقد يوفقها الله في لحظة عسر، أو يفرج كربها في ليل حالك بدعاء خالص من أخت لها في الله ذكرتها بين يدي ربها فتنزلت عليها الرحمات وهي لا تدري..وما رأيت الوفاء بين الأصدقاء دائما إلا بين المتحابين في الله؛ لأن قلوبهم معلقة بمنابر النور.

هكذا وددت أن تكون عناوين الحياة في يوميات الفتاة المسلمة- أمل الأمة- سواء كتبت في مذكرات، أو سجلت في كتابها من قبل ملكي الحسنات والسيئات.

الأسرة بين الشرق والغرب

محمد شعطيط
كاتب مصري

نشرت أحد المواقع الإلكترونية خبرا مفاده أن محكمة بريطانية قضت بسجن شاب في العشرين من عمره ستة أسابيع، ومنعته من إرسال شتائم إلى والدته عبر موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك»، كما أمرته بعدم الاتصال بوالدته بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

زرع الغرب رياح الماديات والعنف واللذة والانحراف ومعاداة الأديان والتمرد على السنن الإلهية، فحصد عواصف من العقوق والتفكك الأسري والجريمة والقتل.. ومازال عقلاؤه ينادون بتدارك الأمر قبل فوات الأوان، ولكن أمواج الحضارة الزائفة غلبت مظلتهم اليتيمة، فأغرقت أصواتهم وسط بحر من دعاة اللذة والمتاجرين بالمنفعة المادية على حساب القيم والمبادئ.

وقد دعا أحد كبار مسؤولي الأمن في إحدى الدول الغربية الفتيات إلى الاحتشام في اللباس وستر المواضع الحساسة من أجسادهن بعد وقوع جريمة اغتصاب في مدينته، فقامت الدنيا ولم تقعد مستنكرة هذا التصريح، ومعتبرة إياه تدخلا في الشؤون الشخصية، وحجرا على الحريات، ودعوة إلى الرجعية والظلامية، ونوعًا من التزمّت المرفوض في المجتمع الغربي.

لقد أسمعت لو ناديت حيا
ولكن لا حياة لمن تنادي

لقد علم الغربيون أن الطريق الذي يسلكونه هو أحد أسباب هلاك حضارتهم، وأن المدنية الغربية سيدكها بأداتها قرن نطوح يهوي بها إلى مجاهيل التاريخ بعد أن فشت فيهم الفاحشة وأعلنوا بها، بل شجعوها ودعوا إليها وموّلوها وحموها بقوانين، وجعلوها من حقوق المواطن ورمزا للحضارة والتقدم والعالم الحر.

إن مقارنة بسيطة بين الأسر المسلمة والأسر الغربية ليظهر ذلك البون الشاسع بين حضارة نبراسها القرآن وسنة سيد ولد عدنان، وبين حضارة زائفة زائلة قامت على شفا جرف هار يوشك أن ينهار بها في واد من أودية الهلاك.

وهذه المقارنة ليست على إطلاقها لكن أحكامها تقع على الغالب، فقد تكون هناك بعض الأسر المسلمة التي تجد بها من السلوكات شبيه ما عند الغرب، وقد نجد أسرا غربية فيها من الأخلاق ما نجده تماما في مبادئ الإسلام، فالعبرة بالعموم لا بالأحوال الخاصة والاستثناءات.

١- أول ما يستوقف الباحث طهارة رحم المرأة المسلمة، وهي لا تحتاج- بحمد الله- إلى بحوث أو دراسات، كما نشر أخيرا عن أميركي قام بدراسة حول الأرحام عند مختلف الأجناس، فوجد أن رحم المرأة المسلمة من أطهر الأرحام على وجه البسيطة، بينما نجد الغرب يشكو من انتشار أولاد الزنا، والحمل خارج نطاق الزواج، وارتفاع نسب الإجهاض، وحمل المراهقات، حتى أصبحت الإحصاءات تتحدث عن أرقام مرتفعة من الفتيات اللاتي يصرن حاملات في سن مبكرة قبل أن يبلغن الثانوية، بله الجامعة.

٢- اعتناء الأسر المسلمة بالرضيع من حيث إرضاعه طبيعيا وتمتيعه بالقدر الكافي من الحنان والعطف، عكس ما يعانيه الطفل في الغرب من افتقاده لدفء الأم وحنانها واستعاضتها بالرضاعة الاصطناعية أو تقديمه لمربيات داخل المنزل أو في دور الحضانة.

٣- الانسجام والتلاحم بين أفراد الأسرة المسلمة في شتى المجالات، حتى بعد كبر الأبناء وتزوجهم، حيث تبقى العلاقة وطيدة والعائلة متماسكة، تجتمع في المناسبات الدينية والاجتماعية تحت سقف واحد رغم تباعد المسافة ومشقات السفر.. بينما نجد الأسر في الغرب تشكو من الشقاق والقطيعة، فأغلب الزيجات

يحصل فيها الطلاق، حتى قبل بلوغ الأطفال سن المراهقة، ففي بريطانيا وحدها التي تعرف أكبر نسبة للتفكك الأسري لا يعيش سوى ٦٨٪ من الأبناء مع والديهم، كما أن من بين ١٠٠٠ طفل نصفهم تقريبا ينفصل آباؤهم قبل بلوغهم سن السادسة عشرة، وهذه النسب متقاربة في المجتمعات الأوروبية وأميركا، دون الحديث عن تحدي الأبناء لآبائهم عند بلوغهم سن ١٨، وهو السن القانوني الذي يخول للابن أن يتصرف كيف يشاء، دون أن يحق لوالديه أن يتدخلوا في شؤونه إلا من باب الاستشارة والرأي، إن ظل يستمع لرأيهم.

٤- عند الأسر المسلمة تتم العناية بإنجاب الأبناء واعتبارهم امتدادا لوالديهم ورجاء دعائهم بعد الوفاة، أما عند الغرب فإن الإنجاب عندهم أعز من عنقاء مغرب، لأنه في نظر الكثير من نسائهم تقييد لحريتهن وتكبيل لهن، ووأد لشبابهن في توفير متطلبات الرضيع من اهتمام وعناية وتنظيف ورضاع وغيرها. حتى أصبح الغرب يشتكي من انخفاض معدلات الإنجاب، وأصبح يتحدث عن انقراض المجتمعات الغربية بعد أن أصبحت الأسر الوافدة من الدول المسلمة تنجب أكثر مما تنجب الأسر الغربية نفسها، حتى إن دولا مثل بريطانيا بلغت نسبة الأطفال فيها في الأسرة الواحدة ١,٨ وهو رقم مخيف، نظرا للشيخوخة التي بدأت تغزو المجتمعات الغربية عموما.

٥- عواطف جياشة وصلة للرحم وتواصل بين أفراد الأسر المسلمة، في حين نجد برودة العواطف بين أفراد الأسرة في الغرب؛ فلا يزور الأبناء آباءهم إلا في مناسبات قليلة بينها أعياد الميلاد، هذا إذا تذكره، وقد يكتفي بإرسال بطاقة تهنئة أو بريد إلكتروني، أما إذا شاخ الأب أو هرمت الأم فإن مكانهما دور العجزة، فهي الكفيلة بالعناية بهما في مجتمع همه الوحيد هو التمتع بالملذات، ولا وقت لديه للعناية بأمه المريضة أو أبيه العجوز، مادام أنه سيدفع المال لمن ينوب عنه في هذه المهمة، ومن الطرائف التي وردت في هذا الباب أن أبًا دخل على ابنه وهو يرسم منزلا فسأله عن عدد الغرف وساكنيها.. فأجاب الطفل ببراءته: هذه لي، وهذه لزوجي، وهذه لأبنائي. فقال الأب: فأين غرفتي أنا وأمك؟ قال الابن: لا توجد لكما غرفة في بيتي، لأنكما حينها ستكونان في دار العجزة. ففطن الأب إلى خطئه فذهب لتوّه ورد أباه إلى المنزل بعد أن كان قد وضعه في أحد دور رعاية كبار السن.

وفي مقابل هذه السلوكات وأضرابها التي- للأسف- أصبحنا نسمع عنها حتى في بعض الأسر المسلمة؛ يأتي البيان القرآني الشافي الذي يسيل عذوبة ورقة، ويسري في جسد المرء من ناصيته إلى أخمص قدميه، معلنا الصلة القوية بين عبادة الله عز وجل وبر الوالدين، صلة لا تنقطع ولن تنقطع، مادامت السموات والأرض، ومهما تقدم الإنسان وبلغ من منازل الحضارة ما بلغ، يقول الله عزوجل: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ (الإسراء: ٢٣-٢٤)، ليس في الكون خطاب يدعو إلى الاعتراف بالصنيع، ورد الجميل، وعرفان الفضل لذوي الفضل من دعوة القرآن الكريم إلى بر الوالدين بهذا الأسلوب الندي الذي يقطر رحمة ولينا وأدبا وحنوا وذلا ودعاء.

إن الغرب قد استطاع- على حد تعبير أحد أبنائه- أن يطير في الهواء كالطير، وأن يسبح في المياه كالأسماك، لكنه لم يتعلم بعد كيف يمشي على الأرض.. انهمك في التجديد والتحديث على مستوى التقنية والصناعات والابتكارات العلمية، لكن هذا التقدم على المستوى التقني لم يقابله تقدم على المستوى الروحي والاجتماعي، فانتشرت الجريمة والسرقة والقتل والنهب، وأصبح الغرب يتحدث عن نسب مهولة من التفكك الأسري والتمزق الاجتماعي.

لقد عملت الحياة الحديثة على تغيير طبيعة العلاقات بين أفراد الأسر، وأصبح الاهتمام الأكبر ينصب على المادة بدل الروح، كما انشغل الناس بالمظهر على حساب الجوهر، وأصبح الطفل ينال العقوبة إذا أتلف الأشياء الباهظة الثمن، لكنه لا يقابل بالأسلوب نفسه ولا يعاب عليه إذا ترك فريضة من الصلوات، فتعاظم عنده حب ما عظم الأبوان، وتصاغر عنده ما همشاه وأقصياه من حسبانهما.

فلنعد تقييم الأشياء، ولنعظم ما عظمه الله، ولنغرس في الأبناء تعظيم الأخلاق والقيم، ولنستجب لدعوة النبي الكريم ﷺ في توقير الكبير ورحمة الصغير، وأن نعرف لعالمنا حقه.. بهذه الأخلاق سادت الأمة الإسلامية سائر الأمم، وتقدمت قطار الحضارة ردحا من الزمن، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

إن الحضارة الغربية تكاد تعلن إفلاسا شاملا في مختلف المجالات، فبعد الأزمات الاجتماعية والأخلاقية جاء دور الأزمات المالية والاقتصادية والسياسية، وإن عقلاء الغرب يدقون ناقوس الخطر، فهل آن أوان العاقلين منا أن يكفوا عن دخول جحر الضب، واتباع سنن من قبلهم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وأن يلتزموا نهج الرسول الكريم ﷺ لتعيش أسرنا في نعيم مقيم، تعامل فيه الأمهات في بيوتهن معاملة الملكات، كما تمنت ذلك إحدى الغربيات.. نرجو ذلك، وما هو على الله بعزيز.

كيف نتعامل مع هذا الطفل؟

أخاف النوم وحدي

ريهام عاطف- القاهرة
دار الإعلام العربية

الخوف ظاهرة طبيعية عند كل طفل، إلا أن هناك مخاوف قد تصل إلى حالة من الرهبة والفزع المرضي، ولعل خوف الأطفال من النوم بمفردهم مسألة تزعج الآباء والأمهات وتثير قلقهم، ليمثل وقت النوم بالنسبة للطفل وقت الرعب والخوف، خاصة أن بعض الأسر تخصص موعدا محددا لنوم الطفل مهما كانت الظروف، حتى وإن كان منهمكا في اللعب، فبمجرد أن يأتي الوقت يجبر على ترك كل شيء بيده ويدخل لينام، وهو ما يزيد من اضطراباته الداخلية، ويزيد من حجم المشكلة، فتصبح مسألة تعويده على النوم بمفرده مشكلة في حد ذاتها تحتاج من الأم إلى المزيد من الصبر والهدوء.

د.هاشم بحري: اعرفي أسباب مخاوفه لتعيدي إليه أمانه النفسي

وهناك بعض الأمهات ممن لا يقدرن على مواجهة دموع أطفالهن في هذا الموقف، لاسيما إذا كان الطفل الأول للأسرة، واعتاد منذ صغره ألا يغادر سرير والديه، فيزداد إحساسه بالوحشة والغربة حينما ينتقل إلى مكان جديد لم يعهده، ما يزيد من حيرة الآباء والأمهات في تحديد السن المناسب لتعويد الطفل على النوم وحيدا، والانتقال إلى غرفة مستقلة، دون أن يترك بداخله الآثار النفسية السيئة.

عامليه بعقلانية

وفي هذا الصدد، نصحت العديد من الدراسات الأمهات بضرورة فصل الرضيع عنها أثناء النوم، حتى يعتاد على ذلك، لكن على العكس أشارت دراسة بريطانية إلى ضرورة نوم الرضيع قريبا من صدر أمه؛ للتمتع بنوم أفضل مما لو نام بمفرده.

ونصحت الدراسة التي قام بها طبيب الأطفال «د.نيل بيرجمان»، أن ينام الطفل مع أمه حتى يبلغ الثالثة من العمر؛ لحماية قلبه الذي يجهد بصورة أكبر إذا ما نام بمفرده، مؤكدا على أن ترك الرضيع ينام بمفرده، يعرضه لمشاكل سلوكية في المستقبل، وقد يتسبب في تأخر تطوير الدماغ.

جاءت هذه الدراسة نتيجة مخاوف من زيادة عدد وفيات الرضع في المهد، والتي عرفت بـ«متلازمة موت الرضع المفاجئ»، لحث الأمهات على عدم ترك أطفالهن ينامون في غرف مستقلة بعيدا عنهن.

وأكدت الدراسة أنه لكي يتمتع الطفل بنوم هادئ ليلا، لابد للأم من اتباع بعض النصائح منها:

١- ضعي روتينا يوميا للنوم، وذلك بإعطائه حماما دافئا، أو قص حكاية له، كما يساعد الالتزام بمواعيد معينة لنوم القيلولة والنوم ليلا على ضبط الساعة البيولوجية للطفل بالتعود على هذه الأوقات فيستغرق في النوم سريعا.

٢- ساعدي الطفل على النوم بسرعة، وذلك بتجنب الأصوات المرتفعة عند نومه.

٣- لا يحتاج الطفل إلى حجرة دافئة للنوم بها، كما أنه لا يوجد حرارة معينة تصلح للأطفال، لكن إذا وجدت أطرافه باردة فعليك تدفئته، ولا ينصح بتغطية الطفل بأغطية كثيرة، فقد تتسبب في إحداث بعض المخاطر.

٤- ابقي بالقرب منه، كما يمكنك وضع سرير صغير لطفلك بعجلات في أي مكان في غرفتك، وعليك الاحتفاظ بسلة الحفاظات والملابس النظيفة لتغيير ملابسه.

وذكرت إخصائية الرعاية الأسرية «جوان نيجيتو»، أن تعامل الأبوين مع رفض الطفل للنوم بمفرده ينبغي أن يختلف حسب كل حالة، فإذا كان معتادا على النوم وحده، ثم طلب فجأة من أحد أبويه أو كليهما النوم معه، فعليهما إعادة النظر فيما يسمحان للطفل بمشاهدته على شاشة التلفزيون أو ألعاب الفيديو، والذي قد يتسبب في عدم شعوره بالأمان، من خلال رؤيته لكوابيس تخيفه أو بسبب تخيله أشياء مرعبة، موضحة أن ما يتراءى لبعض الأطفال من صور مخيفة في الأحلام من ديناصورات أو مخلوقات فضائية يبدو لهم حقيقيا، لأنهم يكونون في طور تعلم التمييز بين الحقيقة والخيال.

وأشارت إلى أن الطفل في هذه الحالة يكون في حاجة إلى حب الأبوين واحتوائهما، حتى يسترجع إحساسه بالأمان، ويتعود مجددا النوم بمفرده، ونصحت الآباء بتوجيه الطفل إلى مشاهدة الأفلام الكارتونية الهادفة، والتي تسهم في بناء شخصيته، وتشعره بالقوة والأمان، لا الخوف وعدم الاتزان، كما نصحت كل أم بالتعامل بقدر من العقلانية والصراحة مع الطفل، فتعطيه الحلول التي تساعده على التخلص من شعوره بعدم الأمان، فلو كان يتخيل وحوشا في غرفته أو أشياء تخيفه، يمكنها أن تعطيه جهاز إضاءة محمولا، يوجهه إلى المكان الذي يعتقده مصدر ظهور ما يخيفه، حتى يتأكد من أن ذلك مجرد تخيلات، وأن تمكث بجانبه حتى يخلد إلى النوم، ويجب عليها أولا أن تعرف سبب شكواه من النوم بمفرده، وتثقيفه بالمعلومات الخاصة بالنوم، كأن تشرح له أن بعض الناس ينامون بسرعة، ويحتاج آخرون إلى نصف ساعة أو أكثر لحين الخلود للنوم، وأنه من الطبيعي أن يستيقظ المرء في الليل من ٣ مرات إلى ٥ مرات كل ليلة، وأن ما عليه عند الاستيقاظ ليلا، معاودة إغلاق أجفانه لإكمال نومه.

وحثت «نيجيتو» كل أبوين على تعويد أطفالهم الصغار على النوم باكرا كل مساء، وإلهائهم في النهار عن النوم، حتى لا تضطرب ساعة نومهم البيولوجية ويختل برنامجهم الروتيني، فالطفل يحتاج إلى قسط وافر من الراحة، ويمكن اللجوء لبعض الحيل لتعويده على النوم وحده ليلا ومن بينها:

١- منح الطفل وقتا كافيا لممارسة أنشطة هادئة تسبق النوم، وتجنيبه مشاهدة الأفلام المخيفة أو العنيفة التي لا تتناسب مع سنه، إضافة إلى تجنب الإكثار من الزيارات الليلية حتى لا يحرم من النوم باكرا كما اعتاد.

د.هبة: عوديه منذ الصغر الاعتماد على نفسه وامنحيه الحنان والأمان طوال اليوم

٢- وضع برنامج روتيني ثابت، وتعويد الطفل على الالتزام به، فما أن يسمع دقات عقارب الساعة على الثامنة مساء مثلا، حتى يهرول إلى الحمام لغسل أسنانه بالفرشاة والاستحمام وارتداء لباس النوم، ثم لعب لعبة فيديو هادئة أو الاستماع إلى القرآن الكريم قبل النوم، أو قراءة حكاية ما قبل النوم، ثم تقبيل أبويه قبل إطفاء أنوار الغرفة والخلود إلى النوم.

٣- تغيير ديكور وتصميم غرفة نوم الطفل ودرجات إضاءتها من فترة إلى أخرى، ومحاولة أن تكون ألوانها هادئة حتى تساعده على الاسترخاء والنوم.

اعرفي سبب مخاوفه

إلى ذلك، يوضح أستاذ الطب النفسي بجامعة الأزهر د.هاشم بحري، أن خوف الطفل من النوم بمفرده، يرجع إلى أسباب يجب أن تعرفها الأم جيدا، لتعيد إليه الأمان النفسي الداخلي، فقد يكون ارتباطه الزائد بأمه، واعتياده على النوم بجانبها منذ صغره، سببا فيما يشعر به من خوف حينما يطلب منه النوم بمفرده، ما يصيبه بالفزع وربما الصراخ أو البكاء ليستميل قلبها، وحتى تشعر أنه بحاجة إليها فتعود مجددا لتنام بجانبه، أو قد يكون اعتياده على مشاهدة أفلام العنف والرعب، أو وجود شيء يخيفه من المدرسة أو أصدقائه سببا في إثارة خوفه، والذي غالبا ما يتجسد له عند بداية الدخول في مرحلة النوم.

وينصح «بحري» الأم أن تحاول أن تتقرب إلى طفلها وتشعره بالأمان النفسي والحنان طوال اليوم، وأن تتعرف على سبب مخاوفه التي تمنعه من النوم بمفرده، ولا مانع من أن تعود في الفترة الأولى إلى النوم بجانبه مرة أخرى؛ لتحكي له قصصا مسلية وطريفة تطمئنه وتزيل مخاوفه، كما يمكنها أن تخصص له كشافا صغيرا ذا ضوء خافت في غرفته أو بجانب سريره؛ ليضيئه وقت النوم ليشعر بالأمان.

د.محمد رفعت: كلما كان السن مبكرا كان أنسب لتعويد الطفل

أشعريه بالأمان

أما أخصائية العلاج النفسي د.هبة الخازندار، فترى أن شعور الطفل بالخوف المرضي من النوم بمفرده يعود في الأساس إلى عدم إحساسه بالأمان، فقد تكون الأم منشغلة عنه طيلة النهار، أو أن والديه يتركانه فترات طويلة مع أشخاص غرباء، أو يضربانه حينما يرتكب خطأ، فكل هذه الأمور تسهم في زرع الإحساس بالخوف وعدم الأمان بداخله، ما يجعله ينتظر بفارغ الصبر وقت النوم؛ لأنه في نظره الوقت الوحيد الذي يشعر فيه بالدفء والأمان في حضن أمه، لذلك من الطبيعي أن يقابل فكرة النوم منفردا بمزيد من الخوف والفزع، بل أحيانا البكاء الهستيري.

وتضيف أن الأم يقع عليها العبء الأكبر في إزالة مخاوف طفلها، لذلك عليها أن تعوده منذ صغره أن يعتمد على نفسه، كأن تشجعه على خلع ملابسه بمفرده، وإعداد حقيبته المدرسية وحده، فهذه الأمور تسهم في زرع قيمة الاعتماد على النفس بداخله، وتساعده في بناء شخصية قوية مسؤولة منذ صغره، كما أن إزالة المخاوف الداخلية تعتمد على تعريضه تدريجيا للشيء الذي يخيفه، فعلى سبيل المثال حينما يخشى الطفل مكانا معينا، يعتمد أسلوب العلاج على أن تقوم أمه بالذهاب معه إلى هذا المكان؛ لتثبت له أنه لا داعي للخوف، وأنه مكان آمن؛ ولتعويد الطفل على النوم بمفرده، على الأم أن تأخذ الأمر بشكل تدريجي، فمن المستحب أن يبدأ الطفل بالنوم في غرفة منفردة منذ أن يبلغ العامين والنصف أو الثلاثة أعوام، فكلما بدأ الأمر مبكرا أسهم في اعتياده عليه بشكل أسرع.

من ناحية أخرى يمكن للأم أن تحبب الطفل في غرفته بوسائل عدة، فمثلا تحيط سريره بجميع الألعاب التي يحبها، مع ترك إضاءة خافتة له في الغرفة؛ كي لا يخاف من الظلام الدائم، ثم تغلق عليه باب الغرفة وتتركه وتخرج، فتلك الطريقة تشعره بأن له عالمه الخاص به الذي يريد أن يعيش فيه كل مساء قبل الخلود إلى النوم، ومع الوقت ستجده تدريجيا ارتبط نفسيا بغرفته وسريره ولا يرغب في النوم خارجها.

عليها أيضا أن تعطيه القدر الكبير من الحنان والأمان طوال اليوم، ولا تنتظر فقط وقت النوم لتشعره بحبها، فكلما شعر بالحنان والاهتمام طوال الوقت سيجد أنه ليس في حاجة إلى انتظار وقت النوم ليشعر بالأمان.

تدرج

أما أخصائي الأطفال د.محمد رفعت، فيرى أن السن المناسب لتعويد الطفل لينام مستقلا، من الممكن أن يبدأ من سن ستة أشهر، على أن يتم بشكل تدريجي وعلى فترات متباعدة، بمعنى أن ينام مع الأم يوما واليوم آخر ينام في غرفته، ومن الأفضل أن تخصص أوقات نوم الطفل القصيرة معها، كالقيلولة مثلا، على أن تتركه ينام ليلا وحده في سريره؛ لأن النوم لفترات طويلة بجانب والديه يزيد من تعلقه بهما، ويصعب من المهمة فيما بعد.

ويضيف أنه كلما كان السن مبكرا كان أنسب لتعويد الطفل على مختلف الأمور، وليس فقط النوم مستقلا، فهذه السن تسمح بتعويده على بدء تناول الطعام، إلى جانب الرضاعة، كذلك تناول الطعام بالملعقة وغيرها.

ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» على إشاعة الثقافة الواعية والمعلومة الصحيحة المنضبطة بضوابط التوثيق العلمي، فقد رأت المجلة أن تعيد التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقًا لما يلي من الشروط:

ما يتعلق بالكاتب

- أن يكون الكاتب متخصصًا في مجال كتابته وأن تؤهله ثقافته للكتابة في الموضوع الذي يتطرق إليه .
- أن يرسل صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة لسيرته الذاتية.
- أن تكون المراسلات باسم رئيس التحرير.
- أن يكون العنوان كاملًا، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس، مع ضرورة إرسال البريد الالكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- أن يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- أن يكون المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- أن تكون الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة مخرجة.
- أن تكون المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية.
- ألا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، وأن يبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- أن تكون الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات مقرونة بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال منشورًا في الصحف والمجلات المطبوعة و الإلكترونية.

ملاحظة: المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها.

الوعي الإسلامي

قصة التاريخ الهجري

د. مسعود صبري
دكتوراه في الفقه الإسلامي

عرف الإنسان التاريخ منذ وجوده على الأرض، ومر التاريخ بمراحل متعددة منذ آدم إلى مبعث النبي ﷺ. فقد أرخ أبناء آدم من هبوط آدم من الجنة حتى مبعث نوح عليه السلام، فكان هذا هو التاريخ الأول، ثم كان التاريخ الثاني من بعث نوح عليه السلام حتى الغرق، ثم كان التاريخ من الطوفان إلى نار إبراهيم، فلما كثر بنو إبراهيم أرخ بنو إسحق من نار إبراهيم إلى مبعث يوسف، ومن مبعث يوسف إلى مبعث موسى، ومن مبعث موسى إلى مبعث ملك سليمان، ومن ملك سليمان إلى مبعث عيسى، ومن مبعث عيسى إلى مبعث محمد على الجميع الصلاة والسلام.

وأرخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم -عليه السلام- إلى بنيان البيت الحرام، ثم إنهم أرخوا من موت كعب بن لؤي فأرخوا من موته إلى عام الفيل، ثم من عام الفيل حتى أرخ بهجرة الرسول ﷺ سنة سبع عشرة من الهجرة.

وكانت العرب في الجاهلية يؤرخون بأيامهم، وحوادثهم، وكانت النصارى تؤرخ بعهد الإسكندر المقدوني، وكانت الفرس تؤرخ بملوكهم.

بداية التاريخ الهجري

والمشتهر أن أول من أرخ في الإسلام هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لكن هناك روايات تثبت أن أول من اهتم بالتأريخ في الإسلام هو رسول الله ﷺ، فقد ورد أن النبي ﷺ أمر بالتاريخ يوم قدم المدينة في شهر ربيع الأول.

وذكر الإمام ابن الصلاح الفقيه الشافعي أنه وقف على كتاب ذكر فيه أن رسول الله ﷺ أرخ بالهجرة حين كتب الكتاب لنصارى نجران، وأقر عليا أن يكتب فيه «إنه كتب لخمس من الهجرة».

ويذهب غالب المؤرخين إلى أن عمر رضي الله عنه هو من أرخ لتاريخ الإسلام بالهجرة بمشورة علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم، فقد ذكر ابن سيرين أن رجلا من المسلمين قدم من اليمن فقال لعمر: رأيت باليمن شيئا يسمونه التاريخ؛ يكتبون من عام كذا وشهر كذا، فقال عمر: إن هذا لحسن، فأرخوا.

فلما أجمع على أن يؤرخ شاور فقال قوم: بمولد النبي ﷺ. وقال قوم: بالمبعث. وقال قوم: حين خرج مهاجرا من مكة، وقال قائل: من الوفاة -حين توفي. فقال عمر: أرخوا خروجه من مكة إلى المدينة.

ثم قال: بأي شهر نبدأ فنصيره أول السنة؟ فقالوا: رجب فإن أهل الجاهلية كانوا يعظمونه.. وقال آخرون: شهر رمضان.. وقال بعضهم: ذو الحجة فيه الحج.. وقال آخرون: الشهر الذي خرج فيه من مكة، وقال آخرون: الشهر الذي قدم فيه.

فقال عثمان: أرخوا من المحرم أول السنة -أول السنة المحرم- وهو شهر حرام، وهو أول الشهور في العدة، وهو منصرف الناس عند الحج. فيصير أول السنة المحرم، وكان ذلك سنة سبع عشرة، ويقال سنة ست عشرة في نصف ربيع الأول.

فدل ذلك على أنهم اتفقوا أن يكون أول عام في التاريخ هو العام الذي كانت فيه الهجرة، وليس الشهر الذي هاجر فيه النبي ﷺ، ولكنهم أبدلوا به شهر المحرم؛ لأنه أول شهر في العام. ويدل على ذلك ما وردعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾(الفجر: ١)، قال: «الفجر شهر المحرم هو فجر السنة». (أخرجه البيهقي في الشعب وإسناده حسن).

ولهذا السبب عدلوا عن التأريخ من شهر ربيع الأول الذي هاجر فيه الرسول ﷺ إلى شهر المحرم.

وقد ذكر البخاري في تاريخه عن عبيد بن عمير قال: المحرم شهر الله وهو رأس السنة، فيه يكسى البيت ويؤرخ التاريخ ويضرب فيه الورق.

ويمكن الجمع بين اعتبار أن النبي ﷺ هو أول من أرخ، وبين تأريخ عمر رضي الله عنه، فالرسول ﷺ عرف التاريخ واستعمله، لكنه لم يعممه، بل استعمله فيما يمكن أن نسميه بالخطابات الرسمية، ولو كان التاريخ مشتهرا في دولة الرسول ﷺ لأرخ الصحابة له أقواله كلها، ولوجدنا تاريخ الأحاديث التي قالها، والأفعال التي أتاها، ولحل

لنا كثيرا من الإشكالات في السنة النبوية، ولكن النبي ﷺ استعمل التاريخ، لكنه ليس على نطاق التعميم في الدولة.

أما عمر رضي الله عنه فقد اهتم بالتاريخ في الدولة، وجعله عاما، ولم يكن مقتصرا على الجوانب الرسمية فحسب، بل دخل أيضا المجال الاجتماعي وغيره من مجالات الحياة.

لماذا يؤرخ المسلمون بالتاريخ الميلادي؟

إن الأمة منذ زمن عمر رضي الله عنه، بل من زمن تأريخ النبي ﷺ وهي تتبع التاريخ الهجري، وسارت الأمة على ذلك حتى تبدل الحال، وأصبحت كثير من الدول العربية والإسلامية قد هجرت التاريخ الهجري إلى التاريخ الميلادي، حتى أضحى كثير من المسلمين لا يعرف أي شهر عربي هو فيه، فضلا عن أن يعرف أي يوم من التاريخ الهجري.

ولا يعرف على وجه التحديد متى تم ترك التاريخ الهجري.. لكن من المعلوم أن هذا حصل في بدايات القرن الماضي مع موجة التغريب والاحتلال الغربي لبلاد المسلمين، ذلك أنهم أدخلوا التاريخ الميلادي وأحلوه محل التاريخ الهجري في المعاملات والمناسبات والحياة اليومية، لربط بلاد المسلمين ببلاد الاحتلال الغربي المسيحي، ثم لما تركوا الاحتلال العسكري لبلاد المسلمين أوجدوا من مؤيديهم من يحاول أن يصبغ بلاد المسلمين بالصبغة الغربية، خاصة من الناحية الثقافية والفكرية، ومنها دوام استعمال التاريخ الميلادي المتبع في البلاد المسيحية، حتى يتوافق مع الغزو الفكري والتبعية لبلادهم.

ومازال هذا الأمر موجودا في كثير من بلاد المسلمين إلى يومنا هذا، وهو مما يطعن في خصوصية هذه الأمة التي جعل الله تعالى لها قبلتها الخاصة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ﴾(البقرة: ١٤٥)، وقوله سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾(البقرة: ١٤٨).

ولعل غياب التعامل بالتاريخ الهجري في الأمة يوجب على أبنائها إحياء تلك الشعيرة فيها، لأن التاريخ الهجري للأمة يرتبط بأحكام فقهية كثيرة، كالصيام والحج والزكاة والعدة في الطلاق وغيرها، فإن أحكام الشريعة تحسب بالأيام والسنين الهجرية وليس الميلادية، مما يجعل التعامل بالتاريخ الميلادي يوقع المسلمين في خطأ في الأحكام الفقهية، وقد أبان القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾(البقرة: ١٨٩).

ومن الشهور ما ذكرت صراحة في القرآن وتعلقت بها أحكام فقهية، كوجوب صيام شهر رمضان، في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾(البقرة: ١٨٥)، وحرمت الدماء في شهر محرم وغيره من الأشهر الحرم، في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾(المائدة:٢)، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ﴾(التوبة: ٣٦).

فدل ذلك على أن الله تعالى أناط كثيرا مما يتعلق بالأحكام الفقهية من حلال وحرام بالأشهر القمرية، وليس الأشهر الميلادية.

كيف اعتنى الإسلام بالمسنين؟

منى الموجي- القاهرة
دار الإعلام العربية

كفل الإسلام للإنسان حياة كريمة في مختلف مراحله العمرية لاسيما مرحلة الكبر، فحفظ للمعمر حقه في أن يحيا مكرما بين أهله وذويه، وجعله نموذجا يحتذى في السلوك، وناقلا للقيم والثقافة بين الأجيال، مفيدا في حكمته وخبرته للمجتمع بجميع شرائحه.. وأعطى الإسلام نماذج لرعاية المسنين، ولم يربط الأمر بسن معين.. «الوعي الإسلامي» ترصد عبر السطور التالية كيف رعى الإسلام الإنسان في شيبته، وحافظ على كرامته.

يمكن تلخيص دورة حياة الإنسان في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ (الروم: ٥٤)، فشباب اليوم هم شيوخ الغد، وكما شدد الإسلام على أهمية العناية بالطفل لضعفه، اعتنى الإسلام عناية خاصة- في ظل تنظيمه للعلاقات الأسرية واحترامه لقيمة وكرامة الإنسان بكبار السن- وشدد على ضرورة احترامهم

د.الراوي: على الأبناء رعاية آبائهم بأنفسهم.. ودور المسنين كارثة!

وتوقيرهم، وما يستدل به على حرص الإسلام على الاهتمام بكبار السن حديث الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: قال رسول ﷺ: «إن من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»، فقد ربط بين إجلال الله وبين إكرام كبير السن، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن لصلة الأرحام مكانة خاصة في الإسلام، فكثيرة هي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث المسلم على صلة رحمه.

دور المسنين

«الاهتمام ببر الوالدين جاء في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية».. هكذا بدأ عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف د.محمد الراوي، حديثه، مضيفا: قال الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ (الإسراء: ٢٣- ٢٤)، فبر الوالدين فريضة من الفرائض التي فرضها الله على المسلم، وفي هذه الآية نهي للأبناء عن إغضاب آبائهم أو إشعارهم بالضجر من خدمتهم، لافتا إلى قول الرسول الكريم: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا»، وقد أوصى الإسلام بذلك وشدد عليه؛ ليظل دائما مجتمع الحب لا مجتمع الحقد.

وتابع د.الراوي: وقد أكد الرسول ﷺ أن رعاية المسنين من الأمور التي يعود جزاؤها على الإنسان عند كبره، حيث يرزقه الله بالذرية الصالحة التي تقف إلى جواره وتسنده في ضعفه وشيبته، وهو ما جاء في حديث نبوي شريف: «بروا آباءكم يبركم أبناؤكم».. وأيضا ما جاء في قصة الثلاثة الذين أووا إلى الغار، فانطبق عليهم، فتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم ففرج عنهم.. وكان من بينهم رجل دعا في الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما: «اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي، فأبطأت عليهما ليلة، فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء».. وفي هذا دليل على أهمية رعاية الأبوين والعناية بهما في كبرهما.

ويؤكد أنه على الأبناء رعاية آبائهم وتولي شؤونهم وخدمتهم، لا أن يتركوهم بمفردهم في البيت، أو يودعوهم في دور رعاية المسنين، دون السؤال عنهم لفترات طويلة، وذلك إذا أراد الأبناء الحصول على الأجر والجزاء، واصفا إيداع الأبناء لآبائهم وأمهاتهم في دور المسنين بالكارثة التي أصابت المجتمع المسلم، مضيفا أنها صورة من صور تقطيع الأرحام، ويمثل صورة بغيضة من صور عقوق الوالدين.

أبقه في بيتك

وتؤكد د.فايزة خاطر رئيس قسم العقيدة بكلية البنات الإسلامية سابقا، أن الله سبحانه وتعالى اعتبر رعاية الوالدين من دلائل الإيمان به، مضيفة أن هناك آيتين اقترنتا بالأمر بالإحسان إليهما ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ (البقرة: ٨٣). واقتران شكر الله بشكر الوالدين إضافة إلى توصية الأبناء بأمهاتهم، وهو ما جاء في سورة لقمان في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (لقمان: ١٤)، إلى جانب العديد من الآيات التي أوصى الله فيها الأبناء بالإحسان إلى والديهم، ففي سورة العنكبوت جاء قول الله عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ (العنكبوت: ٨)، وفي سورة الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف: ١٥).

وأشارت «خاطر» إلى وجود العديد من الأحاديث النبوية التي دعت إلى الاهتمام برعاية الآباء والأمهات، ومن بينها حديث عبدالله بن مسعود قال: «سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قال: حدثني بهن ولو استزدته لزادني».

ولفتت إلى أن الرسول ﷺ جعل بر الوالدين في المرتبة الثانية من الأعمال الأحب إلى الله بعد الصلاة في أوقاتها، وقبل الجهاد في سبيل الله.

واستطردت «خاطر»: ولقد أمر

د.فايزة: ضرب الرسول ﷺ القدوة بأمر أبي بكر إبقاء والده في بيته

الله بطاعة الوالدين ومصاحبتهما بالمعروف في سورة لقمان في قوله ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ (لقمان: ١٥)، موضحة أن بر الوالدين يكون ببذل المعروف والإحسان إليهما بالقول والفعل والمال، على أن يتم كل هذا بنفس منشرحة لا بوجه عابس، وألا نودعهم في بيوت المسنين، فقد استأنسوا بالطفل حتى قبل أن يصل إلى الدنيا وهو في رحم أمه، فلماذا في نهاية عمرهما لا يستأنس بهما؟! مشددة على أن بر الوالدين لا ينقطع بوفاتهما، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وسأله: «هل بقي من بر أبواي شيء أبرهما بعد موتهما؟»، فقال الرسول ﷺ: «نعم، الصلاة عليهما- بمعنى الدعاء- والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما- أي وصيتهما- وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما» رواه أبوداود.

وأشارت «خاطر» إلى العديد من معالم رعاية الإسلام للمسنين، منها التوقير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنفه ثم رغم أنفه ثم رغم أنفه. قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة»، وفي ذلك حث على بر الوالدين وعظم ثوابه، ومعناه أن برهما عند كبرهما وضعفهما بالخدمة أو النفقة أو غير ذلك سبب لدخول الجنة، فمن فرط في ذلك فاته دخول الجنة، وأرغم الله أنفه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يوسع المجلس إلا لثلاثة: لذي علم لعلمه، ولذي سن لسنه، ولذي سلطان لسلطانه» رواه مسلم.

أيضا فقد ضرب الرسول ﷺ القدوة في التواضع والإحسان والتكريم حين طلب من أبي بكر رضي الله عنه أن يبقي والده المسن في بيته ويأتيه.. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء أبوبكر رضي الله عنه بأبيه أبي قحافة إلى رسول الله ﷺ يوم الفتح، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: لو أقررت الشيخ في بيته لأتيته، تكرمة لأبي بكر، فأسلم ورأسه ولحيته كالثغامة بياضا».

كما تدين تدان

ويقول أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة الأزهر د.أحمد محمود كريمة: إن الدين الإسلامي اهتم بتنظيم العلاقات الاجتماعية، وحث المسلم على صلة رحمه، خاصة مع الوالدين بعد بلوغهما سن الشيخوخة، فكما كان للأبناء حقوق على الآباء، كان عليهم واجبات، مضيفا أن الإحسان إلى الوالدين وبرهما ارتبط بعبادة الله، فبر الوالدين والإحسان إليهما والعطف عليها جاء بعد عبادة الله، ولأن الإسلام حفظ للإنسان كرامته، ووفى بحقه، وأمر بإكرامه عند شيبته وحث على القيام بشؤونه، وهو النموذج الذي جسدته ابنتا شعيب عليه السلام اللتان قالتا: ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ (القصص: ٢٣).. ومن سماحة الإسلام أنه راعى حق المسنين في العبادات أيضا، وأمر من يؤم الناس أن يراعي حالهم.. فقال ﷺ: «إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء».

وتابع قائلا: حينما يقر في يقين الإنسان بأن كل صغير سيكبر، وكل كبير سيهرم، وأنه كما تدين تدان، وأنه ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾ (البقرة: ١١٠). وأنه «ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه»، كما قال ﷺ، فكل ذلك من شأنه أن ينمي عند الإنسان رعاية واحترام المسنين، والقيام على شؤونهم، وعندها سيضمن شيخوخة سعيدة لنفسه، حيث وعده الله بأن يقيض له من يكرمه عند شيخوخته.

د.سامية الجندي: دور المسنين باتت ضرورة مجتمعية لا يمكن الاستغناء عنها

في اتجاه مختلف، ترى د.سامية الجندي أستاذ علم النفس الاجتماعي، أن وجود دور المسنين في المجتمعات العربية بات أمرا مهما لا يمكن الاستغناء عنه، مؤكدة أننا في حاجة إلى الاهتمام بهذه الدور والتوسع في إنشائها، في ظل تدهور الوضع الاقتصادي، وعدم قدرة العديد من الأبناء على تحمل تكلفة حياتهم الخاصة وأسرهم، وفي الوقت نفسه رعاية آبائهم، مضيفة أن هناك كبارا في السن لم يرزقهم الله بالأبناء، وعند وصولهم لسن الشيخوخة تكون قواهم منهكة، وغير قادرين على رعاية بعضهم البعض؛ لذلك يلجأون بإرادتهم إلى هذه الدور التي توفر لهم الرعاية الاجتماعية والصحية.

ولا تنكر «الجندي» حقوق الوالدين في أن يرعاهم أبناؤهم، وما في ذلك من رفع لمعنوياتهم وإسعادهم على المستوى النفسي أكثر من إيداعهم في دور مسنين، أو حتى تركهم في البيت وإحضار آخرين يقومون بالإشراف على شؤونهم، لكنها تلفت إلى صعوبة الحياة وضغوط العمل.

وحول إشراك كبار السن في الحياة العامة وفي المجتمع، أكدت «الجندي» على صعوبة تحقيق هذا الأمر على أرض الواقع، لكن من الممكن أن يتم ذلك من خلال النوادي والنقابات التي ينتمون إليها، حيث الانخراط في أنشطة هذه الهيئات، إلى جانب المشاركة في العمل العام، حتى يشعر كبار السن بأن لهم دورا في الحياة، حتى إن كان هذا الدور لا يأخذون عليه الأجر المادي، لكن سيكون مفيدا لهم على المستوى المعنوي والجسدي.

إدارة الرقابة الشرعية الداخلية في الشركات

د. سلطان السهو
دكتوراه في المحاسبة

تعتبر بنية الرقابة الشرعية الداخلية خط الدفاع الرئيسي للوقاية من إعداد التقارير المالية المحرفة، وأداة مهمة للإدارة في تنظيم سير العمل وضمان حسن أداء العمليات، وحماية الأصول والأموال في المنشأة، من خلال وضع الضوابط والسياسات والإجراءات؛ لتحقيق هدف المؤسسة في الالتزام بأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية.. مما يجعل الإفصاح عن مدى قوة وفاعلية الرقابة الشرعية الداخلية من قبل مجلس الإدارة، ثم قيام المراقبين الشرعيين الداخليين بالمتابعة لمعرفة ما إذا كان الإجراء المناسب قد اتخذ بشأن النتائج النهائية للرقابة الشرعية الداخلية التي كانوا قد ضمنوها لتقريرهم.. أمرا ضروريا.

هذا ويتعين على رئيس الرقابة الشرعية تشجيع المراقبين الشرعيين على تطوير وتحديث معلوماتهم فيما يتعلق بمعايير التدقيق الدولية، وكذلك الفتاوى والإرشادات والتعليمات الصادرة عن هيئة الرقابة الشرعية، حول المنتجات والخدمات التي تقدمها الشركة، وعلى بذل الحرص المهني اللازم والملائم للإجراءات التي تنطوي عليها الرقابة الشرعية الداخلية.. والجاري اتخاذها.

وكذلك الاستفادة من تجارب مدققي الرقابة الشرعية في الشركات الأخرى، فيما يتعلق باتباع الإجراءات التي تنص عليها معايير الضبط للمؤسسات المالية الإسلامية.

ولابد من عقد ورش عمل وندوات مهنية متخصصة لمعايير الضبط الداخلي للمؤسسات المالية الإسلامية، ويتعين تنفيذ إجراءاته لكافة المدققين، وذلك لغايات زيادة كفاءة وفاعلية ودور المدقق الشرعي، والتحلي بأخلاقيات المهنة، والالتزام بميثاق المحاسب والمراجع الخاص للمؤسسات المالية الإسلامية الصادر عن هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية.

الماء.. فوائده الصحية والجمالية

منور أحمد عثمان
باحث سوري

ما أهمية الماء لحيوية ونضارة الجسم؟ ما الكمية الكافية والمثلى للحفاظ على الحيوية والنشاط؟ هل الإكثار أو التقليل من شرب الماء له مخاطر على الصحة؟ ما هي الأوقات المناسبة لشرب الماء؟ وهل من تحذيرات طبية من العادات الخاطئة لشرب الماء. أسئلة سنحاول الإجابة عنها فيما يلي:

الماء ليس مادة مغذية، فهو لا يحتوي على أي مقدار حروري، وبعبارة أخرى فهو لا يحترق، ولكن له الدور الفعال في العضوية، لأن الأملاح التي يحملها تؤمن توازن الشوارد الملحية للأنسجة، ذلك أن المبادلات الفيزيولوجية تتبع وجود أملاح مستمرة على شكل شوارد (ions) كما أن عملية التفكير تحتاج إلى سيالات عصبية، لا تتوفر إلا بوجود الماء الذي يعد العنصر الأساسي في بقاء الإنسان على قيد الحياة، بعد الهواء، وكذلك في تكوين جسمه وتركيبه، فهو يدخل في خلايا جميع الأجهزة والعصارات والسوائل والدم وغيرها، بدون استثناء، وقد قدرت نسبة الماء في الجسم بأكثر من ٧٠ و٨٥٪.

الماء ضروري في حياة الإنسان، فجهاز الهضم مثلا لن يستطيع أن يعمل إذا لم يوجد ماء يكمل به الهضم، كما أن المواد الضارة من عمليات الهضم لا يمكن أن تنفث إلى الخارج إذا لم يتعاط الإنسان شرب الماء لتخرج بالبول أو بالعرق.

إن شرب الماء بكميات كافية يعد من أهم أسرار نضارة البشرة، كما يجب الاهتمام بشرب الماء في أيام الحر، فنقصان كمية الماء في الجسم عن المستوى المطلوب يؤدي إلى الصداع والأرق وعسر الهضم والإمساك، أما إذا كان النقص كبيرا فإن عمل الجسم يختل ويضطرب النظام فيه، ثم يبدأ الجسم بالجفاف، حيث تجف الخلايا وتظهر التجاعيد على الجلد، فعدم شرب الماء في أيام الحر يؤدي إلى زيادة كمية العرق، وكذلك إلى زيادة لزوجة الدم، الأمر الذي قد يساعد على تكوين الجلطة التي تحدث غالبا في أوردة الساق، حيث تكون سرعة سريان الدماء أقل، كما أنه في أثناء فترات الحر يزيد العرق وتقل كمية البول، وهكذا ترتفع نسبة الأملاح ويزيد احتمال تكوين الحصوة، ويزيد احتمال الإصابة بالالتهابات الصديدية، وشرب الماء بكثرة يعتبر عاملا أساسيا في العلاج، حيث يتخلص الجسم من كميات أكبر من الميكروبات مع البول المتزايد الذي يخرج من الجسم مع كثرة شرب الماء، وهكذا يمكن أن يؤدي إهمال شرب الماء بكمية كافية إلى تكوين الحصوة أو زيادة حجم الحصوة الموجودة أصلا، فشرب الماء بكثرة يقلل من تركيز الأملاح في البول، ويقلل بالتالي من احتمال تكوين الحصوة كما أن شرب الماء يعتبر أحسن دواء لطرد البلغم، كما أنه يساعد على إذابة البصاق أو البلغم اللزج، وهكذا تكون النصيحة لمرضى النزلات الشعبية المزمنة وحساسية الصدر هي شرب الماء بكثرة، وفي حالات تمدد الشعب الهوائية يساعد شرب الماء على التخلص من البصاق.

الماء والأمراض المزمنة

إن الماء نافع ومفيد للمصابين بأمراض الحمى والكوليرا والبول السكري والتهابات المعدة والأمعاء،

وشربه بكثرة يفيد المصابين بأمراض مزمنة، ويجب إعطاء المصاب بأمراض مزمنة جرعة من الماء كل ربع ساعة، حتى ولو لم يمل إليه، لأن في ذلك فائدة له، ولكن لا يجوز أن يفهم من هذا أن الإكثار من شرب الماء ينفع في كل الأمراض، بل يجب أن نميز بين ما ينفعه الماء وما يضره من تلك الأمراض، حتى لا يضع الشيء في غير محله، أما مرضى القرحة فيستطيعون أن يشربوا الماء كما يريدون، وبلا خوف، وكذلك مرضى القولون الذين يعانون من الغازات والانتفاخ، حيث يستطيعون أن يشربوا أي كمية من الماء، ولكن يجب أن يتجنبوا المياه الغازية والتي تحتوي على السكريات، ومرضى السكر حيث إن أجسامهم تفقد الكثير من الماء بصفة مستمرة، وعليهم أن يشربوا الكثير أيضا، بل إن عطشهم يدفعهم إلى ذلك دائما، وكذلك مرضى التليف المزمن في الكبد يجب الاستمرار في شرب الماء كلما أحسوا بالعطش، هناك شرط واحد لشرب الماء بكثرة، وهو أن تكون الكليتان سليمتين، وبعد التأكد من سلامة الكليتين فلا ضرر من شرب الماء، لأن الكليتين عليهما تخليص الجسم من الماء الزائد.

كما أن شرب الماء مهم للجلد والشعر والأظافر، حيث إن نقصه يؤدي إلى فقد الجلد ليونته، ويصبح معرضا للجفاف، وهكذا تسهل إصابته بالميكروبات أو الفطريات، أما الأظافر فإنها تصبح سهلة الكسر ويقل نموها وليونتها، وتكون أيضا عرضة للإصابة بالميكروبات، ونفس الشيء يتكرر مع الشعر الذي يسقط نتيجة لتكسره.

أهمية شرب الماء

إن شرب الماء بكميات كافية يمنح الجسم الرطوبة الكافية مما يكسب الجلد الليونة، ويحفظ للعينين البريق، ويجدد حيوية الخلايا، وينظم حرارة الجسم،ويعمل على تخليص الدم من السموم، وينشط الجهاز الهضمي، ويخفف السوائل في الجسم ، ويعمل على ترطيب المفاصل وليونتها وحمايتها من الكدمات، وهو خير معوض لما يفقده الجسم من السوائل التي تخرج خارج الجسم، وينشط وظائف الكلى.

كثرة شرب الماء

إن كثرة شرب الماء تؤدي إلى انتفاخ البطن، الشعور بالثقل وعدم الحركة، كثرة الغازات، وإلى تمدد مصل الدم، وتباعد بين الأنسجة وتجعلها تبطئ بالقيام بعملها على أكمل وجه، وفي حالات نادرة تؤدي إلى تسمم الماء.

قلة شربه

تقودنا إلى الجفاف والوهن وقلة النشاط، وفقدان القدرة على ضبط حرارة الجسم، وفقدان التوازن والإمساك، وحصى الكلى، والنسيان، وجفاف العين والفم والجلد كما أسلفنا.

موعد وعادة

يفضل جعل شرب الماء عادة وفي مواعيد ثابتة، فبعد فراغ المعدة طوال الليل يفضل شرب كوب واحد على الريق، وهذا ينبه الأمعاء ويغسل المعدة ويخلص الكليتين من الشوائب والرواسب والرمال، وينبه الكبد لفرز الصفراء، ويحضر المعدة لهضم الطعام، وبعدها يجب شرب كوب مع كل وجبة، وكوب بعد ساعة أو ساعتين من كل وجبة، وكوب قبل النوم أي المجموع ثمانية أكواب يوميا على أقل تقدير.

تحذيرات

إن شرب الماء المثلج عند الحر يؤدي إلى التهاب الغشاء المبطن للمعدة وإلى التهاب الحلق، وكذلك أثناء وجبات الطعام يؤثر في عملية الهضم، ويعوق إفرازات المعدة، ويجب ألا ننسى أن الإكثار من شرب الماء في حالة السمنة يؤدي إلى إبطاء عملية الهضم، فيؤدي إلى تحول الأغذية إلى طبقات دهنية، بدلا من احتراقها، كما أن كبار السن لا يشعرون بالعطش رغم حاجة أجسامهم للماء، لذلك لابد من جعل شرب الماء عادة من الصغر للتذكير عند الكبر.

أخيرا لابد أن نشير إلى أن ما نشربه من ماء يجب أن يكون نظيفا ونقيا، لأن الماء إن لم يكن نظيفا فإنه قد يحمل معه كثيرا من الجراثيم المعوية كالتيفوئيد، الباراتيفوئيد، الزحار، والإسهال، كما تحتوي مياه الجبال على بيوض ديدان حيات البطن (أسكاريس). وهناك أنواع أخرى من المياه تحتوي على طفيليات وجراثيم، ويمكن أن تصيب بأضرارها أعدادا كبيرة من الذين يشربون هذه المياه.

المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره

كتابة التاريخ الإسلامي ودعوات التنقية

د. أحمد خليل الشال
عضو لجنة السيرة والتاريخ الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف - مصر

تعالت الصيحات مؤخرا بضرورة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، وذلك بدعوى تنقيته مما حل به من أكاذيب شوهت صورته.. وهذه في رأيي دعوى تحتاج إلى إعادة نظر في صياغتها والمعنى المقصود منها، ذلك أن التاريخ الإسلامي قد فرغ من كتابته، فهو ليس في حاجة إلى إعادة كتابة، فقد فرغ أصحابه من كتابته في عصرهم، وذلك واضح بما رووه وسطروه في تصانيفهم.. ومن ثم فالصحيح أن التاريخ إنما هو في حاجة إلى إعادة تفسير. وسبيل ذلك فحص تلك المصادر القديمة وتمحيص مرويات أصحابها، للتعرف على المقبول منها والمردود، ثم إعادة قراءة المقبول من هذه المرويات من أجل تقديم التفسير الصحيح لهذه الفترة أو تلك، وهذا هو السبيل الأمثل لتنقية صورة تاريخنا.

وفرق بين قولنا «تنقية الصورة» و«تنقية التاريخ نفسه»، فما كتب لا يمكن حذفه من المصادر والكتب والمدونات، إذ إنه صار إرثا يتوارثه الأبناء عن الأجداد، بكل ما فيه من صالحه وطالحه، شئنا أم أبينا، ومن ثم فإن مهمة الوارث تنحصر في مجرد تصنيف ما ورثه، فيقول: هذا صالح للإنفاق وهذا مزيف لا يصلح، وما أصعب هذا الأمر!

ذلك أن تصنيف هذا التراث ليس بالأمر اليسير، إذ هو يحتاج إلى ميزان نقدي عسر في معياره، مرهق في استعماله، يحتاج إلى جلد وصبر ومعاناة شديدة، أعرض بسببها كثير من أبناء هذا التراث عن تلك المهمة الشاقة، معتلين بحجة واهية: «أنه لو طبق هذا المنهاج على التاريخ ما بقي في أيدينا شيء يعتد به». فأجابهم بعضهم غيرة على هذا التراث قائلا: «وتلك نظرة متسرعة، وأخشى أن أقول: متكاسلة، تحجم عن بذل الجهد لأنها تعلم مشقته، فتحكم ابتداء بأنه لن يؤدي إلى نتيجة»(١).

وكان من نتائج هذا الإعراض أن غزينا من قبل الدخلاء على هذا التراث، فأفسدوا في تراثنا حين خلطوا الصحيح بالسقيم، ثم قالوا: هذه بضاعتكم ردت إليكم، فلم يكن الخطأ منهم بقدر ما كان منا، حين قبل بعضنا هذا منهم راضيًا آمنًا مصدقًا، وهذا مثل المسلم والمستشرق غير المسلم.

هذا ولقد آثرت أن أخص هذا الفصل بعرض مجمل للملامح العامة للمنهج الذي ينبغي أن يدرس به التاريخ الإسلامي، وقد أدى إعراض الباحثين عنه إلى ثغرات نفذ منها أعداؤنا، يطعنون في هذا التاريخ المشرق لهذه الأمة العريقة.

وأول ما أستهل به هذا المقال، التنبيه على أنه لما استقرت الرواية، وألقت عصا التسيار في ختام القرن الرابع من الهجرة تقريبا، ولم يعد الوضع في الرواية فيما يخص هذه الفترة من السهولة بمكان، لجأ المفسدون في تحقيق مآربهم إلى وسائل أخرى، منها اتخاذ المكذوب من المروي عمادا لصرح التفسير الباطل لحوادث تلك الفترة، هذا فضلا عن التفسير الباطل من المروي الصحيح، وتلك وسيلة أخرى لقضية أخرى ليست محل بحثنا هنا.

وقد ساعد على استفحال هذا الخطر بعد الزمان الذي كان يتأخر قرنا بعد قرن، حتى إذا ما ورثنا هذا التراث بكل ما فيه من سقيم وصحيح، وجدنا أنفسنا أمام حصيلة هائلة من الروايات والتفسيرات التي احتاجت منا إلى التمحيص الدقيق، والتذوق السليم. ولكن لم يكن الوارثون طبقة واحدة في التعامل مع هذا الإرث، إذ إنهم تفاوتوا في ذلك بحسب قدراتهم، واختلاف مناهجهم، وميولهم، وأهوائهم هم أيضا.. الأمر الذي أدى إلى ركام جديد من تفسيرات تباينت هي الأخرى بتباين المناهج والأهواء، وهكذا سنظل ندور في دائرة المناهج والأهواء طبقة بعد طبقة، وجيلا بعد جيل، إلى قيام الساعة.

وهنا يطرح السؤال نفسه: ما هو العاصم إذن من اختلاف المناهج، وتنوع الأهواء؟

وتتحدد الإجابة عندي في أن ذلك يرجع إلى طبيعة كل فترة يدرسها الباحث، إذ إن لكل عصر ظروفه التي تحتم على الباحث أن يتبع فيه منهاجا بعينه، ويحكم فيه نظرة بعينها تختلف عن نظرة غيره لعصر غيره.. وإلا قصر في النتائج وظلم أهل الفترة التي يبحث فيها.. وهو ما أسميه «تحرير المقدمات»، ذلك أن من أخطر آفات البحث العلمي الخلط بين المقدمات، إذ إن ذلك سيؤدي بدوره إلى الخلط في النتائج أيضا، ويكون هذا التحرير في كل ما يخص العصر الذي يدرس، من حيث المفاهيم والمدلولات لمفردات العصر محل الدراسة.

ومن ثم، فهذا يوجب عدة أمور مهمة:

أ- محاكمة العصر بمفهوم أهله، بحيث يلزم الباحث نفسه أن ينظر في أي دراسة بنظرة ومنهاج أهل العصر الذي يبحث فيه.

ب- دراسة العصر بلسان قومه، ذلك أن اختلاف لسان كل عصر(٢)، وتحكيم لسان على آخر يؤدي إلى اختلاف المقدمات، ومن ثم النتائج.

جـ- التأصيل، وذلك في كل شيء يخص الفترة محل الدراسة، من حيث المصطلحات، والمصادر، والآراء.. ذلك أن اعتماد الوسائط يؤثر كثيرا في النتائج. ونرى ذلك واضحا في كتابات العرب من أصحاب المدرسة الحديثة فيما يخص عصر الخلافة الراشدة، وكيف أن اعتماد الوسائط قدم نتائج مخلة في تفسير تاريخ الخلافة الراشدة، عندما اتبع كثير من أصحاب المدرسة الحديثة مناهج واستدلالات المستشرقين في تفسير مواقف الصحابة من بيعة أبي بكر رضي الله عنه، ومن فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه، وحروب علي رضي الله عنه(٣).

د- تحديد الجهة المخاطبة، وهذا أمر في غاية الأهمية، أن يحدد الباحث الجهة التي سيخاطبها في دراسته، لأنه يترتب عليه تحديد المنهج الذي سيتبعه الباحث في دراسته، فضلا عن الأدلة التي سيستعين بها، إذ إن خطاب العقلية المسلمة يختلف عن الملحدة، وخطاب العقلية العربية يختلف عن الأعجمية.. ذلك أن التعميم في هذه النظرة يؤدي إلى تفكك الدراسة، وتشتت وجهات صاحبها، وذلك من حيث طبيعة الأدلة، وطريقة الاستدلال والعرض.. الأمر الذي سيكون له أثره في بنية البحث من حيث القوة والضعف. وهذا أمر لاحظته بقوة في جانب الدراسات الاستشراقية، إذ كان أصحابها يخاطبون بني جلدتهم في المقام الأول، فكان لذلك تأثيره الواضح في مناهج دراساتهم ونتائجها، تبعا لعقلية المخاطب.

ومن ثم فإني أؤكد تارة أخرى على أن تحديد عقلية المخاطب قبل العمل في أي دراسة أمر واجب، إذ به يتحدد منهاج البحث والباحث، وتتحدد قواعد منطلقاته وأصوله، وبذلك يكون الباحث مبصرًا لمواضع خطوه، راسخا واثقا مطمئنا في مسيره نحو غايته التي يرجوها من بحثه الذي يقوم به، ذلك أن اختلاط الوجهات وتعدد المخاطبين في البحث الواحد يسبب في رأيي تشتتا واضطرابا عند الباحث والمخاطب على السواء، وذلك بعكس من يحدد هدفه بعد تركيز الغرض، فهذا لا شك يكون أدعى للتوفيق في التسديد عند الرمي.

هـ- تحديد النيات، وهذا وإن جعلته آخر العناصر العامة إلا أنه في الحقيقة عمود أمر الباحث المسلم في بحثه الذي سوف يسأل عنه يوم القيامة، فما من امرىء إلا لديه رقيب عتيد يسطر ما يقوله ويكتبه، وهذا أصل أدرك المسلمون الأول معناه، فأعمالهم كلها كانت عندهم بالنية، بمقتضى قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات». ولله در البخاري فيما نقل عنه أنه قال: «ما وضعت في كتابي الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين»(٤).

ويحكي ابن الجزري عن شيخه ابن كثير وما جرى له من جراء عكوفه على تصنيف كتابه «جامع المسانيد والسنن» فيقول: «أجهد نفسه كثيرا، وتعب فيه تعبا عظيما، فجاء لا نظير له في العالم، وأكمله، إلا بعض مسند أبي هريرة، فإنه مات قبل أن يكمله، فإنه عوجل بكف بصره، وقال لي رحمه الله: لا زلت أكب فيه الليل والسراج ينونص حتى ذهب بصري معه، ولعل الله يقيض له من يكمله، مع أنه سهل، فإن معجم الطبراني الكبير لم يكن فيه شيء من مسند أبي هريرة»(٥). فلم يحزن ابن كثير على ذهاب بصره، ولكن كان حزنه على فوات شيء من تصنيف رأى فيه نفعا للمسلمين! والأمثلة على ذلك كثيرة.

فالعجب من إهمال كثير من المعاصرين لهذا الأمر، فتجد الواحد منهم ينهض للبحث والدراسة في موضوع بعينه، ولما يصلح نيته قبل الخوض في عمله الذي سينهض إليه، وليس من شك أن بعد هؤلاء عن تلك المعاني الغيبية أداهم إلى ذلك، على الرغم من كونها من أصول دين المرء المسلم، ومن ثم فهذا أمر نؤكد عليه، فإن بركة العمل والانتفاع به إنما تكون بدرجة نية الباحث في عمله.

وبعد هذه المقدمة العامة، يكون الانتقال إلى الخطوط العريضة التي ينبغي أن يسير عليها منهج البحث فيما يخص دراسة التاريخ الإسلامي، وهو موضوع الحلقة التالية إن شاء الله تعالى.

هوامش:

(١) محمد قطب، كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص١١٢.

(٢) ويدخل في معنى اللسان هنا اللهجات واختلاف مدلولات الألفاظ التي تختلف من عصر لآخر رغم اتحاد اللفظ والكلمة.

(٣) راجع رسالتي للدكتوراه عن أثر الوضع في رواية التاريخ وتفسيره، نماذج من عصر الخلافة الراشدة، بكلية دار العلوم جامعة القاهرة.

(٤) تهذيب التهذيب، لابن حجر ٥/٣٤.

(٥) المصعد الأحمد ٣٩- ٤٠، ومقدمة جامع المسانيد للمحقق ص٢٤٨.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
-إدارة الإفتاء-

الفتوى والتيسير ورفع الحرج (٣/١).

دلت نصوص الشريعة الإسلامية على أن اليسر ورفع الحرج من المقاصد الشرعية السامية، والأوصاف الإسلامية العلية.

ومن الآيات التي استدل بها الفقهاء على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٨٥).

وقال الإمام البخاري رحمه الله: «باب الدين يسر، وقول النبي ﷺ: أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة، ثم روى حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه؛ فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة». («صحيح البخاري» (ح٣٨)).

ومقصوده من الترجمة وحديثها: التنبيه على أن الدين يقع على الأعمال، لأن الذي يتصف باليسر والشدة، إنما هي الأعمال دون التصديق، وقد فسر الأعمال في الحديث بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة. «المتواري» لابن المنير (١٣/١).

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله عند «تفسيره» قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج:٧٨): وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن هذه الحنيفية السمحة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ، أنها مبنية على التخفيف والتيسير، لا على الضيق والحرج. وقد رفع الله فيها الآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا.

قذف المحصنات المؤمنات الغافلات

(٤٥٢٢/٣٥٣/١٤)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

ما هو حكم الدين في قذف المحصنات من النساء ظلما؟ وما هو الجزاء في الحياة الدنيا؟ ومن يقع عليه تنفيذ هذه العقوبة أو الجزاء (الدولة في أجهزتها أو من يمثلون السيدة التي وقع عليها القذف) لأخذ حقهم، وكذلك العقوبة في الدار الآخرة.

أجابت اللجنة بما يلي:

قذف المحصنات المؤمنات الغافلات بالزنا كذبا فسق، وهو من الكبائر، وعليه أشد العذاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ (النور: ٢٣).

وإذا استوفى القذف شرائطه الشرعية وجب على القاذف الحد؛ وهو جلده ثمانين جلدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (النور: ٤)، ولمن قذف بالزنا كذبا أن يرفع أمره للقاضي، فإذا ثبت القذف بشروطه لدى القاضي أقام الحد على القاذف، ولا يحق للمقذوف، أو غيره إقامة الحد على القاذف بنفسه؛ لأن الحدود لا يقيمها غير القاضي.

متى يقام حد القذف على الشهود بالزنا

(٦٥٠٢/٣٣٧/٢٠)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

إذا شهد أربعة رجال عدول على جريمة زنا، ولكن رأى القاضي أن شهادتهم لا تكفي لإثبات حد الزنا لوجود شبهة، فهل ينتقل الحد إلى التعزير، سؤالي: هل يقام عليهم حد القذف أم لا؟ أفتونا مأجورين.

أجابت الهيئة بما يلي:

إذا شهد أربعة عدول على رجل أو امرأة بالزنا، ولم يمنع القاضي من القضاء على الزاني بحد الزنا سوى شبهة مانعة من تطبيق الحد، فإن للقاضي تعزير المتهم بالزنا بما يراه مناسبا لحاله، ولا يجوز له إقامة حد القذف على الشهود.

أما إذا اختلف الشهود في الشهادة، أو امتنع أحدهم عن الشهادة، فإن على القاضي في هذه الحالة إقامة حد القذف على الشهود.

العقوبة على السب بالزنا وغيره

(٧١٧٨/٣٤١/٢٢)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، وهذا الحديث ذكره جل وعلا في غير هذا الموضع من كتابه الكريم؛ كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ (النساء:٢٨).

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (ح٣٤٤)، وابن عباس رضي الله عنهما (ح٣٤٥)؛ أن النبي ﷺ لما قرأ خواتم سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ (البقرة:٢٨٦) قال الله: «قد فعلت»، وهذه في رواية ابن عباس. وفي رواية أبي هريرة قال: «نعم».

ومن رفع الحرج في هذه الشريعة: الرخصة في قصر الصلاة في السفر، والإفطار في رمضان فيه، وصلاة العاجز عن القيام قاعدا، وإباحة المحظور للضرورة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ (الأنعام:١١٩)؛ إلى غير ذلك من أنواع التخفيف والتيسير، وما تضمنته هذه الآية الكريمة والآيات التي ذكرنا معها من رفع الحرج، والتخفيف في شريعة نبينا ﷺ، هو إحدى القواعد الخمس، التي بني عليها الفقه الإسلامي، وهي هذه الخمس:

الأولى: الضرر يزال، ومن أدلتها حديث: «لا ضرر ولا ضرار».

الثانية: المشقة تجلب التيسير: وهي التي دل عليها قوله هنا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ (الحج:٧٨).

الثالثة: لا يرفع يقين بشك، ومن أدلتها حديث: «من أحس بشيء في دبره في الصلاة، وأنه لا يقطع الصلاة حتى يسمع صوتا أو يشم ريحا»؛ لأن تلك الطهارة المحققة لم تنقض بتلك الريح المشكوك فيها.

الرابعة: تحكيم عرف الناس المتعارف عندهم في صيغ عقودهم ومعاملاتهم، ونحو ذلك. واستدل لهذه بعضهم بقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ (الأعراف:١٩٩).

الخامسة: الأمور تبع المقاصد، ودليل هذه حديث: «إنما الأعمال بالنيات» (رواه البخاري (ح١)). («أضواء البيان»(٥/٣٠٠)).

... يتبع

تقدم رجل لخطبة امرأة، وهو من قبيلة وهي من قبيلة أخرى، فاستشار أهلها رجلا بعيدا عن القبيلتين فطعن في الخاطب وقبيلته، وكان كاذبا، وليس في الخاطب ولا في قبيلته شيء مما قال، والواقع أنهم أهل دين معروفون بذلك في بلدهم، فما الحكم الشرعي في هذا المستشار؟

أجابت اللجنة بما يلي:

من استشير في خاطب أو مخطوبة فعليه أن يذكر ما فيه من مساوئ شرعية أو فرعية، ولا يكون غيبة محرمة إذا قصد به النصيحة والتحذير لا الإيذاء، لقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله تعالى عنها فيمن خطباها: «أما معاوية فصعلوك لا مال له» (أخرجه مسلم)، ولقوله ﷺ: «إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصحه» (أخرجه أحمد)، وعنه ﷺ أنه قال: «المستشار مؤتمن» (أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح).

وقال ﷺ: «الدين النصيحة» (أخرجه مسلم)، وقد روى الحاكم «أن أخا لبلال رضي الله تعالى عنه خطب امرأة فقالوا: إن يحضر بلال زوجناك، فحضر، فقال: أنا بلال وهذا أخي، وهو امرؤ سيئ الخلق والدين». قال الحاكم: صحيح الإسناد.

وقد أوجب الإسلام عقوبة على الساب: عقوبة الحد إن كان السب بالزنا، وعقوبة التعزير إن كان بغيره من الألفاظ.

هذا وإذا ثبت السب ثبت الحكم المقرر شرعا، ولا اعتبار لحسن النية أو عدمه، إلا في تخفيف عقوبة التعزير إذا رأى الإمام ذلك.

عقوبة الاتهام بالباطل

(٥٤٤٩/٣٣٩/١٧)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

ما حكم الشرع في شخص افترى على زميل له في العمل بأمور غير صحيحة، وفيها طعن في ذمة زميله المالية، واتهامه بالرشوة والانتفاع غير المشروع من جهة العمل؟ وما الذي يجب على رب العمل فعله في مثل هذه الحالة؟ علما بأن الاتهام تم أمام عدد كبير من الناس الذين التبس عليهم الأمر.

أجابت اللجنة بما يلي:

الاتهام بالباطل محرم شرعا، وفاعله آثم ويستحق عقوبة تعزيرية تتناسب مع ما اقترفه من جرم، إلا إذا سامحه المتهم. وأما صاحب العمل، فعليه أن يتحقق من كل ما أثاره من اتهامات تقدم في مسيرة العمل، كالاتهام بالرشوة، أو الانتفاع غير المشروع، وأن يتخذ ما يراه محققا لمصلحة العمل نحو كل منهما على ضوء ما ينتهي إليه التحقيق في ضوء اللوائح والقوانين المطبقة.

السيرة النبوية لابن هشام

إعداد : خالد خلاوي

تعد سيرة ابن هشام من أهم المصادر التاريخية، وأكثر كتب سيرة الرسول ﷺ انتشارا بين المسلمين، والمرجع الرئيسي لدارسي السيرة النبوية، وأصل هذا الكتاب ما جمعه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار من المغازي والسير ورواه عنه زياد بن عبدالله البكائي، وجاء ابن هشام فهذب سيرة ابن إسحاق فعرفت به، واشتهرت باسم «سيرة ابن هشام»، ولا تكاد تعرف سيرة ابن إسحاق.

وقد اعتنى علماء الحديث والتاريخ والمحققون بسيرة ابن هشام شرحا وتهذيبا وتخريجا لرواياته وتبيان الضعيف من الصحيح.

التعريف بابن هشام

هو أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري، كاتب سير ومؤرخ بصري، كان عالما بالأنساب واللغة وأخبار العرب.

نشأ في البصرة وتلقى العلم فيها، وبرع في الأدب والعربية، حتى وصف بالنحوي، وأخذ عن علماء البصرة وأدبائها، ورحل إلى مصر بعد أن اكتمل علمه في البصرة، واستقر بها، ونشر فيها علمه، والتقى فيها بالإمام الشافعي.

أهم أعماله هو اختصاره وتهذيبه للسيرة النبوية التي كتبها ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١هـ، ومن آثاره أيضا كتاب «التيجان في ملوك حمير».

توفي ابن هشام في مصر عام (٨٣٣م-٢١٨هـ).

منهج سيرة ابن هشام ومباحثها

يقول الأستاذ محمد علي النجار(١) عن منهج ابن هشام في السيرة: روى ابن هشام سيرة ابن إسحاق فأعجبته، ولكنه رأى فيها أشياء أنكرها، فأزمع تهذيبها ونشرها على الناس في صورة جديدة. وقد وضح منهج عمله فيها في قوله: «وأنا- إن شاء الله- مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم، ومن ولد رسول الله ﷺ من ولده، وأولادهم لأصلابهم، الأول فالأول، من إسماعيل إلى رسول الله ﷺ، وما يعرض من حديثهم، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل، على هذه الجهة، للاختصار إلى حديث سيرة رسول الله ﷺ، وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ولا تفسيرا له ولا شاهدا عليه، لما ذكرت من الاختصار، وأشعارا ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته، ومستقص- إن شاء الله - ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به». ولم يذكر ابن هشام أنه قد يزيد على ما رواه ابن إسحاق ما يراه تكملة له.

وسيرة ابن هشام، سيرة جليلة، فيها طائفة من أخبار العرب قبل الإسلام، وبسط للحالة بعد الإسلام في حياة الرسول ﷺ، وهي سجل لما جرى في هذا العهد من المعاهدات، ولما جرى في المغازي. فيذكر في الغزوة من شهدها من الجانبين وما حدث لهم، في تفاصيل دقيقة، كأنما كان هناك كتاب حربيون يدونون كل شيء، وفيها ثروة أدبية مما يورد من الأشعار في الغزوات وغيرها.

وكان ابن إسحاق يكثر من رواية الأشعار في كل موطن، حتى أورد فيها كثيرا من الشعر المنحول والمصنوع، وحتى قال فيه ابن سلام في طبقات الشعراء ص٩: «وكان ممن أفسد الشعر وهجنه، وحمل كل غثاء منه محمد بن إسحاق ابن يسار... فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر، وأوتى به فأحمله، ولم يكن ذلك له عذرا»، وقد نبه ابن هشام على ما ينكر من الشعر الوارد في سيرة ابن إسحاق وعلى الخلط فيه.

يبتدئ ابن هشام بذكر شيء من كلام ابن إسحاق، ويصدره بعبارة «قال ابن إسحاق» ويعقب عليه بما يراه من زيادة أو نقد بقوله: «قال ابن هشام» ويسير هكذا في الكتاب، حتى يمكن للباحث أن ينتزع من سيرته سيرة ابن إسحاق لولا ما حذف منها وأسقط.

وقد ابتدأت السيرة بسرد نسب الرسول عليه الصلاة والسلام، واستتبع ذلك

ذكر جملة صالحة من أنساب العرب وأخبارهم في الجاهلية، وعاداتهم وأصنامهم، وذكر تجديد حفر زمزم على يد عبدالمطلب، وولادة الرسول ﷺ، ونشأته ومبعثه، ومن استجاب لدعوته، وما لقيه في سبيلها من عنت وإرهاق، وما لاقى المؤمنون من أذى، وهجرة بعضهم إلى الحبشة فرارا بدينهم، وعرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل يدعوهم إلى الإسلام، حتى استجاب له فريق من الأوس والخزرج في يثرب (المدينة) فهاجر إليها ﷺ مع المؤمنين من أهل مكة، وصارت المدينة دار عز ومتبوأ قرار للمسلمين، وفي المدينة كانت بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين اليهود الذين كانوا فيها مفاوضات ومقاولات ومعاهدات نقضوها ولم يتموا عليها، فكانت دائرة الغدر عليهم، وانتهى الأمر بإجلائهم عن المدينة، والانتصار عليهم في خيبر، وإذلالهم.

وفي المدينة تبتدئ الغزوات والسرايا التي عز بها المسلمون، وذل الشرك بفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، وبهذا الفتح المبين يدخل العرب في دين الله أفواجا، ويوفدون الوفود إلى المدينة معلنين إسلامهم، وطالبين من يفقههم في دينهم، وذلك في السنة التاسعة، وتسمى لهذا «سنة الوفود»، ويرسل الرسول ﷺ رسله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام وينتهي الكتاب بذكر أزواجه عليه الصلاة والسلام وتمريضه وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، وذكر ما جرى في سقيفة بني ساعدة من الخلاف الذي انتهى بخلافة أبي بكر رضي الله عنه.

ما كتب عن سيرة بن هشام

وهذا إجمال شديد لما كتب على سيرة ابن هشام واتصل تأليفه بسببها:

فقد شرح السيرة أبو القاسم عبدالرحمن السهيلي الأندلسي، المتوفى سنة ٥٨١هـ ويسمى هذا الشرح الروض الأنف، وقد طبع في مطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) في جزأين.

وشرح غريبها، وتكلم عن بعض المشاكل ومنها أندلسي آخر، هو أبوبكر الخشني مصعب بن محمد وهو من جيان في الأندلس، والخشني نسبه إلى خشين ابن النمر: قبيلة في قضاعة، نص على ذلك في القاموس. وكانت وفاته سنة ٦٠٤هـ، وطبع هذا الكتاب في مصر في مطبعة هندية سنة ١٣٢٩هـ.

ونظم السيرة- كما في كشف الظنون- أبو نصر الخضراوي المتوفى سنة ٦٦٣هـ، وكذا عبدالعزيز بن أحمد المعروف بسعد الدين الديريني المتوفى في حدود سنة ٦٩٧هـ، وأبو إسحاق الأنصاري التلمساني، على قافية اللام، وفتح الدين محمد بن إبراهيم المعروف بابن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣هـ في بضعة عشر ألف بيت، وسماه «فتح القريب في سيرة الحبيب».

واختصر السيرة البرهان إبراهيم بن محمد بن المرحل، وزاد عليها أمورا، ورتبه على ثمانية عشر مجلسا، وسماه «الذخيرة في مختصر السيرة»، فرغ منه سنة ٦١١هـ.

ذكر هذا كله في كشف الظنون.

المصدر

(١) السيرة النبوية لابن هشام، محمد علي النجار، سلسلة تراث الإنسانية ج١ ص ٧٨١ وما بعدها، طبعة المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر

إعداد: علاء عبدالفتاح

القراءة وثقافة الطفل

من بين دفتي الكتب يرى الطفل ما لا يمكن أن يراه في الواقع، وعلى شاشات العرض هناك مجسمات ربانية تجسد لعقله ما يستوعبه حينما يقرأ نصا قصصيا.. إذ يرى البطلَ أو يرى ما يصوره كاتب القصة للطفل. ولذلك لا يمكن أن يكتب القصص للأطفال أي كاتب مهما برعت كتاباته. فللطفل رؤى أخرى لابد أن يلمسها الكاتب.

إن الطفل المعاصر مستهدف من قبل ثقافة تكنولوجية هشة تسلب قدرته على التفاعل.. فالتكنولوجيا التي صنعت حالة من التراخي العقلي لدى الأطفال فشَلت فكرهم، وشدت انتباههم إلى عالم متحرك، أصبحت فيه عيناه معلقتين بالبلورة السحرية التي أمامه بلا حراك يستحث العقل؛ بعدما وجد الأبوان الحل السهل للطفل، وهو «الجيمز» و«ألعاب البلاي ستيشن» ثم أفلام الكرتون التي تعطي للطفل مساحة شاسعة من المشاهدة بدون تفكير.. إذن، أين هي الثقافة التي كانت تنغرس في عقول الأطفال؟ أين الحبكة التي كانت تربط عقل الطفل بالحدث. إنه التغريب الذي يشوه كل صور الثقافة الطفولية، حيث لم يعد الطفل في حاجه إلى المجلات المصورة، وإلى الكتب القصصية، والتي نبهتنا على الحقيقة المخيفة التي تروع كل راع لأسرته بذهاب بعض مواد الدراسة أيضا وانصراف وإهمال القائمين والمسؤولين عنها، وكأنها شيء أصبح بلا جدوى..

ومن بين المعرفة الأكاديمية للمواد في اليوم الدراسي كانت هذه الحصص والمواد تعد ترفيها تربويا للطفل، أما الآن ففي البيت يرى الطفل ما لا يمكن أن يراه في الواقع، على شاشات العرض، ولم يعد الطفل أيضا في احتياج إلى ألعاب الذكاء وغيرها، ولا إلى أن يسمع الحكايات من الجدة، ما أدى أيضا إلى اندثار التراث الشفهي للأطفال، وكثرت المجلات التي أغلقت أبوابها، حتى إننا لا نكاد نحصل على مجلة ترتقي إلى المستوى الذي نرتضيه لأبنائنا، ولقد أصبحت مجلة الحائط في المدارس من التراث المندثر.. أين إشراك الطفل في تحرير أجزاء من المجلة اليومية والاستفادة من التوجيهات التربوية المعاصرة؟ بحيث تكون المجلة رافدا تربويا مهما للأطفال.. كل ذلك أصبح شيئا بلا أهمية، مع غزو تكنولوجيا التغريب، وأصبحت الكتابة والرسومات للطفل شيئا أغرب من أن يجذب الانتباه، بعدما حلت شاشات التلفاز والكمبيوتر محل كل ذلك.. وقضت على ملكة التأمل والإبداع لدى الطفل، ولم يعد أي أديب أو فنان قادرا على الكتابة والرسم للطفل كما كان من قبل.

محمود حسانين

من يشري نفسه

تعددت السبل وتنوعت الغايات واختلف سعي الناس كما قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾(الليل:٤).

فالآية الكريمة تحدثنا عن أشرف سعي يسعاه الإنسان، إنه السعي لنيل رضا الله عز وجل، لا لطلب المدح والثناء، أو الجاه والرئاسة، أو الذهب والورِق، أو أي عرض زائل.

فإن كانت الدنيا بمتاعها الفاني، وعرضها الزائل مطلب الكثيرين من الناس!

فإن هناك فئة قليلة من الناس يشرون أنفسهم، أي: يبيعونها.

ولكن لما كانت أنفسهم أغلى ما يملكون، فقد قلّبوا طرفهم يمنة ويسرة فلم يجدوا الدنيا بكل ما تحويه من متع زائلة وأعراض فانية تساوي قيمة أنفسهم الغالية!

ورأوا أن الثمن الوحيد الذي تطيب به نفوسهم ليبيعوها به، هو جنة عرضها السموات والأرض، والتي كتبها الله لكل من حاز رضاه عز وجل.

فباعوا أنفسهم لرب العزة بأن أفنوها في طاعته، وسخروا أعمارهم وأموالهم وكل قدراتهم وأولادهم في طلب مرضاة الله سبحانه وتعالى،

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com

النجاح الدراسي

النجاح يجعلنا فخرا لوطننا وأمتنا، ولكنه يحتاج في تحقيقه إلى التحلي ببعض الصفات والعمل ببعض الوصايا:

- الإيمان القوي بالله عز وجل، فهو يحقق المعجزات ويذلل الصعوبات.
- تقوية الصلة بالله عز وجل، وذلك بالمحافظة على الصلوات الخمس في المسجد والدعاء قبل البدء بالدرس أو المذاكرة.
- ثق بقدراتك واعلم أنك تستطيع النجاح كما نجح آخرون قبلك، كما أن مستقبلك يحتاج إلى مزيد من الجهد، فأتقن عملك ولا تهمل.
- نظم وقتك؛ حتى لا يطغى المهم على الأهم، وذلك بعمل جدول ينظم الدراسة ويقسم أوقات النهار والليل، شرط البدء من الصباح الباكر والنوم أول الليل مع جعل فترات للراحة والأكل والنوم الكافي.
- لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، حتى لا تتراكم عليك الأعمال والواجبات وتصاب بالكسل والإحباط، وابدأ بالمادة التي تحتاج مزيدا من الجهد والوقت دون نسيان المواد الأخرى.
- احترم معلمك، وأنزله المنزلة التي تليق به، واستأذن قبل الدخول عليه، واخفض صوتك وأنت تحدثه، ولا تقاطعه ولا تسخر منه، والتزم بما يكلفك به من واجبات، وأدها على أحسن وجه، فهذا يثلج صدره كما يساعدك على التفوق.
- الاستفادة من خبرات الأهل والأقارب بعد دراستك الخاصة على أن تكون على سبيل المراجعة والمناقشة.

محمد أحمد عبدالقادر

قاطرة التقدم

بناء أي صرح على وجه البسيطة يجب أن تتوافر له مقومات عديدة، نختار منها اليوم ثلاث ركائز أساسية، يجب أن تتوافر في كل دولة مسلمة لنلحق بركاب الدول المتقدمة.

١- العلم

العلم دافع للحياة، ومفتاح التطور والنضج وعمود السعادة والنجاح، وسبب العمل الصحيح، والحياة تقف عندما يقف التعلم، ولا يمكن أن يحقق الإنسان نجاحا ممتازا في الحياة إلا وهو على قدر لا بأس به من العلم والثقافة، إن المعرفة هي قوة في حد ذاتها، والقاعدة العامة في التعليم هي: اعرف شيئا عن كل شيء لتكون مثقفا، واعرف كل شيء عن شيء لتكون متخصصا. ولو لم يكن للعلم فضل وأهمية، ما حرص على طلبه والرحلة إليه والتعب من أجل تحصيله الرعيل الأول من سلف هذه الأمة ومن اقتفى أثرهم إلى قيام الساعة.

٢- القيادة المحكمة

وللقائد خصائص يجب أن تتوفر فيه لكي تكون قيادته محكمة، نذكر منها:

أ- إصرار: فالقائد هو من يبث الفكرة المثالية التي يؤمن بها في جماعته، ليحملها على معاونته في تنفيذه الفكرة رغم كل العقبات.

٣- الخيال

إن الخيال هو الذي يصنع الحقيقة، والسر في تقدم الأمم يعود بالدرجة الأولى إلى هؤلاء القلة من المغامرين الذين أزالوا القيود عن حدود تفكيرهم، ولحقوا بسماء الخيال، منذ أيام ألف ليلة وليلة حين حلم الإنسان بالطيران، وجسد التلفاز في كرة بلورية.

وحين سئل من صمم مكوك الفضاء لأول مرة: لماذا صممت المكوك بالشكل المعروف حاليا؟ قال لأنني تخيلته كما كان موجودا في كتب الخيال العلمي عند كتاب القصص من الأميركان.

وليد السعيد أبوالعمايم

بلزوم أمره مهما كلفهم من مشقة، كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن هؤلاء الذين باعوا أنفسهم ولم يقبلوا ثمنا دون رضا الله عز وجل.

«صهيب الرومي»، لما اشتد عليه عذاب مشركي مكة.

فقال لهم: لا تعذبوني، هل لكم إلى خير؟

قالوا: وما هو؟

قال: أنا شيخ كبير، لا يضركم إن كنت معكم، أو مع غيركم، لئن كنت معكم لا أنفعكم، ولئن كنت مع غيركم لا أضركم، وإن لي عليكم لحقا لخدمتي وجواري إياكم.

فقد علمت أنكم إنما تريدون مالي، وما تريدون نفسي، فخذوا مالي، واتركوني وديني لألحق بالمدينة.

فقالوا: صدق، خذوا ماله، فتعاونوا به على عدوكم.

ففعلوا ذلك فاشترى نفسه بماله كله، ثم هاجر.

فلقيه أبوبكر الصديق، وقيل: لقيه النبي ﷺ.

فقال: ربح البيع يا صهيب.

فقال: وبيعك لا يخسر.

محمد فريد فرج فراج

أربعة من طريق الاستقامة

قال شقيق البلخي رحمه الله: أربعة أشياء من طريق الاستقامة:
١. لا يترك أمر الله لشدة تنزل به.
٢. ولا يتركه لشيء يقع في يده من الدنيا.
٣. لا يعمل بهوى أحد ولا يعمل بهوى نفسه؛ لأن الهوى مذموم.
٤. ليعمل بالكتاب والسنة.

(الحلية: ٢/٥٠٢)

العقل مع الاتباع

عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي- رحمه الله تعالى- وقد روى حديثا، فقال له بعض من حضر: تأخذ بهذا؟ فقال: إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثا صحيحا، فلم آخذ به؛ فأنا أشهدكم أن عقلي قد ذهب، ومد يده. وقال الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله: قال الشافعي: يا أبا عبدالله، إذا صح عندكم الحديث عن رسول الله ﷺ فأخبرونا حتى نرجع إليه.

(صفة الصفوة: ٢/٥٥٦)

الورق والوراقون

قال العلامة أبوالفرج ابن نديم الوراق البغدادي (ت ٣٨٥هـ) رحمه الله: «إن العرب كانت تكتب في أكتاف الإبل، واللحاف: وهي الحجارة البيض العريضة الرقاق، وفي عسب النخل، وبعد ذلك كتبوا في الجلود المدبوغة.. وكانت الدباغة في أول الأمر بالنورة وهي شديدة الجفاف، ثم كانت الدباغة الكوفية تدبغ بالتمر، وفيه لين، ثم كتبوا على الورق الخراساني، وكان يعمل من الكتان، وحدث صنعه في أيام بني أمية، وقيل: إن صناعا من الصين عملوه بخراسان على مثال الورق الصيني الذي كان يصنع من الحشيش.

ويذكر من أنواعه: السليماني، والطلحي، والنوحي، والفرعوني، والجعفري، والطاهري».

(الفهرست، لابن نديم، ص٣١، بتصرف يسير)

متى يستجيب الناس لك؟

قال الإمام ابن قيم الجوزية- رحمه الله: «العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا؛ فإنهم لا يقدرون على تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب، مع إقامتهم على دنياهم.. فترك الدنيا فضيلة، وترك الذنوب فريضة؛ فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم الفريضة؟! فإن صعب عليهم ترك الذنوب، فاجتهد أن تحبب الله إليهم، بذكر آلائه، وإنعامه، وإحسانه، وصفات كماله، ونعوت جلاله، فإن القلوب مفطورة على محبته.. فإذا تعلقت بحبه.. هان عليها ترك الذنوب، والإصرار عليها، والاستقلال منها.

وقد قال يحيى بن معاذ: «طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها».

(الفوائد، ص ١٦٩).

الأفئدة مزارع الألسن

قال الإمام الشافعي رحمه الله: إن الأفئدة مزارع الألسن، فازرع الكلمة الكريمة فيها؛ فإنها إن لم تنبت كلها نبت بعضها.

(مناقب الشافعي للبيهقي، ٢/٧٦)

المساجد مجالس الكرام

- قال أبوالدرداء- رضي الله عنه: ما من رجل يغدو إلى المسجد بخير يتعلمه أو يعلمه إلا كتب الله له أجر المجاهد، ولا ينقلب إلا غانما. (الزهد للإمام أحمد، ص ٢٥٤).
- قال أبودريس الخولاني- رحمه الله: المساجد مجالس الكرام.
- قال عمرو بن ميمون- رحمه الله: المساجد بيوت الله، وحق على المزور أن يكرم زائره. (الحلية: ٢/ ١٦٢،٧١).

أقل الناس علما

قال الإمام الأوزاعي- رحمه الله تعالى: إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط (شداد المسائل)، فلقد رأيتهم أقل الناس علما.

(جامع العلوم والحكم، ص ١٢٣)

من درر الإمام أحمد

- ما شبهت سن الشباب إلا بشيء كان في كمي فسقط.
- ما قل من الدنيا كان أقل في الحساب.
- كل شيء من الخير تهتم به، فبادر به قبل أن يحال بينك وبينه.
- لا تزال بخير ما نويت الخير.
- يؤكل الطعام بثلاث: مع الإخوان بالسرور، ومع الفقراء بالإيثار، ومع أبناء الدنيا بالمروءة.
- إن لكل شيء كرمًا، وكرم القلب الرضا عن الله عز وجل.
- الدنيا داء، والسلطان داء، والعالم طبيب. فإذا رأيت الطبيب يجر الداء إلى نفسه فاحذره.

(الحديقة لمحب الدين الخطيب، ٣/ ١٣٥٠)

النعيم والغنى

قيل لراشد بن سعد- رحمه الله: ما النعيم؟

قال: طيب النفس.

فقيل له: ما الغنى؟

قال: صحة الجسد.

(الزهد: للإمام أحمد، ص ٦٤٨)

أحوال «لو»

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى:

«(لو) تستعمل على وجهين: أحدهما: على وجه الحزن على الماضي والجزع من المقدور، فهذا هو الذي نهي عنه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٥٦). الوجه الثاني: أن يقال: (لو) لبيان علم نافع كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) ولبيان محبة الخير وإرادته، كقوله: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت مثل ما يعمل، ونحوه جائز».

(الفتاوى: ١٨/ ٣٤٨).

فزادهم إيمانا

قيل لسفيان بن عيينة- رحمه الله: الإيمان يزيد وينقص؟ قال: أليس تقرأون في القرآن ﴿فزادهم إيمانا﴾ في غير موضع؟ قيل: ينقص؟ قال: ليس شيء يزيد إلا وهو ينقص.

(حياة السلف بين القول والعمل، ص١٨)

هكذا كانوا

عن الحسن- رحمه الله- قال: كان- والله- من أدركت من صدر هذه الأمة ما قالوا بألسنتهم فكذلك في قلوبهم، كانوا والله موافقين لكتاب ربهم ولسنة نبيهم ﷺ، فإذا جن الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يرغبون إلى ربهم في فكاك رقابهم، إذا أشرف لهم من الدنيا شيء أخذوا منه قوتهم، ووضعوا الفضل في معادهم، وأدوا إلى الله فيه الشكر، وإن زوى عنهم استبشروا، وقالوا: هذا نظر من الله واختبار منه لنا، وإن عملوا بالحسنة سرتهم ودعوا الله أن يتقبلها منهم، وإن عملوا بالسيئة ساءتهم واستغفروا الله منها.

(موسوعة ابن أبي الدنيا، ١/ ٣٣١)

الاقتداء

قال إبراهيم بن هانئ: اختفى عندي الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله- ثلاثة أيام، ثم قال: اطلب لي موضعا حتى أتحول إليه. فقلت: لا آمن عليك يا أبا عبدالله. قال: إذا فعلت أفدتك. فطلبت له موضعا، فلما خرج قال لي: اختفى رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام، ثم تحول، وليس ينبغي أن نتبع رسول الله ﷺ في الرخاء ونتركه في الشدة.

(حياة السلف بين القول والعمل، ص٤٠)

القلم أمانة

خالد برادة
كاتب مغربي

من الأمور التي لا تجهل والحقائق التي لا تنكر أنَّ أمانة القلم من أعظم الأمانات؛ ومسؤولية من أضخم المسؤوليات، وأشدها على الإطلاق؛ وأنت خبير أنَّ القلم رسول العقل وترجمان الفكر؛ ولن نغالي إذا قلنا إنَّ القلم فصيح في كلماته، بليغ في عباراته.

وإذا كان الحق جلَّ جلاله قد أقسم به في كتابه في مستهلِّ سورة القلم بقوله: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾(القلم: ١)، فالأمر إذن جلل؛ يلفت الأنظار ويوجب الاعتبار؛ إذ لو لم يكن للقلم أهميته الجليلة لما أقسم به الحق سبحانه، وحاشا لله تعالى أن يقسم بشيء متهافت؛ والدارسون للقرآن الكريم يشهدون أن الله تعالى منزه عن العبث في قسمه، بل في كلِّ شيء من قوله.

ومن ثمَّ تبوَّأ القلم مكانة سامقة، وتحمَّل من يخطُّ به كلماته تلك الأمانة، خاصة إذا كان رائدا من روّاد الفكر؛ ولنا أن نتساءل: هل يخون الرائد أهله؟ إيه أخي القارئ، إنّي أقول والأسى ملء الجوانح: إن هناك روادا خانوا أهلهم، ولم يصدقوا قومهم، فحادوا بالقلم عن مقاصده في تمحيض النصح الجليل، واتخذوه وسيلة للتضليل، فطعنوا به الأمَّة في صدرها، وذلك بكلمات مسمومة وأفكار هدَّامة، مرق أصحابها من حظيرة فكرنا، فكان دعاتها معاول هدم لما شيده الآباء، لا عوامل مساعدة لإتمام البناء، خاصة من خدعوا الناس بأسمائهم العربية تحت ثياب تغريبية، والأنكى من ذلك وأشد أنَّهم عرفوا كيف يصلون إلى أساليبهم في احتواء عقل القارئ العربي، عن طريق كتابة مقالاتهم في الصحف والمجلات، فضلا عن القنوات التلفزيونية في عصرنا الراهن، وهذه الأخيرة لها من الخطورة الجسيمة ما يعلم الجميع.

فليت شعري: ماذا جنى هؤلاء وما الذي كسبوا، بئس المال الذي حصّلوه؛ بل إنهم خسروا أنفسهم لما خانوا الأمانة ولم يقدروها قدرها؛ فكانت أخلاقهم رديَّة بأعمالهم الدنيَّة تلك، ونحن هنا لا نحتقرهم أو نزدريهم؛ لكن ماذا عساك أن تقول فيمن تتبعهم الأستاذ أنور الجندي (رحمه الله) الذي جنَّد فكره وقلمه لحماية الفكر الإسلامي، ودفع الترهات عنه، وصيانة المكتبة الإسلامية من سموم هؤلاء، فحكم عليهم بقوله: «سوف يدمغهم التاريخ بأنهم كانوا روادا غير مؤتمنين على الأمانة، وسوف تكتب أسماؤهم في سجل الذين عجزوا عن أن يقولوا كلمة الحق، وأن ينصحوا لأمتهم وهم الذين عاشوا حياة الغرب، وعرفوا فساد مناهجه وأساليب حياته...».

(والأمر يشمل كل من على شاكلتهم)؛ فعلى الرغم من معرفتهم لفساد الحياة الغربية، أقاموا على عُتوِّهم ورداءة طويَّتهم في تضليل بني جلدتهم؛ ووسيلتهم في ذلك يراعتهم التي كان أولى بهم أن يسطّروا بها ما ينفع السائر ويهدي الحائر.

ألا فليتّق الله تعالى كلّ من حمل قلما، وليعلم أنَّ ما يحمله في يده من قرطاسه وطرسه ينمُّ عما في كأسه، وأنَّ كلماته ستبقى إلى غده شاهدة على يومه وأمسه.. وإنّي أرفع ندائي إلى حملة الأقلام أن يصدقوا الأنام، وليعلموا أنَّ القلم أمانة عظيمة بما يترجمه من كلام.

الإعجاز العلمي

الإعجاز العلمي.. مجلة فصلية تصدر عن الهيئة العامة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة التابعة لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، يرأس تحريرها د. صالح الكريم

اقرأ في العدد الجديد:

*الفص الأمامي من المخ يقوم بإتخاذ القرار

*(DNA) ينتقل من الآباء إلى الأبناء عبر النطفة الأمشاج

*الاغتسال بالماء البارد ينبه الجهاز العصبي ويزيد مناعة الجسم

* الوباء بين حقائق العلم ووحي السماء

* التفسير الطبي لقصة أصحاب الكهف

* كفاءة الأعسال المضادة للمكيروبات

العدد الجديد
(ذو الحجة ١٤٣٤هـ)

البريد الالكتروني:
skarim@kau.edu.sa
تلفون: ٠٠٩٦٦٢٥٦٠١٣٣٢

الوعي الشبابي

www.alwaeialshababy.com

- مواضيع حيوية ومعاصرة
- حوارات حصرية مع الشباب المبدعين
- مقالات لأبرز الكتاب الشباب

«الوعي الشبابي» مجلة شبابية
إلكترونية تصدر عن مجلة «الوعي الإسلامي»
رئيس التحرير : فيصل يوسف العلي